١٧ رمضان

تتضمن تفصيل مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج
تتمة الفتنة التي حدثت بسبب مقتل الخليفة عثمان،
ستئثار بني امية بالخلافة وخروجها من أهل البيت

المكتبة الادبية - بيروت

GIFTS OF 1996
BIBLITHEQUE
INTERUNIVERSITAIRE DES
LANGES ORIENTALS
PARIS

أبطال الرواية

* علي بن ابي طالب	: رابع الخلفاء الراشدين
* معاوية بن ابي سفيان	: أول ملوك الدولة الاموية
* عمرو بن العاص	: والي مصر
* قطام بنت عدي	: غادة الكوفة
* العجوز لبابة	: مربية قطام
* سعيد الاموي	: عاشق قطام
* عبد الرحمن بن ملجم	: قاتل الامام علي
* الحسن والحسين	: ابنا علي
* عمرو بن بكر	: المتآمر لقتل عمرو بن العاص
* البرك بن عبد الله التميمي	: المتآمر لقتل معاوية

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

* تاريخ ابن الأثير	* أسد الغابة
* التقويم العام	* مروج الذهب للمسعودي
* تاريخ الخميس	* تاريخ المقريزي
* السيرة الحلبية	* « ابن دقاق

فذلكة تاريخية

الخوارج جماعة من رجال الامام علي بن ابي طالب نقموا عليه قبوله التحكيم على أثر وقعة صفين ، وكانوا قبل ذلك في مقدمة الذين حرضوه على قبوله . لكنهم لما رأوا التحكيم أدى الى خروج الخلافة من يده الى يد معاوية بن ابي سفيان نقضوا بيعه ونبذوا طاعته ، وطمعوا فيها لأنفسهم فبايعوا واحدا منهم يدعى عبد الله بن وهب ، وحاربوا تحت رايته زمنا

ولما صدر حكم الحكمين بخلع علي وتثبيت معاوية اشتد ازر معاوية ، وبويع بالخلافة في الشام

وكان الخوارج ما زالوا في بدء أمرهم ، فأخذ علي يتجهز لحرب معاوية . وفيما هو في ذلك جاءه الخبر بتألب الخوارج وتمردهم ، فنصح لهم بالطاعة وبين لهم انه لم يخطيء بقبول التحكيم وانه لم يقبله الا اجابة لطلبهم ، ولكنهم لم يرتدعوا . فرأى ان يستأصل شأفتهم قبل خروجه الى معاوية ، فحاربهم في مواقع عدة اشهرها موقعة النهروان وراء دجلة بالقرب من بغداد ، وقد انتصر فيها عليهم نصرا مبينا وشتت شملهم ، على انهم عادوا الى الاجتماع في الخفاء

وفي سنة ٣٨ هـ فتح عمرو بن العاص مصر ، وقتل محمد بن ابي بكر عاملها ، وتولاها باسم معاوية . فأصبح معاوية خليفة في مصر والشام ، وجعل مقامه دمشق . وبقي علي بن أبي طالب خليفة في العراق والجزيرة والحجاز واليمن ، وجعل مقامه الكوفة .

ثم أخذ معاوية يبعث سراياه الى بلاد الامام علي يبغي فتحها ليستأثر بالخلافة . فأنفذ جندا الى مكة ، وآخر الى اليمن ، وثالثا الى الجزيرة ، وظلوا يحاربون ويناوئون ولكنهم لم يبلغوا اربا حتى دخلت سنة اربعين للهجرة . فتأهب الامام علي للخروج الى قتال معاوية ، في جيش قوامه اربعون الفا من انصاره بايعوه على الفوز أو الموت . وفيما هو في ذلك فاجاه القدر فمات مقتولا كما سترى تفصيل ذلك في هذه الرواية

غادة الكوفة

الكوفة مدينة اسلامية ، مصرها سعد بن ابى وقاص احد كبار الصحابة ، في السنة السابعة عشرة للهجرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح العراق ، وكان عمر قد أشار عليه « بأن يقيم في مكان لا يحول بينه وبين المدينة بحر ولا جسر حتى اذا أراد أن يقدم اليه على راحلته قدم » . فبنى الكوفة غربي الفرات على شاطىء بحيرة كانت هناك بقرب مكان الحيرة ، بينها وبين الفرات بضعة وعشرون ميلا

وكان بناؤها في أول امرها بالقصب ، فأصابها حريق فاستأذنوا الخليفة في بنائها باللبن فقال : « افعلوا ، ولا يزيدن احدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة يلزمكم الدولة » . ففعلوا وجعلوا طرقها نوعين : المناهج وعرض كل منها عشرون ذراعا ، والأزقة وعرض كل منها سبع أذرع . وما بين المناهج أماكن البناء وقدرها اربعون ذراعا ، والقطائع وقدرها ستون ذراعا

وكان المسجد أول شيء خطوه فيها ، فوقف في وسط المدينة رجل شديد النزع رمى الى كل جهة بسهم ، ثم أقيمت المباني فيما وراء السهام ، وترك ما دونها للمسجد وساحته . وبنوا في مقدمة المسجد ظلة او رواقا أقاموه على اساطين من رخام كان الأكاسرة قد جلبوها من أخربة الحيرة . وجعلوا على الصحن خندقا لئلا يقتحمه أحد ببنيان ، وبنوا لسعد بن ابى وقاص قصرا بجانب المسجد نقلوا حجارته من آجر بنيان الأكاسرة وسموه قصر سعد

. وقد زاد عمران الكوفة حين اتخذها الامام على مقرا له بعد وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ اذ تقاطر اليها المسلمون من جميع الأنحاء ، وتكاثرت فيها الأبنية وعمرت الاسواق وانتشرت حولها الحدائق والبساتين مما يلى بحيراتها

وكان في ضاحية الكوفة على شاطىء البحيرة حديقة من نخيل ، حولها سور من جذوع النخل يحيط بها الا من جهة البحيرة . وفي وسط الحديقة بيت مبنى من اللبن ، يدل جمال بنائه على ان سكانه من اهل اليسار ، وقد يخيل اليك اذا دخلت حديقته انه مسكن بعض الأمراء ذوى الخدم والحشم ، لما يرى بين نخيلها من آثار المعالف والأوتاد والسلاسل والقيود ، ولتأكل

جذوع بعض النخيل من كثرة شد الأمراس اليها وتعود الخيل تقشيرها وهى مشدودة اليها

ففى ليلة من أوائل السنة الاربعين للهجرة ، والوقت خريف ، وقد نضج الثمر على نخيله وليس من يقطفه ، فتساقط بعضه على الارض وليس من من يلتقطه . كان القمر بدرا وقد اطل من وراء الآكام فارسل ظلال النخيل مستطيلة متقاطعة ، وكان الجو هادئا والسكوت سائدا لبعد المكان عن المدينة وضوضائها ، فلم يكن يسمع غير نقيق الضفادع على شاطىء البحيرة يتخلله صرير الصراصير وقرقرة القر . وربما هب النسيم فاسمعك حفيف سعف النخل هنيهة ثم انقطع . ولقد تعجب لوحشة ذلك المكان مع ما تراه من آثار الانس ودلائل الأبهة

وهناك فى المنزل المؤلف من ثلاث غرف متصل بعضها ببعض ، وقد فرشت ارضها بحصر من سعف النخل فوقها جلود الماعز ، وضعت فى احداها طنفسة جيلة عليها وسائد من الخز ، ووضع فى بعض جوانبها مصباح ضعيف النور ، وجلست على احدى الوسائد فتاة فى مقتبل العمر اشرق وجهها بماء الشباب ، وقد حلت شعرها الاسود فأرسلته على كتفيها فحجب بعض جبينها ، وغطى عذاريها فحجب قرطيها وسالفيها ولكنه زاد عينيها كحلا واشراقا . ولكن عينيها الدعجاوين البراقتين قد غشيهما الدمع فاخذ ينحدر على وجنتين محمرتين بينهما أنف دقيق مستقيم تحته فم صغير . فاذا ازداد انسكاب الدمع تلقته باطراف جدائلها أو بأحد كميها . وكانت لابسة جلبابا أسود زادها جمالا وفتنة . وكأن هذه الغادة استأنست بوحدتها فاطلقت لنفسها عنان البكاء حيث لا رقيب ولا حسيب فأخذت تندب فقيدين عزيزين قتلا فى يوم واحد

تلك هى « قطام بنت شحنة بن عدى » من قبيلة الرباب ، فتاة الكوفة الفتانة التى ذاع صيتها فى الآفاق وسمع بجمالها القاصى والدانى حتى أصبحت فتنة الكوفيين ومضرب أمثالهم ، وشخصت اليها الأبصار وحامت حولها القلوب ، فباتت معجبة بجمالها لا تعرف هما ولم تذق غما حتى بليت بقتل ابيها واخيها معا فى وقعة النهروان ، اذ كانا من جملة الخوارج الذين نقموا على الامام على لقبوله التحكيم فانضموا الى من نقض بيعته وحاربوا فى جملة من حاربه

وكانت قطام ثابتة الجاش شديدة الميل الى الانتقام ذات حيلة ودهاء ، ما انفكت منذ قتل ابيها واخيها وهى تندبهما وتلتمس الانتقام لهما . ولكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بذلك والكوفة مقر الامام على ومجتمع انصاره وشيعته . فاقامت بمنزلها هذا فى ضاحية الكوفة وحيدة ليس معها سوى عبد كهل ربى فى أهلها منذ صباه ، وقد هجرها بعد أن بليت بمصيبتها جميع

الخدم والأعوان ما عداه . وكانت ترتاح الى بث شكواها له ، وكان هو يخفف عنها ويعدها بنيل المرام

وفي أصيل ذلك اليوم كانت قد أنفذته ليستقدم لها عجوزا من مولدات الكوفة ، كانت قد ربيت بين ذراعيها منذ نعومة أظفارها وهي تحن اليهـا حنينها الى أمها ، فلما طال غيابه وسـدل الليل نقابا ولم يعد ، شغلت بذلك من أحزانها وهواجسها وهي وحيدة في هذا البيت . ولكنها كانت اذا سكتت هنيهة تذكرت أباها واخاها ومن كان يقيم في تلك الدار من الخدم والعبيد فتعود الى البكاء والنحيب

◻

وفيما هي في ذلك سمعت وقع أقدام مسرعة عرفت أنها خطوات عبدها ريحان ، فأجفلت ولكنها استأنست به فوقفت وأسرعت لاستقباله . وكان ريحان طويل القامة ، شديد السواد ، خفيف العضـل ، سريع الحركة ، جاحظ العينين ، أفطس الأنف ، عظيم الوجنتين ، بارز الأسنان يزيدها بروزا تدلي شـفته السـفلى وانحسار شـفته العليـا . وكان يتفـانى في خدمة سيدته فابتدرها بالسلام . فقالت : « ما الذي أخرك يا ريحان وأنت تعلم أني وحيدة هنا . أين العجوز لبابة ؟ »

قال : « انها قادمة على أثرى »

قالت : « وما سبب غيابك حتى الآن ؟ »

قال : « كنت في انتظارها وهي تخاطب شابا وتجادله . . . »

قالت : « ومن هو هذا الشاب ؟ »

قال : « لا أدرى . . وهذه هي قد أقبلت وستقص عليك الخبر مفصلا »

وما أتم كلامه حتى دخلت العجـوز تتوكأ على عكازها وقد احدودب ظهرها ونال منها الكبر فزادها قصرا ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب ، وكانت عمصاء العينين غائرة الفم لخلوه من الأسنان ، مجعدة الخدين غائرتهما . فتقدمت الى قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب أسود تجره وراءها لطوله وقصرها . وحالما دنت منها قبلتها وأخذت تخفف عنها وتقول : « لا بأس عليك يا ابنتي ، اعذريني لابطائي في الحضور »

فلم تزدد الفتاة الا بكاء وهي تقول : « ما الذي يشغلك عني يا خالة وأنت تعلمين أن ليس لي معز في أحزاني سواك »

قالت : « هوني عليك يا قطام واستريحي ، فقد جئتك بالفرج باذن الله »

قالت : « من أين يأتيني الفرج ولا يفرج كربتي الا الانتقام ؟ »

قالت ذلك وحرقت اسنانها وهى تتشاغل بجمع شعرها وارســاله وراء ظهرها . ثم مسحت عينيها بكمها الطويل وأرسلته على كتفيهـا فبـانت اساورها ودمالجها حول معصمها الممتلىء ونظرت الى العجوز كأنها تسألها الايضاح

فضحكت العجوز وهى تنظر اليها ، ثم كفت عن ضحكها فجأة وكأنهـا تذكرت أمرا محزنا فاستاءت قطام من ضحكها وهى تبكى وقالت : « ما بالك تضحكين ؟ أتهزئين بكلامى . انى والله لا اقنع بما دون الانتقام »

فامسكتها العجوز بيدها وأقعدتها على الوسادة وجلست الى جانبها ، ونظرت الى ريحان نظرة فهم منها أنها تريد خروجه لتخلو الى قطام. فخرج

فلبثت قطام تنتظر ما تقوله العجوز . فاذا بها تظل كأنها تتهيأ لحديث طويل ثم قالت : « وماذا تريدين يا قطام ؟ »

قالت : « أريد أن آثار لأبى وأخى اللذين قتلهما على ظلما ، ولا بد لى من الانتقام »

قالت العجوز : « ما قولك فى انى وجدت لك من يأخذ لك بثارك ؟ »

قالت : « من هو ؟ قولى »

قالت : « اصبرى ولا تكونى لجوجة . أتعرفين سعيدا ؟ »

قالت : « واى سعيد ؟ » . قالت : « سعيد الاموى الشباب الجميل الواقع فى هواك »

قالت : « دعينا من الحب والغرام وحدثينى عن الانتقام »

قالت : « سبحان الله ! اجيبينى عن سؤالى . الا تعرفين هذا الشاب المغرم بك ، المفتون بسواد عينيك ؟ »

فتململت وقالت : « نعم أعرفه ، وماذا فى معرفته ؟ . بالله عليك لاتذكرى الغرام ، انى لا اشعر بعاطفة الحب ، ولايهمنى أحبنى الناس أم ابغضونى »

فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت : « يا للعجب ! . ما أكثر لجاجتك . اذا كنت تعرفين سعيدا هذا فهل تحبينه ؟ »

فأجابت على الفور : « لا. لا. لا احبه ، ولا احب احدا ان قلبى فى شاغل عن الحب بالبغض . انى ابغض بعض الناس ولا احب احدا »

قالت : « اذا كان لابد من الانتقام فيجب أن تحبى سعيدا »

قالت : « كيف احبه وليس فى قلبى موضع لغير البغض والحقد . انى حاقدة ناقمة »

قالت : « انا اعلم ذلك ، ولكن احبى سعيدا ولو الى حين وهو ينتقم لك »

فبغتت قطام ، ونظرت الى العجوز وجعلت تتفرس فيها لتتحقق انها تجد

ولا تهزل ، فلما آنست الجد فى لهجتها قالت : « هل تقولين حقا ؟. وهل سعيد يرضى أن يركب هذا المركب الخشن ؟ »

قالت : « انى اجعله يركبه ، فان لم يكن أهــلا له فهو ليس أهلا لحبــك . ما رايك ؟ »

فصمتت هنيهة ثم قالت : « أحبــه ؟ . نعم أحبه اذا كان الامر كذلك ولو الى اجل قريب . ولكننى لا اظنه اهلا لهذا العمل ، بل لا احسبه يقدم عليه . ولكن قولى لى هل تتكلمين من عند نفسك أم سمعت ذلك منه ؟ »

فاعتدلت العجوز فى مجلسها ، ونظرت الى قطام وقالت : « اعلمى ياحبيبتى ان سعيدا هذا قد علق بك واحبك منذ بضعة اعوام ، ولكنه لم يكن يتجرأ على مخاطبــة ابيك فى الامر ، لأن اباك كان يومئـــذ فى جمــلة القائمين بنصرة على . وسعيد كما تعلمين اموى ، اى انه ممن نقموا على (على) وقاموا للمطالبة بدم عثمان . فكان يعلم انه اذا خطبك من ابيك يومئذ فلن ينال غير الفشل . أما بعد ان خرج ابوك على خلافة على ، ونبذ طاعته فى جملة من خرجوا عليه بعد التحكيم ، فقد حدثت سعيدا نفسه بأن يخطبك ، فكلمنى فى شأنك مرارا . ولكن أباك كان مشغولا بمحاربة على وشيعته فلم اتمكن من التوسط له . فلما علم بقتله وقتــل اخيك . واحسرتاه عليهما (وتنهدت وهى تتظاهر بمسح دموعها) عاد الى مخاطبتى فى ذلك . وقد كنت أسوفه لعلمى بحزنك الشديد ، ولكنه لم يزل يتردد على ويستنهضنى واعدا بأن يبذل كل مرتخص وغال فى سبيل التمتع بهذا الوجه الجميل ، الى أن جاءنى اليوم واعاد الكرة والح كثيرا ، فلمحت له الى انه اذا طمع فى رضاك ، فلاسبيل الى ذلك سوى الانتقام لأبيك واخيك ، وقد آنست منه ارتياحا فاطلت الكلام معه وريحان فى انتظارى ، وهذا هو سبب غيابى عنك . فما قولك ؟ »

فلما سمعت قطام كلامها استبشرت بنيل مرامها فقالت : « وهل ترينــه يفى بالعهد ، أو يستطيع قتل على بن ابى طالب . انى لا أقبــل مهرا أقل من ذلك »

قالت : « اظنه يقبل ، وارى أن استقدمه اليك ، ونظرا الى ما اعهــده فيك من المهارة لا اشك فى انه يأخذ على نفســه العهد أن يقوم بكل ما تريدينه ، ولا سيما اذا اظهرت له ميلا ، وذكرت له انك تحبينه ، وتفننت فى أساليب الدلال والتمنع ، مشترطة انك لا تتزوجين منه الا بعد قتل على . فاذا عاهدك على هذا صبرنا حتى يقتله ، فاذا لم يفعل ، أو لقى حتفه ، كان دمه على رأســه والسلام . ما قولك ؟ »

فاشرق وجه قطام وارتاحت الى هــذا الراى وقالت : « لاباس بما اشرت به . استقدميه لنرى ما يكون . ولكن لاتنسى ان تذكرى له انى لم أقبل بعد، وبالغى فى وصف تمنعى ، وعلى بعدئذ أن أكمل الحيلة »

فاغرقت العجوز فى ضـحكها وقالت : « سـامحك الله يا قطام ، الا تزالين تحسبيننى ساذجة ، وهل تجهلين أين قضيت هـذه الشيبة ؟ انى قضيت عمرى فى مثل هـذه الشؤون ، فكم زوجت من رجال ، وكم اقنعت بالزواج نساء كان قبولهن اياه ضربا من المحال . لاتخافى على ، كما انى لا أخاف عليك» . قالت ذلك ونادت ريحان فأسرع اليها . فقالت له : « هل تعرف الشاب الذى كان عندى الليلة ؟ »

قال : « نعم أعرفه » . قالت : « سر اليه ، انه ما زال فى المنزل حيث رايتنا الليلة ، وقل له : (ان خالتك لبابة تدعوك اليها) . . »

قال : « واذا أبى ، فماذا اقول له ؟ »

قالت : « لا اخاله يأبى ، بل سيسبقك فى المجيىء ، فاذهب وادعه » . قال : « سمعا وطاعة » . وخرج

□

كان سعيد شابا أمويا فى حوالى الثلاثين من عمره ، توفى ابوه وهو طفل فكفله جده وقضى صباه وشبابه مع جده فى منزل الخليفة عثمان وكانا من أخلص مريديه . فلما قتل عثمان كان سعيد وجده فى مقدمة الناقمين لعثمان والمطالبين بدمه . فلما كانت موقعة الجمل كان سعيد فى جلة رجال أم المؤمنين، وظل جده مقيما بمكة لشيخوخته . فلما فشل جند أم المؤمنين وعادت الى مكة عاد هو معها وظل عند جده ولم يخرج لموقعة صفين

ولكنه كان يتردد على الكوفة ، وكان يسمع بقطام هذه وجمالها ، وقد رآها مرارا وهى بالخمار فوقعت من نفسه موقعا عظيما ولكنه لم يجرؤ على التقدم لخطبتها ، لان اباها كان قبل تحكيم الحكمين من شيعة الامام على فلم يكن ليزوج ابنته بأموى يطالب بدم عثمان . فلما خرج الخوارج عن طاعة الامام على بعد التحكيم ، استبشر سعيد وامل نيل مرامه ، ولكنه لم يتمكن من السعى فى طلبها الا بعد مقتل ابيها واخيها . فجاء الى لبابة ووسطها فى الامر ، فاستخدمت هذه كل دهائها فى اغرائه بقتل على ، وتركت بقية الحيلة لقطام لعلمها انها لاتقل عنها دهاء ومكرا

وكان سعيد حسن الطوية قليل الاختبار ، وبخاصة فيما يتعلق بدهاء العجائز . ولكنه كان جميل الصورة معجبا بجماله وقد اعمى غرامه بصيرته فلم يعد يرى غير قطام أو يحلم الا بها . فلما جاء العجوز فى تلك الليلة وخاطبها فى شأنها واظهرت ما اظهرته من التمنع ازداد رغبة فيها وبذل كل ما فى وسعه من الوعود فى سبيل ارضائها ، واغرى العجوز بكل مايرضيها من المال والحلى فوعدته ان تسعى فى ترغيبها . ومضت وتركته يتقلب على جمر الانتظار

فلما جاءه العبد يدعوه اليها خفق قلبه وهرول مسرعا يتعثر بأذياله فاخترق اسواق الكوفة وهو لايرى شيئا مما فيها لاضطرابه وتهيبه اجتماعه بقطام منى قلبه وغاية مرامه ، فكان اذا تصور رضاءها أشرق وجهه وطار فرحا . ثم يعترض تصوره ما آنسه فى حديث العجوز من ان الفتاة تتمنع ، ويتذكر مابدرمنه من الوعد بالانتقام، فتنقبض نفسه ويضطرب لهول الموقف. على ان هيامه كان يهون عليه كل عسير ويصور له المحال ممكنا . فخيل اليه ان قطام اذا رات جماله وتحققت ما هو فيه من الوجد لاتلبث أن تقع فى هواه وتغضى عن أمر الانتقام

وفى ذلك ومثله قطع طريقه ، وريحان يخطو امامه خطواته المتباعدة لطول ساقيه ويحاول الابطاء فى مسيره لئلا يسبق سعيدا ولكنه ينسى ويعود الى الاسراع ، فاذا تنبه الى انه قد سبقه عاد يمشى الهوينى حتى يلحق به . كل هذا وسعيد فى شغل بأحلامه وأمانيه

ولماجاوزا المدينة، آنساسكوتا لايسمع فيه الا صوت الحصى تحت أقدامهما ، والكوفة كثيرة الحصى والرمال ، حتى وصلا الى باب البستان ودخلا بين النخيل ، فقال ريحان : « أمهلنى يامولاى ريثما ادخل المنزل ثم اعود اليك »

فظل سعيد يتمشى بين النخيل ، وهو يتشاغل برؤية ظلالها ، وبالاستماع لنقيق الضفادع على شاطىء البحيرة ، بينما يهيىء نفسه لمقابلة قطام ، فيصلح عمامته ويمشط شاربيه ولحيته ، وينفض جبته . ويصلح وضعها

ولما طال انتظاره قلق وحدثته نفسه بأن يستأذن فى الدخول الى الدار . وفيما هو يهم بذلك سمع حركة ومشيا ، وبعد هنيهة ظهر له نور عند الباب وسمع ريحان يناديه ، فهرول وقلبه يخفق وركبتاه ترتعشان رعشة الحب والبغتة ، فعثرت رجله بحبل من الياف النخيل كان مشدودا الى جذع نخلة ، فكاد يقع ، ثم تقدم نحو باب الدار فاستقبلته لبابة مرحبة ، ومشت أمامه وريحان يتقدمها بالمصباح . فدخلت به حجرة قطام ، ودعته للجلوس على وسادة وجلست هى على وسادة اخرى ، وترك ريحان المصباح هناك وخرج

وكان سعيد يتوقع أن يرى قطام هناك ، فلما لم يرها قلق ، وزاد فى قلقه سكوت لبابة عن الحديث وجمودها . فقال : « مالى اراك ساكتة ياخالة ، الم ترسلى الى بالمجىء ؟ » . قالت : « بلى »

قال : « واين قطام ؟ » . فتنهدت وقالت : « هى هنا فى الغرفة الاخرى ، وسنذهب اليها بعد قليل »

قال : « اراك فى قلق . ما الذى جرى . قولى »

قالت : « لم يحدث شيء » . وتظاهرت بانها تكتم خبرا ، فقال : « ولكنى اراك كئيبة ، أخبرينى ، لقد نفد صبرى »

قالت : « لاتقلق ياولدى ، ليس هناك مايدعو الى القلق . غير انى مللت من

استعطاف هذه الفتاة وترغيبها وتشويقها ، فلم أر منهـا الا البكاء والنحيب ولم اسـمع الا قولها : (الانتقام . الانتقام) . وكل من يخاطبها في غير هـذا الموضوع لايسمع منها جوابا »

قال : « ألم تذكري لها شيئا من حديثي معك ؟ »

قالت : « كيف لا ، انني لو لم اذكر لها اسمك مشفوعا بوعدك بالانتقام لما اجابتني » . ثم ادنت فمها من أذنه وقالت : « ولكنني آنست من خلال تمنعها انها ترتاح الى ذكر اسمك ، واظنها تحبك ولكنها مأخوذة شغلهـا الانتقام عن الحب ، ولذلك سرت لما اخبرتها بوعدك وان لم تصـدق قولي كأنها تحسبني اعبث بها ، أولعلها استبعدت ذلك منك أوخشيت رجوعك فيه لجهلها ما أنت مفطور عليه من الحمية وكرم الاخلاق »

قالت العجوز ذلك بنغمة تدل على ثقتها التامة بشرف نفس سعيد وصدق وعده . ثم شغلت نفسها بالسعال ومسح آماقها مما يتحلب فيها من الدمع المتواصل من أثر الشيخوخة ، وصبرت لترى مايبدو منه قبل اتمام الحديث

اما هو فأثر قولها فيه وهاج ما في قلبه فقال لها : « أنني لا الوم قطام فانها لاتعرفني بعد ، فهي معذورة اذا اساءت الظن بي . ولكن أين هي؟ أريني اياها فأؤكد لها وعدي فتعلم من هو سعيد » . قالت : « هي هنا »

☐

واخذت لبابة المصباح بيدها ومشت أمام سعيد الى حجرة تجلس فيهـا قطام على اريكة وهي تبكي وشعرها محلول . فلمـا رأت النور يقترب منهـا أسرعت فضمت شعرها وأرسلته الى ظهرها وغطت رأسها بنقاب أسود . ولم تكد تفعل ذلك حتى دخلت العجوز وهي تقول : « خففي عنك يا قطـام وارفقي بنفسك واشفقي على شبابك كفاك بكاء ونحيبا . انهضي فسلمي على محبك سعيد . . »

فقطعت قطام كلامها قائلة : « الم اقل لك لاتذكري الحب والغرام بل اذكري القتل والانتقام . اني لا احب الا الانتقام ، ومن ينتقم لي فهو الخليق بأن اعطيه قلبي . ولكن . . . »

فتقدم سعيد وقد أصبح بعد رؤية قطام على تلك الحال لايرى شيئا غيرها ولا يبغي الا رضاها وقد شق عليه قولها : (ولكن) لما ينطوي عليه من ضعف ثقتها به ، فقال لها : « ألا ترضين يا قطام ان أكون انا المنتقم لك ؟ »

قالت وهي تظهر عدم الاكتراث : « لا . لا أرضى أن تعرض نفسك لهـذا الامر من اجلي ، فاني أولى منك بركوب هـذا المركب الخشن » . ثم رفعت يدها وأشارت بسبابتها الى صدرها وقالت بصوت تتخلله غصة البكاء : « انا

اقتل قتلة ابي واخي بيدي . انا اقتلهم . انا اقتل عليا وان كنت فتاة . ان حب الانتقـام يقويني ويشجعني . ولا حاجة بي الى تعريض سـواي لخطر القتل . انك شاب لايهمك من امر على شيء فكيف تتصـدى لقتله من اجل غيرك ، ذلك لايكون »

فانخدع سعيد بكلامها وحسبه صادرا عن شهامة وغيرة حقيقيتين، فازداد رغبة في الاقدام على ذلك العمل . وقال لها : « كيف تقدمين يامليحة على هذا الأمر وانا بين يديك . لعلك لا ترين في الكفاءة . وكيف حسبت أنني لا يعنيني قتل على ، الا تعلمين ان بني امية يطالبونه جميعا بدم عثمان ؟ فاذا قتلته فاني أرضي قومي فضلا عن ارضاء قطام . ان بذل النفس يسير في سبيل ارضائك . واذا اذنت لى أن ادعوك حبيبتي فكل شيء هين »

فلما تحققت قطـام وقوعه في الشرك ، ارادت أن تتمكن من عهـده بصك تستكتبه اياه ، فأمسكت نقابها بيدها وتظاهرت باصلاحه ، فانكشف معصمها عن الاساور والدمالج ، وبانت عيناها وقد ذبلتا من البكاء فازدادتا جمالا، ورنت اليه وتأملته كأنها تزن مقدرته على ما وعد به . اما هو فلا تسل عن حاله بعد تلك النظرة ، فثارت عواطفه ونظر الى العجوز كأنه يحرضها على التوسط في الامر . فتظاهرت لبابة بأنها تساعده في غرضه وقالت لها : « ألم يكفك ماقاله هذا الشهم ؟ ألم اقل لك ان وعده صدق ، وفضلا عن ارضائك بقتل على فهو يرضي عشيرته وأهله ايضا ؟ . اعلمي ياقطام أنه لابد من رجل يقتل هذا الخليفة، ومن يسبق الى قتله يكن صاحب النصيب الاوفر والاجر الاعظم »

فقطعت قطام كلام العجوز قائلة : « انا أعلم انه مقتول لامحالة ، فان لم يبق من الرجال من يفعل ذلك فعلته أنا بيدي . انظري الى هذه الحلى في معصمي واذني ، اني لم انزعها ليس لأني لم احزن على ابي واخي ، بل لأني واثقـة من الانتقام لهما ، ومتى اخذت بالثأر فقـد احييت القتيلين فكيف احزن ؟. أما ما قاله سعيد فمروءة منه ، ولكن الانسان بالحالة عرضة للتردد فلعل سعيدا اذا خرج من عنـدنا يرى رأيا آخر ، أو يتهيب الامر فيرجع عن الوعد . فانا لا اريد أن اقيده بعهد أرى أنه ربما عاد فندم عليه . ولست أقول هذا استهانة بجرأته ومروءته ، ولا استصعابا لقتل على ، فان قتله من أيسر الامور، ولكني أخشى ان يكون تقيد سعيد بهذا العهد على غير رغبته »

هم سعيد بأن يجيب قطام ليؤكد لها صـدق وعده ، فأوقفته العجوز عن الكلام وتظاهرت بالدفاع عنه وقالت : « اسمحي لي يا قطام بكلمة اقولها لك . انت لاتعرفين سعيدا بعد ، ولكنني أعرفه وأعرف صدقه ، وأنا أسألك بالنيابة عنه : هل تريدين أن يكتب لك عهدا بأنه يفعل كل ما قاله لك ؟ »

فلما سمع سعيد ذكر كتابة العهد تهيب وعظم الامر عليه ، وكأنه صحا من سكره لحظة تبين فيها خطر الامر ، على انه ما لبث ان عاد الى سكرة الغرام ، ولا سيما بعد ما سمعه من كلام العجوز الدال على ثقتها به

اما قطام فكانت تنظر الى كل حركة تبدو من سعيد ، فلم يفتها ماجال في خاطره ساعتئذ من الندم وهو يحاول التظاهر بغير ذلك . وارادت ان تحمله على كتابة العهد فقالت للعجوز : « اراك اقمت نفسك نائبة عنه في امر لاتصح النيابة فيه ، ولعله غير راض به ، وفي سكوته دليل على ذلك . فدعينا من هذا الموضوع ، ولا تعرضي سعيداً للخطر وانت تعلمين ما له من المنزلة في قلبي ، وان اكن قلما رايته ، فافضل أن اعرض نفسي للخطر ولا اعرضه »

فعظم ذلك القول على سعيد وثارت الحمية في راسه ، فنهض وقال لها : « اتحسبين سكوتي يا قطام عن تردد أو خوف ؟ . لا وحبك ، فما أنا ممن يضنون بالنفس في سبيل الحب ، وقد اكون ترددت في باديء الراي . واما بعد ان علمت بما لي عندك من المنزلة فاني اكتب العهد ولا أرضى الا بكتابته. هاتوا رقا ومدادا » . فنهضت العجوز مسرعة لاحضار الرق والقلم ، وكانت قد أعدت كل شيء قبل مجيئه

وانتهز سعيد فرصة غيابها وازاح مقعده واصلحه بحيث يواجه قطام . أما هي فنظرت اليه وابتسمت وقالت بصوت يتخلله الدلال : « لا تعرض نفسك للقتل يا حبيبي ، ما لنا وللصكوك الا يكفينا القول ؟ »

فما آنس سعيد منها هذا التقرب وسمع قولها : « حبيبي » حتى أخذ يبثها حبه وغرامه وتفانيه في سبيلها ، وطابت له تلك الخلوة القصيرة وانتشى بمبادلتها اياه عواطف الحب ، واعتقد انه اسعد انسان على وجه الارض بفوزه بحبها له . غير عالم بأن قصدها لم يكن سوى اغرائه بقتل علي ، وقد اضمرت انه اذا فشل في مهمته فلن تأسف عليه اذا قتل . وارادت ان يكتب الصك حتى لا يرجع عن وعده

وادركت العجوز أن في ابطائها وسيلة لاتاحة الفرصة لقطام كي تتمكن من اغرائه ، فابطأت لغير داع ، ثم عادت وبيدها رق من جلد الماعز وقلم من القصب وقرن أيل فيه مداد أسود . فلما رآها سعيد ، وراى الصك في يدها عاوده الخوف ، وحدثته نفسه بالرجوع عن الوعد ، ولكن الحياء والحب منعاه . ولم يخف تردده على قطام فتلافت ذلك بابتسامة ونظرة وهو يرنو اليها ويقول في نفسه : « ما أسعدني بهذا اللقاء ، وما أجمل هذا الحب لولا هذه الشروط » . ولم تترك له قطام فرصة للتردد فقالت للعجوز : « لمن اتيت بهذه الادوات يا خالة ؟ اما زلت تصرين على ان يكتب سعيد عهده ؟ لا . لا اظنه يكتبه » . وابتسمت وهي ترنو اليه ، ثم قالت : « وكأني به ندم على ما فرط منه لا عن جبن أو خوف لا سمح الله ، ولكنه راى قطام

لا تستحق هذه العناية ، واراه يقول فى سره : (امن اجل امراة اقتحم مثل هذا الخطر) . » . قالت ذلك ونظرت اليه نظر المحب العاتب

فلما سمع سعيد كلامها ورأى دلالها نسى كل خطر ، ولم ير له مخرجا من من خجله الا بالمبادرة الى تناول الرق ، فتناوله من يد لبابة وامسك القلم وقد اخذ منه الهيام ماخذا عظيما حتى توردت وجنتاه واحمرت عيناه . فوقفت العجوز الى جانبه والمصباح فى يدها ، فكتب ويده ترتعش ولكنه يتجلد لئلا يبدو ذلك لقطام فتظنه خائفا واليك نص كتابه :

« انا سعيد بن . . الأموى أعاهد قطام بنت شحنة على قتل على بن أبى طالب مهرا لزواجى بهـا ، فاذا لم أفعل لم أكن كفؤا لها ، وعلى عهد الله وميثاقه   كتبه سعيد الأموى »

◻

وما فرغ سعيد من كتابة العهد حتى دفعه الى قطام وهو فخور بما فعل ، ليريها انه ليس جبانا كما ظنته ، ولكنه لم يكد يدفعه اليها حتى شعر بالخطر الذى عرض نفسه له . على انه لم يتبين الخطر جيدا لما حال بينه وبين عقله من غيابة الوجد والهيام

أما قطام فتناولت الرق وقرأته الماما ، ثم نظرت الى سعيد وقالت : « يظهر انك كتبت العهد حقيقة ، اليس عارا على قطام أن تأخذ منك صكا على عهد عاهدتها عليه فى مثل هذا الموقف ، كأنك حملت كلامى على محمل الجد ، وقد قلت لك الآن : (انى لا ابالى من يقتل عليا ، وانه اذا لم يقتله احد فسأقتله انا) . اما وقد كتبته فانى أحفظه عندى تذكارا لهذه الليلة التى اعدها احسن ليالى العمر . . وارجوان نجتمع قريبا لنيل المرام » . قالت ذلك وفى صوتها رنة الدلال

فصدق سعيد كلامها واطمأن قلبه ، ولكنه علم بانه لا ينال قطام الا بعد قتل الامام على بن ابى طالب فعاد الأمر الى خطورته ، فانقبضت نفسه وأراد أن ينفرد بنفسه فاستأذن بالخروج . فقالت له قطام : « أمكث عندنا . . أو اذهب لعلك تهتدى الى سبيل يقرب جمعنا الدائم » . قالت ذلك وابتسمت ورنت اليه ، ثم تأوهت وودعته ، فخرج سعيد ولبابة تشيعه ، فرأيا ريحانا لايزال ساهرا فى الحديقة يطوف حول المنزل خوفا من الرقباء والعيون

ولما خرجت لبابة بسعيد قالت له : « انى اهنئك برضاء هـذه الغادة فقد نلت الليلة ما طالما تلهف عليه اهل الكوفة بل سائر اهل العراق ، ومن الغريب انها كانت مع فرط حزنها لاتنظر اليك الا وهى تبتسم . . فما اجمل الحب اذا كان متبادلا . واما العهد الذى كتبت فليس من الاهمية فى شىء . فهب انك

صادفت خطرا فان قطـام لا ترضى أن تتعرض له » . فودعها ومشى يتعثر بأذياله ، وكأنه غادر قلبه عند قطام . فلما انفرد عادت اليه هواجسه فتصور خطورة الامر الذى أقدم عليه . ولما لم يبق له حيلة فى الرجوع عن عهده جعل ينتحل لنفسه أعذارا تخفف قلقه وتحسن له ارتكاب ذلك المنكر . فخيل اليه أنه اذا قتل عليا فانه ينتقم لسائر بني امية ويفاخرهم جميعا بما لم يستطعه أحد منهم . فينال حظوة فى عينى معاوية فضلا عن تمتعه بقطام . ولما تصور قربه منها اختلج قلبه فى صدره وهان عليه كل عسير

فمشى وهو فى هذه الخيالات الكاذبة حتى دخل الكوفة ومر بجامعها القائم فى وسط الساحة الكبرى . وكان الجو هادئا والقمر منـيرا فرأى ما يحدق بمنزل الامام على من الابنية والخيام بمن فيها من كبار بني هاشم من شيعته. وهو يعرف منهم جماعة صـناديد لايهابون الموت . فخارت قواه وكبر عليه الامر وظل فى طريقه الى منزله يفكر فى حيلة ينال بها ما يريد

□

وكان منزله فى سوق من أسواق الكوفة فوصل اليه وهو يظن نفسه بعيدا عنه ، وانما نبهه جعجعة جمل رابض فى فنائه فظنه جمله وقدعهده فى مأواه قبل ان يغادر المنزل . فدخل الفنـاء فرأى جمالا وأناسـا كأنهم قادمون من سفر فبغت . فتقدم اليه واحد منهم ولم يكد يلقي عليه السلام حتى عرف انه من رجال جده أبي رحاب فذهل ولم يرد التحية وقال له : « ما وراءك ياعبد الله ما الذى جاء بكم ؟ »

قال : « اننا قادمون من عند جدك مولانا ابى رحاب »

قال : « وما الذى حملكم على المجيء ؟ »

قال : « جئناك فى مهمة عاجلة »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « ان أبا رحاب وقد شاخ ووهن عظمه بعثنا يستقدمك اليه »

فذهل وصاح قائلا : « وما الذى أصابه . أمريض هو ؟ »

قال : « مرض الشيخوخة فقط ولكنه مشتاق لرؤيتك وقد أمرنا ان نسرع بالمجيء بك اليه »

قال : « وأين يكون هو الآن ؟ »

قال : « فى مكة »

قال : « اذهب الى مكة . »

قال : « ذلك ما أمرنا به فافعل مابدا لك »

فلبث مدة صامتا يفكر ثم مشى وهو يقول : « لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » . وصار عبد الله فى اثره حتى دخلا المنزل . ثم التفت سعيد وهو ينزع عباءته وقال : « لابد من أمر ذى بال اقلق جدى فدعانى اليه فهل تعرفه ؟ »

قال : « لا اخاله دعاك الا ليراك قبل حلول اجله لأنه شاخ وضعف وانت تعلم حبه لك وأن ليس له سواك »

قال : « لاحيلة لنا فى الامر فلنبت الليلة ونصبح مسافرين » . وقضى ليلته يفكر فى قطام وسفره

ولما اصبحوا ركب سعيد ناقته وركب عبد الله ورفاقه جمالهم وهموا بالمسير ، فراى سعيد أن يودع قطام قبل السفر فاستمهل رفاقه وسار يلتمس منزلها وهو فى لباس السفر . فلما اشرف على المنزل تذكر ليلته امس فلم يضطرب لقلقه على جده وقد خاف عليه الموت قبل وصوله اليه . فدخل المنزل فلقى ريحانا فسأله عن قطام . فقال : « انها خرجت فى أمر وسوف تعود »

فقال : « الى أين ذهبت ؟ »

قال : « لا ادرى »

فشغل بال سعيد لخروجها فى الصباح ، وهو لايرى مايدعو فتاة مثلها الى الخروج ، فدبت الغيرة فى قلبه وقال : « وهل ذهبت وحدها ؟ »

قال : « مع لبابة »

قال : « اتظنها تبطىء كثيرا ؟ »

قال : « لا ادرى وربما بقيت الى المساء أو الى الغد اذ يخيل الى انها ذهبت الى بعض اهلها خارج الكوفة »

دار الحديث بينهما وسعيد يتردد بين أن ينتظر عودتها وبين أن يسير . وتمنى لو يعلم مكانها ليذهب اليها فيودعها ويزيل شيئا من غيرته عليها . ولو تحقق مجيئها بعد ساعة او بضع ساعات لانتظر ولكنه خاف أن يطول غيابها اياما . فنوى المسير وقال لريحان : « اقرىء قطام السلام عند رجوعها ، واذكر لها انى شاخص الى مكة لأمر عاجل وقد جئت لوداعها فلم أجدها . وسأعود قريبا باذن الله »

وخرج الى رفاقه وساروا قاصدين الى مكة وقلبه فى الكوفة . ولم يكد يخرج منها حتى ندم على خروجه دون أن يرى قطام . ولكنه التمس عذرا لنفسه ما شغله من أمر جده

أبو رحاب

وكان أبو رحاب جد سعيد شيخا طاعنا فى السن . ربى سعيدا فى حجره بعد موت أبيه ، وكلاهما على دعوة بنى امية فى المطالبة بدم عثمان . وكان غرضهما الانتقام لعثمان لأنهما اقاما زمنا طويلا فى منزله . وكان أبو رحاب على حبه لعثمان غير غافل عن أخطائه التى دعت الناس الى اضطهاده ، وكثيرا ماحثه على الاصلاح ومصالحة المسلمين فلم يصغ له الا قليلا . وعلم أبو رحاب بعد ذلك ان جماعة من ذوى الاغراض كانوا يثنونه عن الاصغاء ويحرضونه على العداء . حتى اذا قتل عثمان كان أبو رحاب وسعيد فى جملة المطالبين بدمه ، ولكنهما عندما عادا من وقعة الجمل قعد أبو رحاب عن المطالبة ، لأنه تحقق أن أصحاب تلك الوقعة انما حاربوا عليا طمعا فى الملك لا غيرة على عثمان

وأقام لاجليس له بمكة الا سعيد . وكان سعيد ينوى الانضمام الى جند معاوية فى وقعة صفين فمنعه جده . وكان أبو رحاب يعلم ان سعيدا يحب قطام حبا شديدا وانه ساع للزواج بها . ولذا كان يأذن له فى الذهاب الى الكوفة لتلك الغاية . وطال غياب سعيد هذه المرة واحس ابو رحاب بضعفه يتزايد ، فأراد استقدامه ليتزود من رؤيته قبل موته ويوصى له بوصية لها علاقة كبرى بشؤون حياته وربما غيرت مجارى اعماله وحولته عن مقاصده وآماله . فبعث رجلا من خاصته اسمه عبد الله فى وفد الى الكوفة لهذه الغاية . ولبث ينتظر رجوعهم وهو يتقلب على فراش الضعف والهرم كأنه يستمهل ملاك الموت ريثما يصل حفيده لئلا يذهب ما فى نفسه أدراج الرياح وتضيع حياة سعيد عبثا

. أما سعيد فانه قضى مسافة الطريق بين الكوفة ومكة وهو بين شوق الى قطام وقلق على أبى رحاب . وكان من شدة حبه لقطام يود بقاء جده حيا ليبشره برضائها وقبولها لأنه طالما صرح له برغبته فيها . وكان أبو رحاب يتمناها له . وكان سعيد اذا فكر فى ذلك فرح ثم يعترض فرحه أمر العهد وقتل الامام فيضطرب فيعلل نفسه بما يناله من الفخر اذا قتل عليا علاوة على استرضاء جده لأنه يطفىء ما يجيش فى نفسه من نار الانتقام لعثمان فيفرحه قبل موته

قضى أكثر أيام الطريق فى مثل هذه الافكار لايبالى بمن حوله من الرفاق كأنه سائر وحده . ولم يكن يشغله عن ذلك ما يلاقيه فى طريقه من الجبال

والاودية والصحارى ، وما يمر به من الربوع والاحياء والخيام ، حتى أشرف على مكة من اكمة . فاذا هى فى منبسط من الارض تحيط بها الجبال والكعبة قائمة بين ابنيتها قيام الملك بين الاعوان. وكانت الشمس قدمالت الى الغروب فأسرع فى مسيره يلتمس منزل جده وقلبه يخفق خوفا عليه من بأس يصيبه قبل وصوله

ولم يكد يدخل مكة حتى أسدل الليل نقابه فساق ناقته يلتمس المنزل قبل اشتداد الظلام ، وترك رفاقه يهتمون بشؤونهم . وكانت عادته اذا دخل مكة ان يطوف بالكعبة قبل الذهاب الى البيت ، ولكنه سارهذه المرة توا الى المنزل وهو مضطرب خوفا على حياة جده

نعرج على منعطف يؤدى الى البيت رأى فيه أناسا عرف انهم من الاهل والاصدقاء فحياهم وسألهم عن حال ابى رحاب . فلما عرفوه طمأنوه وسبقه بعضهم ليبشر المريض بقدوم حفيده . فلما اطمأن قلب سعيد على جده هدأ روعه وترجل عن ناقته وسلمها الى الخادم ومشى وهو بالعباءة والكوفية والسيف . فانتهى الى باب كبير مقفل دخل من خوخته ولم ينتظر أن يفتحوه له . ومر فى فناء لم ير فيه احدا وسار توا الى الحجرة التى يقيم بها جده عادة وفيها مصباح منير دون سائر الحجرات . وقبل الوصول الى الباب استقبله رجل خارج من عنده يمشى الهوينى على أصابع قدميه مخافة أن يوقظ المريض من نومه العميق . فعرفه سعيد انه من بعض ذوى قرباه فسأله عن جده

فاجابه : « انه نائم نوما عميقا وقد مضى عليه بضعة ايام لاينام فلما احس بالنعاس اخرج الناس من غرفته ولم يبق سوای واوصانی ألا اوقظه الا اذا جئت أنت »

قال : « دعنى أدخل عليه وهو نائم » : قال ذلك ونزع حذاءه ودخل الحجرة يسترق الخطى . فاجتاز العتبة واطل على حجرة مضيئة بسراج على مسرجة قصيرة من الخشب الصلب فوق حافة بارزة من الحائط بجانب فراش . وكانت فتيلة السراج ثخينة يتصاعد من لهيبها سناج يتطاير فيترك فى صعوده آثارا سوداء على الحائط قرب السراج ، ولو كان لون الحائط نقى البياض لظهرت آثار السناج أكثر جلاء ولكنه كان مدهونا بطين أسمر

تقدم سعيد نحو الفراش وقلبه يخفق اشفاقا من أن يكون جده قد رقد رقادا أبديا . فمشى على حصير من سعف النخل يكسو أرض الغرفة ، عليه غطاء كالبساط مصنوع من جلد مصقول . وكانوا لما اشتد به الضعف رفعوه عن الارض الى مقعد مستطيل ، ظهره شبكة من نسيج الجلد ، وهى قدد من جلد يشدونها بين جوانب المقعد كالشبكة يجلسون عليها مباشرة او يجعلون فوقها الفرش ، وقد توسد ابو رحاب فراشا رقيقا والتحف ببرد من صوف أسود يغطيه الى أعلى الصدر ، واستلقى على ظهره ويداه مضمومتان تحت

الغطاء وعيناه مغمضتان يظللهما شعر حاجبيه فيزيدهما غورا

فلما اقترب سعيد من جده نظر الى صدره فرآه يتنفس تنفسا هادئا فهدأ اضطرابه وسكن بلباله ولبث واقفا يتأمل في مظاهر الهرم . فذكر ان جده كان من كبار الهامة طولا وعرضا ، ولكنه أصبح هيكلا من عظام مكسوا بالجلد . اما وجهه فلم يكن ظاهرا منه الا الأنف والجبهة وما بقى منه كان مغطى بالشعر الابيض الناصع . وازداد منظره رهبة حينئذ لضعف النور حتى خيل الى سعيد لما اشرف على فراش جده أن رأسه كتلة من القطن المندوف يتخللها ثنيات مظلمة هي الانف والوجنتان والجبهة ، واما ماخلا ذلك فقد غطته اللحية والشاربان والحاجبان ، واستطالت لحيته وانبسطت حتى غطت عنقه وصدره ولكنها كانت قليلة الشعر تشف عن عنق دقيق مستطيل بانت عضلاته وفي مقدمتها القصبة وقد برزت بروزا عظيما أما الرأس فقد كان حليقا أو لعله أصلع

وكان شيخنا الراقد قد دله قلبه على مجيء حفيده فتحرك وتململ ثم فتح عينيه البراقتين واجال نظره في جوانب الغرفة فوقع على سعيد فتبسم . فلما رآه سعيد قد استيقظ جثا امام فراشه وهم بتقبيل يديه . فرفع أبو رحاب ذراعيه وضم سعيدا الى صدره وطفق يستنشق رائحة عنقه وخديه بلهفة وسعيد يطاوعه على كل حركة يريدها. فأطال ابو رحاب عناقه وسعيد صابر حتى أحس بماء ساخن ينحدر على خده علم انها دموع سخينة ولكنه لم يدر ادموع الحزن هي أم دموع الفرح. على انه خاف عليه فاستأذنه ونهض عن صدره فرآه يحاول الجلوس فأعانه بيديه ونظر اليه وهو جالس فذهل لشدة ضعفه حتى تخيله قفصا من عظام

واخذ أبو رحاب يصلح لحيته وشاربيه ويمسح عينيه . ثم مد يده الى سعيد فعلم هذا انه يريد يده فأعطاه اياها ، فامسكها بيديه فاحس سعيد كأنها أصابع من حديد ليبس أنامله وجفاف جلدها وبرودتها ، وشعر برعشة رعشا متواصلا مما انتابه من الضعف الشديد

▭

وما زال سعيد يشاهد في جده الضعف الشديد حتى سمع صوته فاذا هو كما يعهده جهوري رنان . فاستأنس به واطمأن لسماعه . وأول كلمة سمعها منه قوله : « الحمد لله على مجيئك سالما . لقد اطلت الغيبة ياولدي »

قال : « لقدجئتك مسرعا حالما علمت برغبتك في ذلك؟ كيف أنت الآن وبماذا تشعر يا جدي ؟ »

قال : « كنت أحسبنى على شفا الموت ولكننى لما رأيتك وأمسكت يدك شعرت برجوع قواى . فأنا الآن كما تعرفنى من عشر سنوات وكأن الله شدد عزيمتى ليمكننى من تزويدك بنصيحة هى آخر ما أتلفظ به فى الحياة »

قال : « انى أشتاق لنصحك كل حين وارجو أن يمد الله فى أجلك لتشهد زواجى بقطام » . ثم التفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه أحد فرأى المكان خاليا فقال بصوت منخفض : « وتفرح بما يسبق ذلك من الانتقام الذى طالما تاقت نفسك اليه »

فنظر الشيخ اليه بعينين رأى سعيد بريقهما من خلال الحاجبين ، وكان قوس الشيخوخة واضحا حولهما ، ثم سمع جده يقول : « أما زواجك بقطام فقد فهمته وسرنى بلوغك مرامك وأما الانتقام فلم أفهم علاقته بها »

فتبسم وقال : « الا تذكر يا جداه ما قمنا به منذ اعوام وقام به كل بنى أمية من المطالبة بدم الخليفة المقتول ظلما . وهل جرؤ أحد على الانتقام بقتل القاتل ليخلو لنا الجو ؟ »

فقطب الشيخ جبينه كأنه غضب وقال : « من هو القاتل ومن سيقتله ؟ »

فأدنى سعيد شفتيه من أذن جده وقال : « ان القاتل على بن ابى طالب وأنا سأقاتله ، وفى ذلك مافيه من الفخر والفضل ، وأتمنى أن يمد الله فى بقائك ليتم الامر تحت جناحك »

ولم يصبر الشيخ على سماع بقية الحديث لعظم اضطرابه وحنقه ، وعرف سعيد حنقه مما رآه من ارتعاش يديه واختلاج شفتيه واهتزاز لحيته. ولا تسل عن دهشة سعيد لما سمع جده يقطع عليه الكلام قائلا بصوت عنيف : « لا لا . لا يا سعيد . . . لا تقتلوا البرىء »

فذهل وظن ان جده لم يفهم كلامه فقال له : « تمهل يا جداه ، اى برىء تعنى ؟ انى سأنتقم من على بن ابى طالب ، فكيف تقول انه برىء وأنت أول من دعا الى مطالبته بدم عثمان . يظهر أنك أخطأت مرادى »

قال : « كلا انى لم اخطىء مرادك فلا تخطىء انت مرادى . ان عليا برىء . . . انه برىء مما اتهمناه به . انه لم يقتل عثمان ولا مالأ على قتله ولا اراد سوءا بالمسلمين ، ولا ارتكب أمرا يستوجب نقمة »

فوقف سعيد وهو يحسب نفسه فى منام لعلمه أن جده كان من اوائل الناقمين على على فكيف انقلب الى الضد . فتبادر الى ذهنه أن جده قد خرف

وادرك ابو رحاب ماجال فى خاطره فقال له : « لا يخالج ذهنك شك فى صحة

عقلي فاني انما اقول ما اقوله عن روية وصدق نظر، ولم استقدمك من العراق الا لهذه الغاية . ولا اقول ذلك جزافا بل أثبته بالبرهان »

ولبث سعيد مذهولا مستغربا لكنه صبر وقال : « وما الذى دعاك الى هذا التغير العظيم . كيف يكون ذلك ؟ وكيف يكون على بريئا من دم عثمان ؟ بل كيف تعترف انت ببراءته وقد كنت من أوائل متهميه ؟ »

فأشار الشيخ بيده الى سعيد أن يجلس ويهدىء روعه ويصبر ثم قال : « اما ما دعاني الى ذلك فهاتف سمعته يقول ويكرر القول : (ان عليا برىء وانما يتهمه أهل المطامع وذوو الاغراض) . وكنت كيفما توجهت أسمع هذا الصوت يرن فى اذنى حتى أقلق راحتى . فبحثت عن الأمر بنفسي وتدبرت ما اعلمه من تاريخ على وعثمان وغيرهما من القائمين بهذه الفتنة ، فوجدت معاوية وسائر بنى أمية على ضلال ، بل هم أهل اغراض اتخذوا مقتل الخليفة المظلوم ذريعة للحصول عليها »

وقطب حاجبيه وقد ابرقت عيناه من خلال قوس الاشياخ حول حدقتيه وبان الجد فى لهجته ، فظل سعيد صامتا لايبدى حراكا لما استولى عليه من الدهشة



على خير من معاوية

ثم اجال الشيخ يده فى لحيته واصلح شعر حاجبيه وشاربيه والتفت الى سعيد وقال : « يزعم معاوية واصحابه انهم انما جردوا السيوف وسفكوا الدماء للمطالبة بدم عثمان كأنهم لم يكونوا يستطيعون الذب عنه قبل قتله . ولقد يضحكني مطالبة عمرو بن العاص بدم عثمان ، وهو أول من أراد قتله وسعى فى ذلك حتى افتخر بانه قتله وهو فى فلسطين . فقد علمت انه لما بلغه مقتل عثمان وهو فى وادي السباع قال : (انا قتلته وانا فى وادي السباع) يعني انه سعى فى قتله عن بعد . فلا يغرنك بعد ذلك مجيئه هو وأبناؤه ماشين الى دمشق يبكون ويقولون : (واعثماناه ! . ننعى الحياء والدين) . انهم انما فعلوا ذلك حيلة للانضمام الى معاوية . . .

« واما معاوية وسائر بني أمية ، فهل تحسبهم شرعوا الأسنة وايقظوا الفتنة مطالبة بدم ذلك الخليفة المقتول ؟ . اذا كانوا فعلوا ذلك غيرة وحناناً فما بالهم لم يدافعوا عنه وهو محصور يستنجدهم من المدينة الى الشام ؟ وهب انهم تأخروا عن نجدته كرها كما يزعمون فما بالهم نسوه ونسوا أولاده . واذا كانوا يؤمنون بانه قتل ظلما وانهم انما قاموا للمطالبة بدمه ، فلماذا لم يولوا الخلافة ولدا من أولاده ؟ أرأيت كيف اتخذوا اسم هذا الخليفة ودمه ذريعة الى السلطان ؟

« وهكذا فعل ايضا طلحة والزبير ، فقد قتل عثمان وهما فى المدينة على قيد أذرع منه ، فلو أرادا بقاءه لم يعجزهما الدفاع ولكنهم سكتوا عن قتله حتى اذا رأوا الخلافة افضت الى على ، تظاهروا بالدفاع عن عثمان وقالوا : (انه قتل ظلما) . . »

وكان الشيخ يتكلم محاولا خفض صوته فلا يطاوعه التهيج فلا يلبث حتى يرتفع صوته تتخلله غصات وارتجاج . واما سعيد فكان يسمع كلام جده وهو مطرق لا يستطيع النظر الى وجهه تهيبا واحتراما . فلما وصل أبو رحاب الى هذا الحد سكت برهة تشاغل فيها بمسح فمه وشاربيه من نفثات ريقه لان الهرم اخلى فكيه من الأسنان ، فانتهز سعيد تلك الفرصة وقال له : « كيف تحسب عمل هؤلاء طمعا فى الخلافة ولا تحسب عمل على مثل عملهم . وقد كانوا جميعا فى المدينة ؟ وكيف اذا قتل الخليفة تكون البيعة لواحد منهم

والباقون ينتظرون ؟ . لماذا لا تحسب ذلك طمعا من علي ؟ »

فضحك الشيخ ضحكة اغتصابية أو هي قهقهة تشبه الضحك لعظم ما قام في نفسه وهو في آخر يوم من ايام الدنيا ، واول يوم من ايام الآخرة . وقبل ان يتم قهقهته حول وجهه الى سعيد وقال : « اتسألني عن خلافة علي وقد كان الاولى بي أن اسائل نفسي ما الذى اعماني عن حقه فيها من اول الامر ؟ صدق القائل ان الغرض يعمي ويصم ... ان الخلافة لم تكن لأحد من الصحابة قبل هذا وهو ابن عم الرسول (صلعم) وصهره زوج ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين . وهو اول الناس اسلاما بعدخديجة ، وزد على ذلك ان الرسول (صلعم) ربي في حجر ابى طالب والد علي . وقد كفله ودافع عنه في بدء الدعوة . وكانت قريش تكره دعوته حتى كثيرا ماهموا بايذائه وابوطالب يمنعهم بماله من المنزلة الرفيعة عندهم . فلما ولد علي وربي في حجر الرسول (صلعم) واسلم وهو في العاشرة من عمره وذب عن الاسلام بقلبه ويده ولسانه . ولا انسى يوم الهجرة يوم تآمرت قريش على ايذاء الرسول (صلعم) في مكة فاعتزم الهجرة ، وكيف إن عليا اقام مقامه في منزله فتسجى ببردته وبات على فراشه وعرض نفسه لخطر القتل ونجاه الله . هذا عدا حروبه في الغزوات والسرايا ، فقد شهد معظم المواقع واشهرها ، وبذل نفسه في الذب عن الاسلام يوم كان معاوية وابوه واخوته في مكة من الد اعداء الاسلام . ولم يسلموا الا بعد فتح مكة اى بعد قنوطهم من النصر »

□

كان ابو رحاب يتكلم والعرق يتصبب من جبينه كأنه اتى عملا شاقا يجهد نفسه فيه ، وسعيد صامت مطرق لايزل في دهشته واستغرابه حتى كاد يغيب عن صوابه . ولم يجرؤ على كلام . وطال سكوت جده فهم بسؤاله فرآه يتحفز للكلام فسكت وأصغى . فقال ابو رحاب : « اراك دهشت لما سمعته كأنك لم تعلمه قبلا ، ولا الومك اذا علمته وتجاهلته فاني أكبر منك سنا واعلم منك في هذه الشؤون وقد اعماني الغرض ، وكأنني بعد ذاك الهاتف قد فتحت عيناي وصرت انظر الى الحقيقة كما هي ...

« نعم ان عليا أولى منهم جميعا بالخلافة ، والرسول (صلعم) فضله عليهم جميعا وآخاه دون سواه فقال له على مسمع من الصحابة : (انت اخي في الدنيا والآخرة) . وخاطبه مرة وقال : (لايحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر) . ولقد تستغرب ما سأتلوه عليك وتعجب كيف لم يتول الخلافة قبل الآن . ولا سيما بعد قول الرسول : (ان عليا مني وانا من علي وهو ولي كل مؤمن بعدي) وقوله (صلعم) : (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من

عاداه) . فمن يعلم ذلك ويعجب لخلافتـــه ؟ بل كيف لايعجب لتقاعده عن الخلافة الى الآن ؟ »

وكان سعيد مطرقا وقد تغيرت سحنته وتولته الدهشة حتى ظن نفسه فى منام ، وندم على مجيئه لأنه أصبح بعد سماع ذلك الكلام حجرا بين مطرقتين لا يدرى أيقوم بعهده لقطام التى ملكت لبه أم يعمل بوصية جده وهو فى آخر أيام الدنيا . فظل صامتا لا يبدى حراكا . وادرك جده ارتباكه ولكنه تجاهل ما يجول فى خاطره وعمد الى اتمام الحديث فقال :

« فانت ترى يا ولدى أن عليا أولى بالخلافة من سائر الصحابة لقرابتـــه وصهره ووصية الرسول له ، ثم هو يمتاز عن سائر النـــاس بفضائل تكفى وحدها لتوليه أمور المسلمين ، ولا أرى فى معاوية شيئا منها . ان عليا رجل متقشف زاهد فى الدنيا ، رايته مرة أنزل سيفه فى السوق فباعه ، فسئل لماذا فعل ذلك ، فقال : (لو كان عندى اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه) . ويكفى قوله فى وصف المؤمنين : (ومن سيماهم ان يكونوا خمص البطون من الطوى . يبس الشفاه من الظمـــا . عمش العيون من البكا) . ولو فتشت بيته اليوم ما وجدت فيه صفراء ولا بيضاء . وقد قضى عمره فى اعزاز الاسلام وفتح الفتوحات ، ولم يلبس ثوبا جديدا ولا اقتنى ضيعة ولاربعا . ومن كان فى مقامه يقدر على حشد الاموال واقتناء العبيد والاماء والضيـــاع كما فعل غيره من الصحابة كطلحة والزبير وعثمان ، وصاحبنا وابن عمنا معاوية . . . »

□

ثم سكت الشيخ وتنهد تنهدا عميقا وقال وصوته يعلو بالرغم منه : « ان معاوية خدعنا بتظاهره بنصرة الخليفة المقتول حتى كرهنا الامام عليـا ، وقد كنا فى ظلمات من الغرض لا نرى الحق ، واما الآن وقد انقشع الغشاء عن عينى فقد اصبحت ناقما على معاوية ، واذا فكرت فى اعماله واعمال على كدت اتميز غيظا ويتفطر قلبى أسفا على ما نال هـــذا الامام من الأذى . كيف لا وهو رجل عرفناه يوم انتصر علينا فى وقعة الجمل ، فقد اشفق على عدوه اشفاقه على اولاده فأوصى اصـــحابه بالا يلحقوا مدبرا ولا يجهـــزوا على جريح ولا يمسوا النســـاء ولا الاولاد بسوء . وكم أوصى عماله أن يقسطوا فى أحكامهم وقد أخبرنى رجل انه سمعه يوصى احد عماله ويقول : (لاتضربن رجلا فى جباية درهم ، ولا تبيعن رزقا ولاكسوة شتاء ولا صيف ، ولا دابة يعتمدون عليها . ولا تقيمن رجلا قائما فى طلب درهم) . ولواردت أن أسرد لك من هذه الامثلة لضاق بى المقام وقد ينقضى اجلى قبل الفراغ منها وأنا انما أستمهل ملاك الموت ريثما أتم وصيتى . . فاصغ لى يا ولدى وتأمل عدل الامام على وحلمه

وما ارتكبه معـاوية وعماله من الاعتداء على المسلمين . وخوفا من التطويل وقد تعبت من الكلام ، اذكر لك حادثة قريبة العهد لايزال صـداها يرن فى الاذان . . آه . . آه من القساة أهل المطامع . . أتعرف عبيد الله بن عباس؟ »

قال : « كيف لا اعرفه وهو ابن عم الرسول (صلعم) وابن عم على بن ابى طالب . نعم اعرفه »

قال : « اصغ لما اقصه عليك واعتبر . لما فرغ معاوية من وقعة صفين وتحكيم الحكمين وظفر بالخلافة بحيلة عمرو بن العاص المعلومة ، بايعه اهل الشام وظل على فى العراق . ولم يقنع معاوية بما اوتيه من الحكم فبعث سراياه الى الحجاز والعراق للفتح يدعون الى بيعته ونقض بيعة على. وكان رسوله الى الحجاز واليمن بسر بن ارطاة ، فجاء المدينة وتولاها لأن عاملها فر من وجهه . ثم جاء مكة هذه منذ شهرين ولايزال الناس يتحدثون بفرار صاحبها أبى موسى الاشعرى من وجهه . فاكره اهلها على البيعة فبايعه أهل مكة مكرهين ، وقد كنت مريضا ولم أر وجهه . على ان عمله هذا لايستوجب ملاما . ولـكنه سار الى اليمن وعاملها عبيد الله ابن عباس . فخافـه عبيد الله فهرب الى الكوفة واستخلف عبد الله بن عبد المدان ، فلم يكن من بسر بعد دخوله اليمن الا انه أمر بعبد الله هذا فقتله وقتل ابنـه صبرا . وسمع بابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قد اودعهما عند رجل من كنانة بالبادية ، فأراد قتلهما وبعث فى طلبهما فجاء الكنانى ومعه الطفـلان فلما علم أن بسرا يريد قتلهما ذعر وصـاح قائلا : لم تقتل هـذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلنى معهما . فلم يكن من ذلك الظالم الا انه قتـل الطفلين والكنانى . وعلمت ان الكنانى دافع عنهما حتى قتل . ولقد اعجبنى قول امراة من كنانة رأت ابن ارطاة مارا بعدتلك الفاجعة فقالت له : (ياهذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين . والله ما كانوا يقتلون الأطفال فى الجاهلية ولا فى الاسلام . والله يا ابن ارطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبى الصغير والشيخ الكبير ، ونزع الرحمة وعقوق الارحام ، لسلطان سوء)

« هذه ياولدي أعمال معاوية وعماله ، فأين هى من اعمال الامام على؟ وكيف تنقم عليه بعد ذلك ، وتقول انه قتل عثمان وانه يستوجب القتل ؟ »

ولم يتم الشيخ كلامه حتى خارت قواه وعجز عن اتمام الكلام ومل القعود فاستلقى على ظهره وهو يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، فخاف سعيد عليه فأسرع الى منديل مسح به عرقه واتاه بلبن كانوا أعدوه له فشربه واستلقى يلتمس الراحة ، وسعيد جالس الى جانبه وقد وقع فى حيرة من حيرة . فذكر

عهده لقطام ولبث صامتا . وكان جده الشيخ يلتفت اليه خلسة يرقب حركاته وسكناته . فأدرك ارتباكه وعلم انه يفكر في قطام واهلها فحول وجهه اليه وهو مستلق وقال : « اظنك تفكر في قطام واهلها الخوارج ، وقد يخيل اليك ان خروجهم من طاعة علي قد يطعن في صدق ماقلته لك ، ولكنهم لم يخرجوا الا طمعا في الدنيا فانتحلوا سببا لا يسمعه عاقل الا هزأ بهم وايقن جورهم . خلعوا طاعة علي لأنه قبل التحكيم ، وما ذنبه وهم الذين اجبروه على قبوله ؟ وهب انه اخطأ فهل يخرجون عليه ويحاربونه ؟ . ولكنهم رأوا معاوية قام في الشام وكاد يفوز بالخلافة فطمعوا هم في الحكومة لأنفسهم فأجمعوا على نقض البيعة ، ويؤيد ذلك انهم ولوا عليهم رئيسا منهم وبايعوه ولكنهم فشلوا في حروبهم وعادت العائدة عليهم

« وليس فشلهم بالدليل الوحيد على سوء نياتهم ، ولكنني اتلو عليك حكاية سمعتها من رجل اثق بصدق روايته هي ان الخوارج عند اول خروجهم على علي بعد رجوعهم من صفين ، نزلوا عند النهروان فرأوا رجلا يسوق حمارا عليه امرأة ، فدعوه فانتهروه فافزعوه وقالوا له : (من انت؟) . قال : انا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله (صلعم) . فقالوا له : افزعناك ؟ . قال : نعم . قالوا لاروع عليك حدثنا عن ابيك حديثا سمعه من رسول الله . فحدثهم بحديث (انه تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه يمسي فيها مؤمنا ويصبح كافرا ويمسي مؤمنا) . قالوا مالهذا الحديث سألناك فما تقول في ابي بكر وعمر . فأثنى عليهما خيرا . قالوا : فما تقول في عثمان في اول خلافته وفي آخرها . قال انه محق في اولها وفي آخرها . قالوا : فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده قال انه اعلم بالله منكم واشد توقيا على دينه وانفذ بصيرة . فقالوا : انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على افعالها ، والله لنقتلنك قتلة ماقتلناها احدا . فأخذوه وكتفوه ثم اقبلوا به وبامرأته وهي حبلى ، حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت منه رطبة فأخذها احدهم فتركها في فيه ، فقال آخر : اخذتها بغير حلها وبغير ثمن فألقاها ، ثم مر بهم خنزير لأهل الذمة فضربه احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد في الارض ، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه . فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال : لئن كنتم صادقين فيما ارى فما علي منكم من بأس اني مسلم ما احدثت في الاسلام حدثا ولقد امنتموني وقلتم لا روع عليك . فأضجعوه فذبحوه فسال دمه في الماء واقبلوا الى المرأة فقالت : اني امرأة الا تتقون الله ؟ . فبقروا بطنها . . هذه اعمال اعداء علي وهذا هو علي فكيف تنقم عليه وكيف تقتله او تسعى في قتله ؟ بل كيف نسكت عن قتله ولا تدفع عنه ؟ »

□

فلما رأى سعيد نهاية حديث جده لم يعد يذكر العهد الذي كتبه على نفسه

بقتل علي لئلا يزيد غضبه . فظل ساكتا يفكر في حيلة ينجو بها من وعده بالتي هي احسن ، فلم يسعفه ذهنه واحس بالتعب الشديد ، ورأى ابا رحاب قد تعب ايضا . فقال له : « لقد اتعبت نفسك ياجداه وانت توصيني فشكرا على رعايتك ، واني أرى قولك الصواب وأطلب اليه تعالى ان يقدرني على العمل به ، فاسترح الليلة وغدا نصبح ان شاء الله وقد ارتحنا فنستأنف الكلام » . قال ذلك وأكب على يده فقبلها فرآها قد بردت ويبست . فقال له جده : « نم هنيئا يا ولدي فاني أخشى الا يصبح على الصباح فلا بد من كلمة أقولها وهي ختام ما اوصيك به » . قال ذلك ومد يده فدنا سعيد اليه فعانقه وبكى ثم قال والدمع ملء عينيه وشفتاه ترتجفان وذقنه تهتز : « اذا شئت يا ولدي أن يفارق جدك الدنيا آمنا مطمئنا فعاهده بأن تعمل بما اوصاك . لاتبغ سوءا للامام علي واذا رأيت سبيلا للدفاع فادفع عنه بكل قوتك . هل تعاهدني على ذلك ؟ . . عاهدني عليه . واجبر قلبي واذكر اني جدك وكافلك ووصيك واني ربيتك وتعهدتك واني لا اريد لك الا الخير . هل تعاهدني على ذلك ؟ قل نعم واجبر قلبي اني قلق عليك . . »

فتأثر سعيد من كلام جده حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتذكر حنوه وعطفه عليه فلم يسعه الا الايجاب فعاهده

ولكنه لم يكد يعاهده حتى ذكر عهده لقطام على عكس ذلك فعظم عليه الامر . ورأى جده يميل الى الرقاد فدعا الرجل الموكل به وأمره ان يتعهده في أثناء رقاده وخرج الى غرفة أخرى ونزع ثيابه والتمس الراحة . اما الرقاد فلم يكن له فيه مطمع بعد ما انتابه من شتى الهواجس

لم يهدأ لسعيد بال ، وازداد الامر خطورة لديه ، وهاله انه رمى نفسه بين عهدين متناقضين . فكان كلما تصور نكوله عن قتل الامام علي شعر براحة بال واطمئنان ، ثم يعاوده طيف قطام وبعدها فترتعد فرائصه ويحار في أمره

□

وبقي على هذه الحال حتى انتصف الليل لايغمض له جفن ولا يستقر له قرار . فنهض من فراشه وتزمل ببرده وعباءته وتعمم وخرج الى الخلاء . وكان الظلام مخيما ورقد الناس وليس في طرق مكة سائر فخفف السكون من اضطرابه ، وسار على غير هدى يفكر فيما هو فيه الى أن شعر بالبرد فالتف بالعباءة وظل ماشيا يبطيء تارة ويسرع اخرى حتى رأى نفسه على باب المسجد الحرام فسري عنه . فقال في نفسه : « لأدخلن المسجد اصلي ركعتين لعل الله يوحي الي بما يخفف اضطرابي » . وكان الباب مفتوحا وصحن المسجد خاليا فتأبط نعليه ودخل حتى دنا من الكعبة فصلى وسجد فأحس لساعته

براحة فطاف حول الكعبة ثم التمس مكانا وراءها فاتكأ وعادت اليه هواجسه . فأجال بصره يراقب النجوم السابحة في الفضاء وأخذ بجمال القبة الزرقاء وافكاره تائهة واشتد البرد عليه فادخل راسه في العباءة يجعلها خارا . وكان التعب والبرد تغلبا عليه فخدر واستولى عليه النعاس . ولكنه لم يكد يغمض لحظة حتى ابتدرته الاحلام فرأى قطام بجلباب اسود وقد اسفرت عن محياها فبدت عيناها المكحولتان واخذت تمشي نحوه حافية القدمين على بساط من ريش النعام الابيض . فخفق قلبه لرؤيتها وهم بالسلام عليها فرآها أعرضت اعراض العاتب وعيناها تتلألآن بالدموع ، فتفطر قلبه لرؤيتها على هذه الحال وساءه اعراضها ، فهم بالاقبال عليها فلم تسعفه رجلاه لما تولاهما من الرعدة فناداها فلم تجبه وظلت معرضة وقد تحولت عنه ومشت تنظر اليه شزرا ولسان حالها يقول : « لقد خنت عهدي فما انت أهل لي »

وحاول سعيد اللحاق بها ليخبرها ببقائه على العزم فلم يستطع ، ولما ابتعدت عنه هم بأن يناديها فافاق من رقاده فاذا هو وحده بجانب جدار الكعبة والظلام محدق به

فمسح عينيه ليتبين أفي يقظة هو ام في منام ، ولما تحقق انه كان حالما حمد الله ولكنه أيقن انه اذا لقي قطام فلن يرى منها غير الاعراض

فمكث صامتا تتقاذفه الهموم وهو لايهتدي الى حل مقنع ، فنهض راجعا الى المنزل ليرى ماذا حدث لجده . واشتاق ان يأوي الى فراشه بعدما اضناه التعب والبرد . ولم يكد يتلو سورة الفاتحة عندعودته حتى سمع لغطا خافتا كأن اناسا يتسارون . وكان قد وصل الى مقام ابراهيم امام الكعبة فوقف وأصاخ بسمعه فسمع خطوات بطيئة تقترب من الكعبة وهمسا يتكرر كأن القادمين يتشاورون في أمر خطير . فانزوى وراء المقام في مكان لاينتبه اليه أحد في الظلام ، وكان لايرى الا الكعبة وما حولها

١٧ رمضان

وبينما كان سعيد واقفا فى مكانه اذ راى ثلاثة رجال لم يعرف احدا منهم ولكنه عرف من قيافتهم انهم غرباء ولم يتمكن من تمييز ألوانهم ولا سحنهم وقد لفوا رؤوسهم بالعمائم لفا كالخمار اما اتقاء للبرد واما تنكرا

فعجب لأمرهم وخفق قلبه خوفا من انكشاف مخبئه وخذرا من أن يكونوا قد استخفوا ليكيدوا لأحد فاذا علموا به وبافتضاح سره قتلوه ، فبالغ فى انزوائه لاياتى بحركة وخشى أن يداهمه العطس فينفضح أمره . أما هم فوصلوا الى باب الكعبة واقتربوا من سعيد بحيث يراهم جميعا فلو كان القمر طالعا او كان هناك مصباح لتبين سحنهم جيدا ولكنه لم يستطع أن يتبينهم لسواد الليل . على انه لمح من بادى أحوالهم وحركاتهم أنهم فى أمر ذى بال ، وكان احدهم طويل القامة وهو اكثرهم حركة فجلس رفيقاه الاربعاء وظل هو واقفا ثم جلس القرفصاء وقال : « مالنا ولهؤلاء انهم جبناء ، تعالوا نبدأ نحن بالامر فيكون لنا الفخر »

قال الثانى وكان قصير القامة ممتلىء الجسم : « أنا على رأيك فانه لم ينلنا من الائمة الا الضرر . يتنازعون على الخلافة فيقتتل المسلمون فى نصرتهم فاذا قتلناهم رقدت الفتنة . نعم نقتلهم جميعا » . قال ذلك بصوت خافت وفى نطقه لجلجة وكان يلتفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه احد

فقال الرفيق الثالث وكان لايزال ساكتا : « انى لا اذكر يوم النهروان ومن قتل فيه من الابطال حتى يقطر قلبى دما . ان علينا قتلهم لأنهم لم يرضوا بالتحكيم »

فابتدره طويلهم وكان أجرأهم كلاما وأعلاهم صوتا على عكس رفيقيه فقال : « لايجدينا التذمر والتضجر ونحن سكوت نرى أبناءنا واخوتنا يقتلون فى نصرة هؤلاء الائمة ولا نبدى حراكا . هلم نكف المسلمين شرهم »

فلما سمع سعيد حديثهم علم انهم يتآمرون على قتل جماعة من الائمة ، وان الامام عليا واحد منهم ، ولم يعلم من هم الآخرون . فجعل يرتعد فرقا وخوفا من ان ينكشف مكانه ولكن حب الاستطلاع جعله يقدم على علم ما هم فيه ، فبينا هو ينزوى ليختبىء ويتمنى على السحب ان تشترك مع الظلام فى حجبه عن العيون اذا به راغب فى كشف ما يبيتون

وسكت صاحبا الرجل الطويل الجرىء بعد أن انتهى من كلامه . فلما رأى صمتهما ابتدرهما قائلا : « وماذا علينا لومتنا ؟ حبـذا الموت فى سبيل انقاذ المسلمين من فتنة يقتتلون فيها . وأصل الفتنة ثلاثة يتنازعون على الخلافة وسلطان الدنيا وهم على بن ابى طالب ومعاوية بن ابى سفيان وعمرو بن العاص . هلم بنا نقتلهم نرح الناس منهم »

فقال الثانى : « انى على رأيك من أول الامر فكيف السبيل الى قتلهم وهم محاطون بالجند والاعوان فلنفكر فى وسيلة تضمن لنا الفوز ونامن بها الخطر »

فاسرع الاول فى جوابه وقال : « اراك تتردد كأنك تخاف هول الموقف أو كأنك تتمنى أن يكون نصيبك قتل امام يرهبك . تعالوا نقسم العمـل فيما بيننا . تعالوا نقسم ليقتلن كل واحدمنا واحدا من اولئك الثلاثة ، ونعين يوما نباشر العمل فيه معا ، فيكون احدنا فى الكوفة لقتل على ، وآخر فى مصر لقتل عمرو ، والثالث فى الشام لقتل معاوية . وهكذا يقتل كل منا صاحبه فى ذلك اليوم فيصبح المسلمون وقد نجوا من اسباب الفتنة ، فيختارون خليفة يولونه أمورهم وترجع الخلافة الى بساطتها »

فلما سمع سعيد ذلك تهيب الامر واستعظمه ولم يصدق انهم يستطيعونه وبدا له ان قتل على يمهد له رضاء قطام وان لم يكن قتله على يده ، ولكنه تذكر كلام جده وما أوصاه به من الدفاع عن على لبراءته مما ينسبونه اليه فانقبضت نفسه ولكنه أفاق من اضطرابه عندما عاد المتآمرون الى الكلام . فلما فرغ أولهم من كلامه ولم ير اقبالا عليه من رفيقيه لم يصبر حتى يسمع ما يقولان وانطلق يقول : « لاتترددوا ولا يهولنكما الامر فهو اسهل مايكون على ذى جراة . وكأنى بكما تفكران فى قسمة العمـل وتخافان أن يكون نصيب احدنا أصعب مراسا من نصيب الآخر ، فلا تخافا فانى آخذ على عاتقى قتل اكبر هؤلاء الثلاثة واشجعهم . انا أقتل عليا بن ابى طالب ، فانى وان يكن مقامى بالفسطاط فانى آتى الكوفة فاقتله » . قال ذلك واقبل حتى دنا من باب الكعبة وأمسك بحلقته وقال : « ها أنذا امسكت بحلقة الكعبة وأقسـم بالله وبهذا البيت الحرام لأقتلن عليا بن ابى طالب وابذل فى هذا السبيل ما فى وسعى واشهد الله على ذلك »

فلما فعل ذلك نهض رفيقاه متحمسين فامسك كل منهما بحلقة البـاب واقسم احدهما ليقتلن معاوية بن ابى سفيان ، والآخر ليقتلن عمرا بن العاص

ولا تسل عن سـعيد عندما شهد هـذا العهد الخطير وقد تمنى لو عرف المتآمرين ولكنه لم ير سبيلا الى ذلك . ولكنه فهم من سياق الحديث ان الذى آلى على قتل الامام على من أهل فسطاط مصر

ثم عاد الثلاثة الى مجلسهم فقال احدهم وهو السمين القصير : « لقد تعاهدنا

على قتل هؤلاء الائمة ولكننا لم نعين اليوم الذى نفعل فيه ذلك فان لم نعينه فشلنا جميعا »

فقال الثالث : « وهـذا ما أراه أنا أيضا لاننا ان لم نعين اليوم كان المجال واسعا ، ونخشى ان سبق احدنا الآخر ولم ينجح أوقتل أو قبض عليه ان يخاف الباقيان وينكلا . فلنعين اليوم والساعة »

فقال الاول : « ان الساعة يصعب تعيينها فلنعين الليلة ليتم عملنا فى ليلة واحدة . فى أى الشهور نحن الآن ؟ »

قالا : « فى جمادى »

قال : « فليكن موعدنا رمضان المبارك لنشهد عيد الفطر والمسلمون قد اطمانوا ، واذا قتلنا لقينا ربنا وقد فعلنا ما علينا . فاختاروا ليلة من ليالى رمضان »

قال الثانى : « أنا أختار الليلة السابعة عشرة من رمضان فما قولكما ؟ »

قالوا : « انها خير ليلة » . ونهضوا وسعيد يخاف أن يمروا به ويروه ، ولكنهم داروا حول الكعبة كأنهم يطوفون بها ولبث هو ينتظر عودتهم فلم يعودوا . فلما استبطأهم علم انهم خرجوا من باب آخر أو داروا وتحولوا الى الباب الذى دخلوا منه . فرفع راسه ونظر حوله فلم ير احدا ولا سمع صوتا فنهض وطاف حول الكعبة فتحقق انهم خرجوا . فجلس هنيهة يفكر فيما مر به وهو يحسب نفسه فى حلم لغرابة ما رآه واتفاق حدوثه فى الليلة التى أوصاه جده فيها بالا يقتل عليا . ونظر الى الافق فاستقبلته الزهرة تتلألا كأنها تبشره باقبال الفجر . وتذكر جده فراى ان يعود الى المنزل قبل أن يطلع النهار ويخرج الناس . ومشى

ولما اقترب من المنزل خفق قلبه مخافة ان يكون جده قد أصاب حتفه فى غيابه فدخل الدار فرأى السكون مخيما عليها فاستبشر وقصد الحجرة التى كان جده نائما فيها فرأى المصباح مضيئا فاطل من الباب فرأى عبد الله جالسا بجانب الفراش وجده نائم . فنظر الى عبد الله كأنه يستطلعه الحال فنهض لاستقباله ووجهه باش فاطمأن قلبه وقبل أن يلقى التحية ابتدره عبد الله قائلا : « لقد شغلنا بغيابك فان جدك أفاق من نومه مرارا وطلب ان يراك ونحن لا نعرف مكانك وقد الح كثيرا فى طلبك »

قال : « وكيف هو الآن ؟ »

قال : « فى خير وقد رأيناه فى راحة لم يذقها منذ أيام »

ولم يتم عبد الله كلامه حتى راى أبا رحاب يتحرك فى فراشه فتقدم سعيد اليه ففتح عينيه واشار اليه فدنا منه وجثا أمامه

فقال ابو رحاب : « أين كنت ياولدى فقد طلبناك فلم نقف لك على أثر ؟ »

قال : « خرجت فى حاجة الى الكعبة واتفق لى حادث شغلنى عن المجىء حتى الآن »

فمد الشيخ يده وقبض على يد سعيد وضغط عليها كأنه لا يريد أن يفارقه وسعيد صامت لا يبدى حراكا لشدة تأثره من منظر جده الشيخ وقد شعر أنه انما ضغط على يده بغية الوداع

فترقرقت الدموع فى عينيه والتفت الى عينى جده فرآهما غارقتين بالدمع وهما شاخصتان اليه فتفطر قلبه وهم بأن يتكلم فابتدره جده قائلا : « انى لا أزال فى قلق على مستقبلك وأخشى الا تكون قد استوعبت نصيحتى فقد نصحتك وأنا فى آخر أيام الدنيا نصيحة أوحى الى ان ألقيها اليك . وقد تركتنى الليلة غارقا فى بحار الاحلام وكان هاتفا خوفنى من غيابك . هل أنت باق على عهدى ياسعيد ؟ »

قال : « لقد عاهدتك يا جداه عهدا وثيقا انى لا أسعى بضر للامام على ماحييت ، وأنا باق على عهدى ، وأزيدك علما اننى صادفت فى الكعبة عصبة يتآمرون على قتله وقتل صاحبيه معاوية وعمرو فى يوم عينوه وتعاهدوا عليه فلم يبق ثمة حاجة الى سعيى »

فبغت الشيخ وحملق وصاح : « ومن هؤلاء ؟ »

فقص سعيد خبره مختصرا وختم كلامه قائلا : « انى لم أعرفهم وما استطعت اللحاق بهم خوفا منهم لانى أعزل »

قال : « ألم تعرف الذى حلف على قتل الامام على »

قال : « كلا ولكننى علمت من كلامه أنه من مصر ، ويغلب على ظنى أنه من الخوارج »

فصمت الشيخ برهة كأنه يفكر فى أمر مهم ، ولحظ سعيد من شخوص عينيه وذبول أجفانه وانقلاب سحنته انه تعب . وأما ابو رحاب فتجلد وقال وهو يرتجف ولا يستطيع التلفظ بكل مقطع من مقاطع الكلام كأن لسانه شد برباط : « يا ليتنى كنت بينهم لاقنعهم بالكف عن ذلك ... فلو استطعت استمهال أجلى لسعيت فى البحث عنهم فاذا عرفت الساعى فى قتل الامام على ارجعته عن غيه بالبرهان ... انهم والله ظالموه » . ثم سكت هنيهة ليستريح وعاد الى الكلام وهو يتلجلج ويقف عن الكلام عند كل شهيق من تنفسه وقد أسرع تنفسه وظهر الاضطراب عليه ، فعلم سعيد ان جده فى النزع فارتعدت فرائصه وتخشع قلبه وحزن ، ولكنه أصغى لتتمة حديثه فاذا هو يقول : « وأما أنت يا سعيد فاصغ لقولى واعمل بنصيحتى .. ولا

اقبل منك السكوت عن هذا الأمر . . وانما أنت . . . مكلف بالبحث عنه . . . انك مكلف بالبحث عن هذا . . . الرجل فى مصر . . . والشام . . . والعراق حتى تعلم مقره . . . فاما أن تقنعه . . . واما أن تنبيء . . . الامام بأمره . اني . . . ألقى . . . هذا الامر على عاتقك . . . فاحذر . . . أن تتقاعد عنه . والا فانك . . . قاتل عليا بيدك . . . هذه وصيتي لك ، احتفظ بها ولا تتمهل او تتكاسل . . . والله شاهد . . . على ما أقول . هذه . . . وصيتي الأخيرة بل . . . هذه . . . آخر كلمة افوه بها فى هذه . . . الحياة الدنيا . . . . وكنت مستغربا تأخير أجلي الى . . . الساعة . وكنت أحسبني . . . ميتا منذ أيام ولكن الله . . . انما أراد بذلك . . . أن أكل اليك . . . هذا الأمر . . . هذه آخر وصيتي لك ، ابحث . . . عن هذا الرجل وارجعه . . . عن غيه . . . كما ارجعتك . . . ولو اوتيت . . . عمرا ثانيا لقمت فى بني أمية . . . وفى الخوارج خطيبا أصرح ببراءة . . . الامام على ، على رؤوس الاشهاد ، ولكن آه . . . ان الساعة آتية . . . لاريب . . . فيها . . . وها أنذا أستودعك . . . الله وآخر ك . . . لم . . . ـة أقو . . . لهـا لك . على . . . على . . . اد . . . فع . . . عن على بيدك . . . وقلبك . . . ولسا . . . ن . . . ك »

ولم تخرج هذه الكلمات الاخيرة من فيه حتى اختنق صوته ثم شهق شهقة دوى صوتها فى أطراف المنزل وارتخت مفاصله ، فافلتت يد سعيد من يده ونظر سعيد الى جده ، فاذا هو قد أغمض جفنيه ووقف تنفسه . . فجس يده فاذا هي باردة فلمس جبينه فاذا هو كالثلج وقد فتح فاه وأرسل نفسه الاخير وبطلت حركة الحياة فيه فاصبح جسما بلا روح . فاقشعر بدن سعيد ودق يدا بيد وصاح : « واجداه واجداه . ويلاه كلمني وزدني نصيحة أخرى . . . » . وما من مجيب . وكان عبد الله قد خرج فعاد ولما رأى أبا رحاب قد مات أخبر أهل المنزل فاجتمعوا وعلا النحيب والبكاء

ولم يكن الحزن على موت ابى رحاب شديدا لتوقعهم ذلك منذ أيام . اما حزن سعيد فكان مضاعفا لامتزاجه بالهواجس والاضطراب ولما سمعه من جده ومما هو مقيد به من العهود المضادة

□

وبعد الدفن عاد سعيد الى صحوه وفكر فى حاله فراى نفسه فى مشكلة لايدرى كيف يتخلص منها ، وبعد التأمل الطويل رأى انه قد يسهل حلها اذا استطاع اقناع قطام ببراءة على فتنزل عن حقدها ونقمتها ، فلما فتح عليه بذلك توسم خيرا واحس بانفراج الازمة ، فأعمل فكره كيف يستولي على عواطفها ويغير اعتقادها فى الامام حتى تسكت عن طلب ثار ابيها واخيها فخيل اليه أن اقناعها سهل فهدأ روعه

واسرع فى تدبير شؤون ذويه وكان فيهم شـاب اسمه عبـد الله رباه ابو رحاب كما ربى سعيـدا ، وكان يتعزى به ويحبه ، وهو الذى انفذه الى الكوفة لاستقدام سعيد ، فلما مات أبو رحاب تقدم عبد الله الى سعيد بأن يأذن له فى مصاحبته والح فى ذلك كثيرا . فتعجب سعيد لتلك الرغبة فى السفر ولم يكن يعهد عبد الله ميالا الى ذلك

والسبب فى تلك الرغبة أن ابا رحاب كان من الدراية والفراسة بحيث لم يخف عليه ضعف سعيد ، فأرسل أنفاسه الاخيرة وهو يخاف عليه غدر الناس وخداعهم . ولكنه استدرك قبل موته فأوصى عبد الله هذا بأن يكون له عونا فيصحبه حيثما سار فينجده ويرشده فانه وان يكن شابا مثله ولكنه اعرف بالدهر وبالناس

وبعد أيام ودع سعيد اهله ، واصطحب عبد الله وسارا يطويان الصحراء الى الكوفة ، وعبد الله لايعرف شيئا من علاقة سعيد بقطام ولا ماتآمر عليه الثلاثة فى المسجد الحرام ، ولكنه فهم من حديث ابى رحاب معه ان سعيدا كان عازما على قتل الامام فأرجعه ابو رحاب عن عزمه . وسمع حديث سعيد عن المؤامرة ولكنه لم يتفهمها جيدا . فلما اوغلا فى الصحراء بدأ عبد الله حديثا تطرقا منه الى ذكر قتل الامام على ، واستانس سعيـد بعبد الله وهو مخلص بفطرته ففتح له قلبه وكشف له عن سره وارتاح لمشورته . ولم يصلا الى الكوفة حتى أصبح عبد الله عارفا بكل مكنونات قلبه فشاركه فى شعوره بشأن عهده مع قطام ورجوعه عنه ، فثبته على اتباع وصية جده وهون عليه اقناع قطام الى ان قال : « فاذا لم تقتنع فاتركها والنساء كثيرات وأنا أختار لك فتاة من اجمل الفتيات خلقـا وخلقا وارفعهن نسبا لاتقاس بها قطام » . وكانا يتحدثان وهما على ناقتيهما يطويان البيد طيا

فقال سعيد : « لا لا تقل هذا فليس فى النساء اجمل من قطام ولا صبر لى على فراقها بله اغضابهـا فانك على ما يلوح لى لم تعـان الحب ولا عرفت سلطانه » . قال ذلك وتنهد . . . وتوقف هنيهة ثم قال : « وهب انى لا أحبها ولست عالق القلب بها فان فى يدها عهدا مكتوبا اخاف اذا اغضبتها أن تشى بى الى على او . . . ولـكننى واثق بصدق مودتها فهى لاتريد بى سوءا بل تبغى رضاى »

فقال عبد الله : « اذا كانت تحبك كما تقول فليس أسهل من اقناعهـا بالرجوع عن قتل الامام فيتاح لك البحث عن الساعى فى قتله وتردعه عن غيه فاذا لم يرتدع قتلته او نقلت خبره الى الامام ليرى رأيه فيه »

فارتاح سعيد الى هذا الرأى

اقبلا على الكوفة والشمس مائلة الي المغيب وكان سعيــد قد قضى ذلك النهار يستحث ناقته لعله يدرك المدينة قبل الغروب ليتمكن من الذهاب الى بيت قطام اذ لاصبر له على تأجيــل زيارتها وهو على مقربة منها ، فلما دنا الغروب وهو لم يدخل الكوفة بعد ، انقبضت نفسه ، وادرك عبد الله ذلك مما آنسه فيه من السكون . فأراد أن يروح عنه فقال له : « أبعيدان نحن عن منزلك »

قال : « اذا ما دخلنا المدينة دنونا منه لأنه فى اطرافها »

قال : « انى استعجل الوصول لأستريح من وعثاء السفر وانجو من ركوب الجمال فقد اتعبنى اليوم جريها »

قال سعيد : « انى اراني على ضد ذلك وتحدثنى نفسى أن أصلى العشاء فى المسجد قبل المبيت »

فادرك عبد الله انه انما يريد زيارة قطام ليطلعهــا على حديث جده ويرى مايبدومنها عندما تعلم بما عول عليه ، فرأى أن يثنيها عن زيارتها حتى يتمكن من تهيئة السبيل والحيلة فى مخاطبتها لئلا يفشلا ، لعلمه بما هوعليه سعيد من سلامة الطوية التى يخشى عليه منها . فقال له : « دعنا نصل العشاء معا فى المنزل ونصبح ان شاء الله فنصلى فى المسجد »

فلم يراجعه سعيد حياء وقبل . ولكنه أسر فى قلبه أن يذهب خلسة الى منزل العجوز لبابة ليتحسس الحال

ودخلا الكوفة وقد أمسى المساء فقصدا الى منزل سعيد فترجلا واغتسلا وصليا ثم تناولا العشاء وتظاهر سعيد بالنعاس فذهب كل الى فراشه ، وانتظر سعيد حتى ظن رفيقه قد نام فالتف بعباءته وانسل الى بيت لبابة وقطع طريقه يفكر كيف يبدأ بالكلام . فلما وصل رأى لبــابة خارجة منـــه وقد تخمرت ومشت تتوكأ على عكازها ، فبغتت لرؤيتها وحياها فردت التحيـة وهى لا تكاد تصدق أنها تراه . فلما تحققت أنه سعيد رجعت وهى تبالغ فى الترحاب به وتضحك ضحكتها المعهودة . فاستأنس بترحابها ، ثم تذكر ماجاء فيه من الامر الجديد فانكمش قلبه ولكنه تبعها حتى وقفا بباب الحجرة فأمرت عبدها أن يضىء المصباح وعادت الى مخاطبته فسألته عن ساعة وصوله . فقال : « انى وصلت الساعة ومن شدة تعبى من السفر الطويل لم أصبر على رؤيتك قبل المنام »

فقهقهت قهقهة دوى لها البيت وخيل اليه لفرط قلقه أن عبــد الله يسمعها فقال لها بصوت خافت : « وما الذى يضحكك يا خالة ؟ »

قالت : « لقد اضحكني شوقك الى رؤية هذا الوجه القبيح (واشارت الى وجهها) وانت انما تشتاق الى رؤية وجه اجمل منه . . . أليس كذلك ؟ »

فقاطعها وهو يخفض صوته وقال : « لا والله اني الآن فى شـوق اليك أكثر من شوقى الى قطام لانى وقعت فى ورطة لا ارى أحدا ينجينى منها سواك فاسعفينى برأيك ودهائك . وأرجو قبل كل شيء أن تحفظى قدومى اليك الآن سرا تكتمينه عن كل انسان ، لأن معي رفيقا صحبنى من مكة فلما وصلنا الى الكوفة ورأى ميلى الى الخروج اقعدنى حتى الصباح فاستحييت وبقيت فلما استغرق فى نومه جئت خفية . . »

ولم يتم كلامه حتى جاء العبد بالمصباح فدخلا الغرفة وسعيد يقول : « لقد عودتنى يا خالة ان تكونى عونا لى فى مصائبى فانت التى اقنعت قطام بمهارتك ودهائك بزواجي بها فألتمس منك الآن أن تقنعيها بما جئت به اليك »

فعجبت العجوز لاهتمامه الشديد ولو كان قلبها حيا لخفق واضطرب ولكنها تعودت الاهوال ولاقت الغرائب فلم يعد يخيفها امر . فقالت : « قل ما بدا لك انى مستودع أسرارك ولا آلو جهدا فى خدمتك »

فتنهد سعيد وسكت وهي تحدق فيه بعينيها الغائرتين . وبعد هنيهة قال لها : « لقد جئتك بأمر لا ادرى كيف أبدأ الحديث فيه »

قالت : « قل ولا تبالى ولا تجزع فانى عركت الدهر ولقيت الأهوال حتى لم اعد أستغرب أمرا . . . قل ما بدا لك »

قال سعيد : « انت تعلمين انى عاهدت قطام على قتل الامام على »

قالت : « نعم أعلم ذلك »

قال : « وهل تعلمين لماذا خرجت الى مكة »

قالت : « علمت انك شخصت اليها ولكننى لم أعلم السبب »

قال : شخصت اليها اجابة لطلب جدى رحمه الله »

قالت : « جدك ابو رحاب ؟ ما الذى اصابه ؟ »

قال : « انه مات بعد وصولى الى مكة بيوم واحد وكان قد بعث الى ليرانى قبل موته »

قالت : مات أبو رحاب ! . رحمة الله عليه . انه كان رفيقا بك شفوقا عليك وأنا اعلم انك ربيت فى حجره وقد كان أحن من الوالد عليك . ولا شك ان موته شق عليك كثيرا . وكم كنت تود ان يبقى حيا ليفرح بك ويشهد زواجك بعد أن يعلم بما عاهدت عليه لتنقذ بنى أمية من العار و . . . »

فقطع كلامها قائلا : « آه يا خالة لقد كنت اظن هذا الظن قبـل أن أراه .

ولكنني ما لبثت أن ندمت على ذهابي اليه لأنه حملني قبل موته حملا تريننى انوء به »

قالت : « وماذا عسى ان يكون ؟ »

قال : « ان ما ظننته سببا لارتياحه قد رأيته داعيا لغضبه »

قالت : « هل أخبرته بعزمك على قتل على ؟ »

قال : « نعم اخبرته ولكنه انكر على قتله وأوصاني وهو على فراش الموت ان لا أمد يدي الى هذه الجريمة لأن هاتفا جاءه وانباه ببراءة الامام على مما يتهمونه به »

وكان سعيد يتكلم ولبابة شاخصة اليه وقد اسفت لخيبة مسعاها ، ولكنها لدهائها ومكرها لم تبد حراكا ولا اظهرت استغرابا بل تشاغلت باصلاح خمارها تنتظر آخر الحديث

وأما سعيد فكان يكلمها وهو يتوقع بغتتها أو غضبها فلما رآها صامتة مصغية تجرأ على اتمام الحديث فقال : « ولما سمعت كلام جدي جادلته فرايت منه اصرارا على رايه وقص على شيئا كثيرا من الأدلة والشواهد المؤيدة لقوله »

قال سعيد ذلك وسكت وهو ينتظر ماتقوله العجوز، فرآها لاتزال صامتة ولم يبد على وجهها شيء من الاستغراب ، فعطف بحديثه على المؤامرة التى شاهدها فى الكعبة ظنا منها انها توازن ماتقدم من الحديث الغريب . فلما سمعت قصة المؤامرة على قتل الامام على وعمرو ومعاوية ، رأت فيها تعزية ولكنها اظهرت الاستخفاف بما تآمروا عليه وأرادت أن تتحقق ما عول هو عليه فقالت : « وهل علم ابو رحاب قبل موته بتلك المؤامرة ؟ »

قال : « نعم اني أطلعته عليها قبل ارسال نفسه الاخير ببعض الساعة فلم يزدني الا ثقلا بوصية قالها وهو فى آخر ساعات الدنيا . . آه من تلك الوصية »

قالت : « وما هي ؟ »

قال : « انه اوصاني بالا اكتفي بالكف عن قتل الامام على ، بل يجب ان أدفع عنه . فلم أر بدا من اجابة طلبه وانت تعلمين موقفي فى مثل هذه الحال . . . ولكني لم أعاهده الا بعد أن تفطر قلبي لدموعه التى كانت تنحدر على لحيته وقد شخصت عيناه وتلعثم لسانه وتلجلج صوته حتى خيل الى ان عظامه تتكلم »

□

فلما تحققت نكوله عن عهده خافت اذا اظهرت له الاستياء ان يبوح بأمرها

وامر قطام الى على وهما فى الـكوفة فينتقم على منهما ؛ فأرادت أن تخادعه فتأخذ منه ولا تعطيه فقالت : « ولماذا لم تدعن لجدك فان كلام مثل هـذا الشيخ الجليل يعتبر خارجا من أفواه الملائكة »

فلما سمع كلامها انشرح صدره فابتسم وقال بكل سذاجة : « كيف لم اذعن ؟ لقد أذعنت وعاهدته وهل أستطيع غير ذلك ؟ . ولـكنني عاهدته وقلبى فى شاغل بقطام وعهدها لعلمى ان ذلك العهـد يحرمني منها » . ثم عطف فقال : « ولكنى لما تذكرت حبـك لى وغيرتك على هان الامر وقلت ان مايعسر على مثلى يهون على خالتى لبـابة . . . بالله . . . الا ساعدتنى على اقناع قطـام بالرجوع عن عزمها على قتـل الامام على ، انه والله برىء مما اتهموه به . . بالله ساعدينى واشفقى على فقد وقعت فى حيرة بل هى مصيبة لاينجينى منها سواك » . قال ذلك وجثا أمامها وهم بيدها وقبلها وقد كادت العبرات تخنقه

فتظاهرت تلك العجوز المحتاله بالحنو وتبسمت وهى تجذب يدها من بين يديه لتمنعه من تقبيلهما وأجلسته وقالت : « طب نفسـا يابنى ، انى فاعلة ما تريد وارجو أن يساعدنى الله على اقناعها . . . »

فلما سمع سعيد قولها ابتسم والدمع ملء عينيه اعجابا بحنوها وفرحا بنيل بغيته التى لم يكن يتوقعها وفرح بمجيئه تلك الليلة ومقابلة لبابة قبل مقابلته قطام

أما لبابة فنظرت اليه وهى تحك ما وراء اذنها برأس سبابتها كأنها تفكر فيما تختلقه من الاسباب لاقناع قطام ، وهى فى الحقيقة تدبر حيـلة لخداع سعيد ثم قالت : « طب نفسا ولا تبالى فانى أضمن لك الفوز اذا أطعتنى . . » فابتدرها قائلا : « انى طوع مشيئتك فى كل ماتأمرين ، هذا مالى وكل ما أملكه بين يديك »

وكان سعيد يتكلم ولبابة مطرقة . ثم سكت هو وظلت هى مطرقة ، ثم استأنفت الحديث بغتة فقالت : « سبحان الله لقد مرت بى أيام وأنا مستغربة مايبدو لى من قطام على غير المعتاد فقد يكون الذى فاه به جدك فى مكة أثر فى قطام هنا ولا أدرى ما هو هذا التأثير »

فدهش سعيد مما سمعه وقال : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « اعنى انى آنست من قطام تغيرا غريبا بعد ذهابك ، فانها لم تعد تذكر الانتقام وقضت أياما عديدة كأنها فى حيرة أو كان أمرا طرأ عليها لا تتكلم الا قليلا فعسى أن يكون ماغيرك قدغيرها . وعلى كل حال كن فى راحة وسكينة وأنا أدبر الأمر ، فلا تذكر انك جئت الى ولا انك رأيتنى قبل رؤيتها »

قال : « بارك الله فيك . والله ان قضيت لى هذه المهمة لا أدرى كيف

اكافئك . ولكنى اتقدم اليك الا تذكرى زيارتى هذه لأحد ولا سيما رفيقى عبد الله »

قالت : « سمعا وطاعة فعليك اذن ان تأتى غدا لزيارتها فى منزلها وأنا هناك ، ولاتزد على السلام والكلام العادى . واحذر أن تذكر شيئا عما خضنا فيه الا اذا هى خاطبتك به . . وهل تنوى اصطحاب رفيقك غدا »

قال : « سيأتى معى ولا بأس من الخوض فى الامر بين يدبه لأنه بمنزلة أخى »

قالت : « فليكن ما تريد وفقنا الله لما فيه خيرك وراحتك »

فازداد سعيد اعجابا بغيرتها وحنوها فقال لها : « اسمحى لى أن أقبل يدك فانى لما فقدت جدى الذى كان بمنزلة أبى حسبت نفسى يتيما ولكننى تحققت الآن من حنوك انى ما زلت مرموقا بعين العناية . ها انى قد القيت الحمل على عاتقك فدبرى الامر كما يلوح لك » . قال ذلك وقبل يدها مرارا ونهض ونهضت لوداعه وهى تقول له : « نم هنيئا وموعدنا فى اللقاء غدا فى بيت قطام »

خرج سعيد من عندها وقلبه يطفح سرورا لنجاته من شر عظيم . ولم يدر ما بيتته له تلك العجوز من اساليب الخداع . فلما توارى عنها عادت الى غرفتها واعملت فكرتها الخبيثة فى حيلة تنطلى عليه بحيث يصدق عدول قطام عن عزمها . ولولا خوفها من أن يشى هو بها وبقطام الى على اذا أنكرت عليه وصية جده لجاهرت بمقاومته ، ولكنها رأت من الفطنة والدهاء انتجاريه فى رايه ، وتحمل قطام على مشاركتها فى ذلك ، ثم تحتالا فى بقاء المؤامرة مكتومة حتى ينفذ المتآمرون عهدهم فيقتل على . وما درت لبابة أن قطام اشد دهاء منها وأعظم حيلة وانها ستزيد على ذلك وسيلة أخرى للفتك بسعيد على اهون سبيل

ولم تعد لبابة تستطيع رقادا قبل اطلاع قطام على الامر ليهيئا الحيلة قبل مجىء سعيد فنهضت لساعتها وسارت الى بيت قطام

لقاء قطام

أما سعيد فخرج والفرح ملء فؤاده حتى أتى منزله فرأى رفيقه نائما لفرط تعبه فسر لذلك سرورا عظيما ، ومضى الى فراشه ولكنه لم يستطع رقادا لشدة تأثره ، فقضى ساعات يتقلب على الفراش وقد طال ليله وهو يفكر فى ساعة اللقاء غدا ولا يصدق أن يلقى قطام على مثل رأيه . فلما تصور عدولها عن قتل على كاد يطير من الفرح بما سيناله من الاقتران بها ثم يعترضه كلام جده وما كلفه به من السعى فى الدفاع عن على وردع الساعى فى قتله فيختلج قلبه فى صدره لهول ذلك الامر . على أن هذا الامر لم يكن شيئا بالنظر الى ما يتوقعه من السعادة بالحصول على قطام

ولم تغمض عيناه حتى الصباح ، ولم يكد ينام حتى أفاق مذعورا وقد رأى شعاع الشمس يسطع على جدار غرفته فأسف لابطائه فى الفراش والوقت ثمين ، فنهض لساعته وخرج يبحث عن عبد الله فاذا هو قد لبس ثيابه ووقف يصلى فصلى معه وهو لا يفقه ما يقول

فلما فرغ من الصلاة قال له عبد الله : « لقد أبطأت فى رقادك يا أخا أمية »

قال : « انما أبطأت لهول ما لقيناه من التعب فى الطريق »

فصدقه عبد الله وجلسا لتناول الطعام وسعيد غارق فى تصوراته وقد أدرك عبد الله ذلك فيه ولكنه حسبه من قبيل الشوق الى قطام فقال له : « ألا تنوى الذهاب الى قطام ؟ »

قال : « بلى أرى أن نسير اليها لعل الله يأخذ بيدنا ونرى منها انصياعا للحق فتعدل عن عهدها »

فأراد عبد الله أن يختبر ثباته فقال : « هب أنها لم تقبل فماذا تفعل . هل تبقى على عزمك أم ترجع عما أوصاك به جدك ؟ »

قال سعيد : « انا نبذل جهدنا فى اقناعها فاذا لم تقتنع ظللنا على عزمنا فان وصية جدى مقدسة » .

فسر عبد الله لثباته على عزمه وهو لا يعلم انه لم يفعل ذلك الا بعد ما أملته به لبابة من اقناع قطام ، ولولا ذلك لتردد فى الجواب كثيرا وربما آثر البقاء على عهد قطام على احترام وصية جده ، لأن غرامه بتلك الغانية الفتانة غلب على كل عواطفه .

فلما رای عبد الله عزمه استعجله فی الذهاب الی قطام مخافة ان يطرأ عليه ما يضعف عزيمته . وكان عبد الله أسر فی نفسه اذا آنس فيه ترددا أن يثنيه عن الذهاب اليها . فلما فرغا من الطعام نهضا ومشيا يقصدان بيت قطام

ولم يكن بال سعيد خاليا من القلق ولكنه اطمأن الى ما منته به لبابة من الوعود

ووصلا الى المنزل ودخلا الحديقة فاختلج قلب سعيد اذ عادت اليه ذكرى لقياه قطام هناك وما تبادلاه من آيات الغرام . وفيما هما سائران بين النخيل رأيا لبابة بالباب تبتسم . فلما رآها سعيد استبشر وتشدد فمشى ورفيقه وراءه حتى دنوا منها فحياها سعيد كأنه لم يكن قد رآها بعد رجوعه. فردت تحيته وسلمت على رفيقه ، فدخلا حتى أقبلا على قطام فاذا هی واقفة الى نافذة تطل على البحيرة وقد لبست جلبابا أسود فوقه خمار أسود فلما رأتهما ارخت خمارها واقبلت نحوهما ، فحياها سعيد وذكر اسم رفيقه لها وقال :

« لقد اتيت ومعی صديقی وأخی عبد الله فانه انيسی ومساعدی »

فرحبت بهما ودعتهما للجلوس فجلسا وكلهم سكوت ، وبدأت العجوز بالكلام فقالت : « لقد اوحشتنا ياسعيد بطول غيابك وقد أخبرنا ريحان انك أتيتنا يوم سفرك فلم تر قطام فشغلنا عليك لسرعة ذهابك فعسى أن يكون الباعث خيرا »

فتنهد سعيد وقال : « كلا انه لم يكن خيرا ياخالة لانی ذهبت الی جدی أبی رحاب فی مكة فقد ارسل أخی هذا عبد الله يدعونی اليه »

قالت : « وماذا عسى أن يكون سبب استدعائك ؟ »

قال : « دعانی لأراه بعد أن هرم وغلبه الضعف والمرض على أمره ، فلما تحقق دنو أجله أراد أن يرانی قبل موته فسرت ولم أمكث الا ليلة حتى قضى نحبه »

فتظاهرت قطام باستغراب الخبر كأنها لم تسمعه من قبل وقالت : « هل مات جدك ؟ . . رحمة الله عليه وعزاك الله وابقاك » . وتنهدت كأنها تذكرت من فقدتهم وقالت : « ان موت الاهل شديد الوطأة »

وكان عبد الله يراقب حركات قطام ، وكان قد سمع بجمالها فلم يلم سعيدا على افتتانه بها وخاف أن تصر على عهدها فتخرج من نصيب سعيد ، فأحب أن يطرق الموضوع ليرى مايبدو منها ولكنه رأى انه لم يسبق له أن عرفها فقد تتجنب الخوض فی الامر ، فنهض وخرج وخرجت لبابة فی اثره اتماما لحيلتها

□

فلما خلت قطام بسعيد سألته : « من هذا الشاب . وهل هو ممن يوثق »

قال بنغمة المحب المفتون : « انه رفيق صباى وموضع اسرارى ولا أخشى بأسا من اطلاعه على كل شيء »

قالت : « وهل أطلعته على عهدنا ؟ »

قال : « نعم ياحبيبتى وهل ترين ما يمنع ذلك ؟ »

قالت : « كلا ، لا أرى مانعا ولكننى كنت أوثر أن لاتطلعه لخاطر خطر لى بعد ذهابك الى مكة »

فاستبشر سعيد بهذا الاستهلال فقال : « وما الذى خطر لك ؟ »

قالت : « ساقصه عليك وآمل أن تطاوعنى عليه ولا تطالبنى بما سبق بيننا من العهود »

قال : « قولى ما تشائين . فمشيئتك هى العهد الذى يقيدنى . فانى رهين اشارتك »

قالت : « أتذكر لما جئت الينا يوم سفرك ولم تجدنى فى البيت ؟ »

قال : « كيف لا أذكر ذلك وقد كان له عندى أثر شديد »

قالت : « أتدرى أين ذهبت يومئذ ؟ »

قال : « كلا »

قالت : « خرجت فى ذلك اليوم الى اهلى ولم يكن غرضى الزيارة وحسب ولكننى شعرت بقلق واضطراب ولم أذق رقادا تلك الليلة التى عاهدتك فيها على قتل أمير المؤمنين . فلما اصبحت قلت فى نفسى لعل سبب هذا القلق انى ارتكبت ذنبا بما سعيت فيه ظلما لقتل الامام . فلاح لى أن أمضى الى أهلى وأبحث وأدقق عن حقيقة ماوقع ، فعلمت بعد البحث ان الذنب فى قتل ابى واخى لم يكن ذنبه هو ، وتحققت انه برىء ، وانه نصح لهما مرارا قبل الوقعة بان يرجعا فأبيا ، ولما احتدم النزال وعلم انهما فى خطر أوصى بالا يصيبهما أحد بسوء . ولكن بعض الاغرار قتلهما وهو لايدرى ، فلما علم غضب على القاتل وانتقم منه . فشعرت عندئذ انى قد أخطأت بما نويته واعتزمت ان احولك عما تعاهدنا عليه . فقضيت مدة غيابك وأنا فى حيرة لا أدرى كيف ابدأ باقناعك . وحفظت ذلك سرا كتمته حتى عن خالتى لبابة »

ولم يتمالك سعيد عند سماعه ذلك عن النهوض فجأة ونادى عبد الله ولبابة فجاءا ، فالتفت سعيد الى عبد الله وقال له : « تعال اسمع يا أخى ما أعده الله لنا من اسباب السعادة . فانا لم نكلف انفسنا عناء اقناع قطام . بل هذه هى تريدنا على أن ننسى العهد الذى رويت لك خبره وتقلع عما عزمنا عليه »

فتجاهلت قطام قوله وقالت : « ماذا تقول يا سعيد وما الذى جئتنا به عساه أن يكون خيرا »

فعرضت لبابة للكلام وقالت : « يلوح لى انك جئتها بمثل ماجاءتك هى به »

قال : « نعم يا خالة وأحمد الله على ذلك فانى جئت من مكة مقتنعا ببراءة الامام على وأخذت على نفسى عهدا أمام جدى ألا أمس عليا بسوء ، وكنت أخشى ألا توافقنى قطام عليه فأصبح أشقى الناس . فالحمد لله اذ قضى بما فيه خيرنا جميعا » . وجلس يقص عليهم حديث جده وما أوصاه به فظهرت امارات البشر والسرور على الجميع . ثم استطرد الى حديث المؤامرة فلما ذكر ان أحد المتآمرين آلى على نفسه ليقتلن الامام عليا تظاهرت قطام بالغضب وقالت : « ألم تعرف من هو الرجل ؟ »

قال : « لم أعرفه ولكننى علمت من سياق الحديث انه من فسطاط مصر »

قالت : « أما وقد علمت بعزم هذا الرجل فقد أصبح السكوت عنه مشاركة له فى القتل ، فلا بد من ردعه أو قتله »

فابتسم سعيد لذلك الاتفاق الغريب وقال : « وقد فاتنى أن أذكر أن جدى أوصانى بأن أسعى فى دفع السوء عن على »

فقالت : « وهذا ما أراه أنا أيضا لأن السكوت عنه جريمة ، ولكنى أرى أن يبقى امر هذه المؤامرة سرا لانطلع عليه احدا لئلا يسبقنا الى نيل الفخر برده ، وحتى لا يتسرب الخبر الى المتآمر فيستعجل أمره ويقتل عليا ونحن لم نعرفه بعد ولم نبدأ سعينا لاحباط عمله . الا ترى هذا الرأى ياعبد الله ؟ »

فدهش عبد الله من نوارد الخواط او علم بزيارة سعيد للبابة لانكشف له سر الحيله ولكنه أخذ الامر على ظاهره فقال : « هذا هو الرأى الصواب ، وها انذا سارع مع أخى سعيد فى السعى لردع ذلك الرجل »

قالت : « وماذا تنويان عمله ؟ »

قال سعيد : « ارى أن نذهب الى الفسطاط ونبحث عن الرجل فاذا عرفناه هان علينا ردعه »

فقالت قطام : « وما الفائدة من ذهابكما وأنتما لاتعرفان الرجل ولا تعلمان شيئا من أمره وكيف يتأتى لكما معرفة اسمه . هل ذهبتما الى الفسطاط قبل الآن وهل تعرفان أحدا هناك ؟ »

قال عبد الله : « انى أعرف الفسطاط ولكننى لم اقم بها طويلا ولا أعرف أحدا من أهلها ولكنا نبذل جهدنا »

الاجتماعات السرية

فتقدمت لبابة والاهتمام باد عليها وكانه قد فتح عليها برأى سديد فقالت : « اجلسوا وسأهديكم الى طريق يهون عليكم كل صعب »

فجلسوا جميعا فقالت : « لا تسخروا برأى عجوز مثلى فانى أعرف من الأسرار ما لا تعرفون . اعلموا ان فى مصر من مريدى الامام على أحزابا جمة اذعنوا لعمرو بن العاص مكرهين ، وهم صابرون على ما أصابهم فى مقتل ابن ابى بكر ، وهم ينوون الانتقاض اذا أتيحت الفرصة لذلك »

قال عبد الله : « اهذا ما تفاخريننا بمعرفته ؟ انه لايجهله أحدمن المسلمين ، وانى لأعلم ما هو أكثر منه »

قالت : « وما الذى تعلمه ؟ »

فابتسم عبد الله مستخفا وقال : « هناك أمور كثيرة علمتها من جدنا ابى رحاب رحمه الله ، وقد أوصانى بألا أطلع عليها أحداً »

فتوقعت لبابة ان تطلع على ماور ‍ ‍ ئ على سر ، وهى لم تقل ما قالته الا استدراجا له ، فهزت كتفها والتفتت الى قطام التفاتة ذات معنى ، ففهمت قطام مرادها

فابتدرت عبد الله قائلة فى دلال : « اذا كنت قد وقعت على سر فاحفظه ولا تبح به لأحد من الخوارج مثلنا »

فخجل عبد الله من توبيخها اللطيف ، ونظر الى سعيد فرآه ينظر اليه كانه يتوقع منه ان يفشى السر لئلا تسىء قطام الظن بهما ، فقال معتذرا : « حاش لى يامولاتى . انى لا اعنى كتمان السر عنك بعد ان رأيناك مثلنا حاسة للدفاع عن أمير المؤمنين بل لقد كنت انت الداعية الى الدفاع عنه . ولكننى قلت ما قلته عفوا ، ولكى تثقى من حسن نيتى سابسط السر لك ولخالتى لبابة » . قال ذلك والتفت يمنة ويسرة كأنه يحاذر أن يسمعه رقيب ، أو عدو ، فلما اصغى الجميع قال : « علمت من جدى رحمه الله أن فى الفسطاط جمهورا كبيرا لا يزالون على دعوة الامام على ، وهم متحدون قلبا وقالبا فى القيام بنصرته ، ولهم اجتماعات سرية يعقدونها للمفاوضة فى الوسائل المؤدية الى ذلك » . ولما بلغ الى هذا الحد تلعثم لسانه كأن شيئا أوقفه عن

اتمام الحديث ، وارتبك وظهرت عليه الـعنة ، كأنما ندم على ما فرط منه وعول على الامساك عن تتمة الحديث . فأدركت لبابة المحتالة سبب توقفه فابتدرته قائلة وهى تضحك : « أنعم به من سر عميق لم يطلع عليه أحد ، انى لا أراك زدت على قولى حرفا واحـدا . الم اقل ان دعاة على باقون على دعوته ، فمـاذا زدت أنت على ذلك الا انهم يجتمعون سرا ؟ أم تراك ندمت على ثقتك بنا فبدأت بالحديث ثم قطعته ؟. وعلى كل حال لست ألومك على ذلك فانك لا تعرفنا قبل هذه الساعة »

فقطعت قطام حديثها قائلة : « أتقولين انك لا تلومينه بينما أراك عاتبة عليه ؟. دعيه لئلا يظننا راغبين فى استطلاع سره لغرض لنا ونحن انما نريد بعض ما يريده عبد الله فلا حاجة لنا فى سره ، ولكننا نوصيه بأن يقوم بمؤازرة سعيد فيما أوصاه به جده ، وهذا يكفينا » . ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة : « لقد سرنى من رفيقك محافظته على السر حتى عن هذه الحقيرة التى بعد أن كانت اول الناقمين على على اصبحت من اكبر المدافعين عنه ، وهب أنه اراد افشاء ذلك السر فما نحن سامعون ما يقول ، اذ ربما وسوس لنا الشيطان فبحنا به للأعداء »

فوقع كلام قطام فى قلب سعيد موقع السهام ، وغلب عليه الحياء والتفت الى عبد الله وقال : « لا طاقة لى باحتمال هـذا التأنيب يا عبـد الله ، قل ما تعلمه سواء أسمعته قطام ام لم تسمعه . ولن أبرح هذا المكان قبل أن أسمع بقية الحديث »

فندم عبد الله على ما فرط منه وأصبح لا يدرى كيف يتخلص من حيائه وارتباكه . ولما رأى الحاح سعيد هان عليه التصريح بما يعرفه ولم ير فى ذلك لوما عليه فقال : « أراكم تتهموننى بذنب أنا براء منه ، فانى لم أتوقف عن اتمام الحديث ضنا به على قطام بعد أن تحققت اخلاصـها فى الدفاع عن على ، ولكننى صبرت ريثما استجمع كلام جدى بحرفه ، فاذا اذنت قطام تلوته عليكم حالا »

قال سعيد : « قل ما علمته ، واذا سدت قطام اذنيها عن سماعه فانا أسمعه »

قال عبد الله : « أخبرنى ابو رحاب رحمه الله أن دعاة الامام على يجتمعون سرا فى معبـد قديم خارج الفسـطاط فى مكان يعرف بعين شـمس ، وهم يتفاوضون فيه سرا فى يوم الجمعة من كل اسبوع »

فسرت قطام ولبابة بالاطلاع على ذلك السر ، ولكن لبابة لدهائها ومكرها تظاهرت بالاستخفاف والانكار وقالت : « اهذا هو السر العظيم ؟ انه باطل لا يقبله العقل ! »

فاغتاظ عبد الله من استخفافها وقال : «وما الدليل على بطلانه يا خالة ؟ »

قالت : « تقول ان دعاة على يجتمعون هناك كل يوم جمعة ونحن نعلم انهم يعدون بالألوف فكيف يسعهم ذلك المعبد ؟ . وهب أنه وسعهم فكيف يجتمع الألوف منهم كل أسبوع ولا يدرى بهم عمرو بن العاص وعيونه مبثوثة فى اطراف الفسطاط . فهل ذلك معقول ؟ »

فسر عبد الله لاستخفافها بكلامه وحسب افشاءه السر غير ذى اثر ، وود الوقوف عند هذا الحد ، فلم يرض سعيد بذلك بل اخذ على نفسه تفسير مقاله وهو يحسب انه اتى جديدا فقال : « ان عبد الله لا يعنى باجتماع دعاة على انهم يجتمعون جميعا كبارا وصغارا ولكنه يريد ان رؤساء العشائر وكبارهم هم الذين يجتمعون فقط » . فضحكت لبابة وهمت بالرد عليه . فقطعت قطام كلامها قائلة : « يظهر يا خالة انك أنما تريدين المزاح ، فقد طلبت من عبد الله افشاء سره ثم جعلت تجادلينه ، ونحن لا يهمنا من الامر إلا الوصول الى الغاية المرجوة ، وهذا يكفى »

□

ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة : « دع لبابة وتخريفها واسع فيما انت ساع فيه . سر الى دعاة على حيث هم مجتمعون وهم يعينونك على البحث والتنقيب . ولا اوصيك الاوصية واحدة ذكرتها فى بدء الحديث وهى ان تبقى هذا الأمر مكتوما فيما بيننا عن كل انسان ، حتى نعرف الخائن الذى يريد قتل الامام على ، فاذا عرفناه فاما أن نرجعه عن غيه أو نرى رأينا فيه على ما تقتضيه الحال . أما اذا أشعنا خبره الآن فانه يبالغ فى التستر ، وربما اسرع فى انفاذ سهمه فيقتل أمير المؤمنين غيلة ويذهب سعينا عبثا . أما الآن فنحن على يقين من انه لا يقدم على ذلك الا فى ١٧ رمضان ، ونحن لانزال بعيدين عنه . وزد على ذلك أنك اذا حفظت هذا الأمر مكتوما وتفردت فى البحث عنه كان الجزاء عظيما . ولا ارى فائدة من اطالة البحث . ولكى تتحقق من شدة رغبتى فى الاسراع ، أبدل عهدى ابدالا يسرك فبدلا من أن يكون اقتراننا موقوفا على قتل الامام على فقد جعلته وقفا على انقاذه من القتل ، فاذا كنت تحبنى ، وهذا ما لا اشك فيه ، فبادر الى العمل ، وهذان عبد الله ولبابة شاهدان على ما أقول »

وكان سعيد بعد ان تغير وجه المسالة يرجو ان يقترن بقطام قبل ذهابه فى هذه المهمة . فلما سمع كلامها خجل من مراجعتها لئلا يقال انها أشد رغبة منه فى الدفاع عن على ، فانطلت الحيلة عليه ولم يسعه الا اجابتها فقال : « وهذا ما اطلبه انا أيضا لكى يتم عقد الزواج على يد الامام نفسه بحول الله »

وكان عبد الله يسمع هذا الحديث وقد خامره شك فى كلام قطام ، وندم

لتسرعه فى افشاء السر فظل صامتا لئلا يقع فيما يزيد ندمه ، وشعر لساعته بما أوتيته تلك الفتاة من الدهاء . ولم ير خيرا من اظهار ثقته بهـا فأخـذ يطرى غيرتها ويثنى على صدق مودتها فقال لها : « انى أعد أخى سعيداً من أسعد خلق الله لتوفيقه الى مثلك ، وانى أدعو الله تعالى أن ينجح مقاصدنا ؛

وسكت هنيهة ثم قال : « وقد أصبت فى حرصك على كتمان الأمر عن كل انسان ، بارك الله فيك » . والتفت الى لبابة فقال : « وأنت يا خالة نرجو أن تزودينا دائما بدعواتك الصالحة وآرائك الصائبة »

فقالت لبابة : « أما الرأى ففى الاسراع فى الامر ، فعليكما بالسفر حالا الى مصر ، وأطلب الى الله تعـالى أن يوفقكما ويسـهل طريقكما ، واذا أتيتما الفسطاط فاطلبا عين شمس فى يوم الجمعة ، ولن تعدما من أنصار أمير المؤمنين من يرشدكما الى البغى »

وقضوا برهة فى أحاديث أخرى ، ثم انصرف عبد الله وسعيد ، وفى نفس أولهما شكوك لم يجسر على مكاشفة سعيد بها ، لما آنسه من اخلاصه لقطام وارتياحه الى وعودها ، ولكنه عول على انتهاز فرصة يستطيع بها التسلط على أفكاره

▭

ولما خلت لبابة الى قطام بعد خروج سعيد وعبد الله قالت لها : « لقـد تمت لنا كل المعدات وآن يوم الانتقام على يد غير هذا الجبان. ان عليا سيقتل لا محالة ولقد أحسنت بتطمينه ومسايرته . وأحسن ما رأيته من دهائك توصيته بالكتمان لأنه لو أطلع عليا على خبر المؤامرة لفشل أصحابها ونجا على من الموت »

فأجابت قطام قائلة : « ولكن ذلك وحده لا يضمن لنا الفوز ، وأنا لم ألتمس منه الكتمان لهذا الغرض فقط ، ولكنى أردت أن يبقى خبر المؤامرة مكتوما عن كل انسان لغرض آخر »

قالت : « وما ذلك فانى لم أفهم مرادك ؟ »

قالت : « أتكونين لبابة العجوز الماكرة ويخفى عليك مغزى كلامى ؟ ما الفائدة اذن من البحث عن مجتمع أنصار على ؟ »

قالت : انى ما زلت أجهل ما تريدينه ، فما مرادك ؟ »

قالت : « مرادى أن أبعث الى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ويوم اجتماعها ، ليقبض على رجالها ، وسيكون سعيد وعبد الله بينهم ، فاما أن

يقتلهما أو يسجنهما ، فاذا قتلهما ظل أمر المؤامرة مكتوما عن كل انسان . واذا سجنهما ظلا في السجن الى ما بعد ١٧ رمضان على الأقل فيكون قد نفذ السهم وانتقمت لأبى واخى ، ولا يهمنى بعد ذلك أمر »

فلما سمعت لبابة كلام قطام همت بها وقبلتها وهى تقول : « بورك فيك يا بنية والله انك ابعد منى نظرا واشد دهاء ، واذا أحياك الله الى سن فان ابليس نفسه لن يقوى على مكرك ! » . قالت ذلك وضحكت . وظلت قطام عابسة لم تعبأ بضحكها ولكنها نادت ريحان خادمها فحضر وكان جالسا في مكان بحيث يسمع ويرى ولا يراه أحد ، فلما وقف بين يديها قالت له : « الم يقتل سيداكظلما ؟ »

قال : « كيف لا ، وانى مطالب بدمهما ؟ »

قالت : « أتدرى لماذا دعوتك ؟ »

قال : « احسبك دعوتنى لتبعثى بى الى عمرو بن العاص فى الفسطاط لاخبره بأمر مجامع العلويين »

قالت : « نعم انى دعوتك لمثل هذا ، بورك فى سوادك . هذا وقت الحاجه اليك . ولكن لا تذكر اسمى لعمرو ، أنا واثقة بفطنتك فلا تخيب املى اذهب الى مصر أبلغ الرسالة ، وجئنى بمقتل هذين او سجنهما وانت حر لوجه الله »

فقطب ريحان حاجبيه وأجاب كأنه يعاتبها : « ألا تعلمين يا مولاتى انك تهينينى بهذا الكلام من حيث تريدين سرورى . اتظنيننى أوثر الحرية على الاستعباد لك . لقد قلت قولا فاسمحى لى أن اقول مثله . اننى ذاهب لانفاذ مرامك فاذا انا فزت فيه رجوت أن تعدينى بألا تذكرى حريتى أبدا »

فضحكت قطام واظهرت الاعجاب بشهامة ريحان وقالت : «سر يا أسود . انك والله خير من الف أبيض »

أمام الفسطاط

الفسطاط مدينة عمرو بن العاص فى مصر بناها سنة ٢٠ للهجرة بعد فتحه الاسكندرية . وسبب تسميتها بالفسطاط (الخيمة) انه لما فتح حصن بابل حيث دير مار جرجس الآن او دير النصارى بقرب مصر القديمة واستقر الصلح بينه وبين المقوقس ، نهض لفتح الاسكندرية وكانت خيامه منصوبة خارج الدير بين النيل وجبل المقطم ، فأمر بتقويضها للرحيل فجاءه مبىء بأن فى فسطاطه يماما معششا وتحته صغاره لاتستطيع الطيران ، فقال عمرو . « لقد احتمت بجوارنا فأقروا الفسطاط حتى تطير فراخها » . فتركوا الفسطاط منصوبا حتى عادوا بعد فتح الاسكندرية فابتنوا الدور حوله . ولما أكملوا عمارة المدينة اطلق عليها اسم الفسطاط ، وهى أول مدينة بناها المسلمون فى مصر واتخذوها عاصمة ملكهم ، حتى بنيت القاهرة فى القرن الرابع للهجرة فنقلت الحكومة اليها

وكانت الفسطاط فى العام الاربعين للهجرة ، وهو العام الذى جاءها فيه سعيد ورفيقه عبد الله ، قد عمرت واقامت بها القبائل والافخاذ فى خطط وحارات بنيت لهم . وكانت مستطيلة الشكل على ضفة النيل الشرقية طولها ميلان فيما يقرب من مصر العتيقة الآن . وأما مكان مصر العتيقة فقد كان يومئذ مجرى النيل ، وكان اذا جرى رست سفنه بباب دير النصارى حيث كنيسة المعلقة اليوم ، فكل ما بين الدير والنيل من اليبس وما اقيم عليه من البناء انما حدث بعد ذلك

وكان جامع عمرو الباقية آثاره الى اليوم مركز تلك المدينة ، وحوله أنشئت الخطط والازقة . وكان أقربها الى الجامع المذكور دار عمرو ، أو هما داران : الدار الكبرى والدار الصغرى . وكان المسلمون اولا ينزلون فى الخيام فلما بنى عمرو داريه اهتم الناس ببناء المنازل . ولم يكن قبل الفسطاط هناك الا بعض الاديار للقبط متفرقة بين النيل والمقطم . وبنوا الخطط أو الطرق على أسماء القبائل التى تألفت منها حملة ابن العاص فى ذلك الحين ومن نزح بعدهم ، واوجههم جميعا أهل الراية من قريش والانصار وخزيمة وغيرهم ، فبنوا لهم خطة سموها خطة أهل الراية ، ثم خطة مهرة ، وخطط لخم واللفيف والصدف من كندة وخولان ، فضلا عن خطط غير العرب مثل خطة الفارسيين الذين حضروا الفتح وأصلهم من بقايا جند (باذان) عامل كسرى على اليمن قبل

الاسلام ، اسلموا فى الشام . وكانت هناك خطط اخرى لاتحصى فضلا عن الطرق والازقة والحارات

فنرى مما تقدم انه لم يكن يقيم بالفسطاط فى أول أمرها غير المسلمين واما المسيحيون واليهود ممن كانوا هناك قبل الفتح فمن آثر البقاء برعاية المسلمين اقام فى الاديار خارج الفسطاط ، واكبرها دير النصارى (دير مار جرجس) وهو الحصن الذى حوصر فيه المقوقس ورجاله لما جاءهم المسلمون ، وكان يسمى حصن بابل أو قصر الشمع . وربما أقام بعض القبط أو اليهود فى الفسطاط لتجارة أو صناعة أو كتابة ، لأن عمرا عهد الى القبط اول الامر فى اعمال حكومته وابقى الدواوين تكتب بالقبطية ، وبقيت كذلك الى امارة عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأبدلت بها العربيه

وكانت مدينة عين شمس (المطرية) شمالى الفسطاط خربة لم يبق من ابنيتها الشامخة ومعالمها الرفيعة الا بعض الجدران الغليظة او الأعمدة الضخمة والمسلات من بقايا الهياكل الفرعونية وهى مهجورة لايقيم بها احد فاذا احتاج الناس الى حجارة او اعمدة يبنون بها دارا كبيرة او جامعا جاءوها من انقاضها

□

وقد تركنا سعيدا وعبد الله وهما يتأهبان للرحيل فى ذلك اليوم ، فأصبحا على راحلتيهما وخرجا من الكوفة يلتمسان الفسطاط ، وهما لا يعلمان ما أعدته لهما قطام من المكائد . وسارا يواصلان الليل بالنهار حتى أقبلا فى فجر يوم جمعة على الفسطاط ، فأطلا عليها من سفح المقطم فاذا هى ممتدة على ضفة النيل على مسافة طويلة وراءها يجرى النيل وفيه السفن راسية تحمل الغلال والأحمال ، بعضها قادم من الصعيد والبعض الآخر صاعد من الشمال . وفى وسط المدينة جامع عمرو وحوله الابنية والدور . فوقفا هنيهة يدبران الخطة التى يجب أن يسيرا عليها للقيام بمهمتهما

فقال عبد الله : « ها نحن أولاء أمام الفسطاط وقد طلع فجر الجمعة الذى يجتمع فيه دعاة أمير المؤمنين فى عين شمس على ما نعلم . فهل نظل هنا برهة ثم نسير توا الى عين شمس ؟ »

فقال سعيد : « لا داعى الى بقائنا هنا ، وقد يكون فى بقائنا مظنة سوء ونحن على ما يعلم الناس من دعاة معاوية . وزد على ذلك اننا لا ندرى متى يعقد ذلك الاجتماع : أفى الصباح ام فى المساء ؟ أم فى وقت بينهما » .

قال عبد الله : « لست على يقين من ساعة الاجتماع ، ولكننى اظنهم يجتمعون بعد صلاة العصر الى المساء على انى لا أرى بأسا من النزول الى

الفسطاط حيث نصلى الصبح ونضع دوابنا فى مأوى تستريح فيه . ثم أخرج أنا للبحث عن ساعة الاجتماع ومكانه وأعود اليك فنذهب معا »

قال سعيد : « هذا هو الصواب »

ونزلا بناقتيهما حتى دخلا المدينة وهى ساعتئذ آهلة بالناس وقد أذن المؤذنون يدعون الناس الى صلاة الصبح فأتيا المسجد وأمامه ساحة كبرى تقف فيها الدواب تشد الى أوتاد أو نخيل . فربطا الراحلتين ودخلا المسجد للصلاة وكانت الشمس قد أضحت وتقاطر المسلمون افواجا فدخلا فى جملة الداخلين

□

لم يكد يستقر بهما الجلوس حتى رايا الناس فى حركة وجلبة وقد فتح باب فى بعض جوانب المسجد دخل منه رجال فى أيديهم السياط يزجرون الناس. فقال سعيد : « من هؤلاء ؟ » . قال عبد الله : « هم الشرطة يفسحون الطريق للأمير » . ولم يكد عبد الله يتم كلامه حتى دخل رجل ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج أبلج عليه ثياب موشاة كأنها العقيان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة ، فعرفا انه عمرو بن العاص . وصعد المنبر والناس ينظرون فحمد الله وصلى على النبى (صلعم) ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ، وجعل يحضهم على الزكاة وصلة الأرحام ، ويأمر بالتوفير وينهى عن الفضول ، وكثرة العيال وافاض المقال فى ذلك الى أن قال : « يامعشر الناس ، اياكم وخلالا أربعا فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة . اياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحور من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه غافلا . يا معشر الناس انه تدلت الجوزاء ، وذلت الشعرى ، وأقلعت السماء وارتفع الوباء ، وقل الندى وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى لرعيته حسن النظر ، فحى لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، واياكم والمومسات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثنى عمر امير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها

خيرا فان لهم فيكم صهرا وذمة) . فكفوا ايديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا ابصاركم . ولا أعلمن أن رجلا أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر امير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كيفا فذلك الجند خير أجناد الارض) . فقال له أبو بكر رضي الله عنه : (ولم يا رسول الله ؟) قال : (لأنهم وازواجهم في رباط الى يوم القيامة) . فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، وتمتعوا في ريفكم ماطاب لكم ، فاذا يبس العود ، وسخن الماء ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته . أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم »

وكان عمرو يخطب والناس يسمعون وقد خشعوا لما تكلمه من الأوامر والنواهي والوصايا . فقال سعيد لعبد الله همسا : « والله انه لنعم الأمير ، وشلت يد تقتله . اني والله منذره بذلك متى دنا الأجل المضروب » . فلم يجبه سعيد مخافة أن يلحظ أحد شيئا مما هما فيه

وخرج الناس بعد الصلاة ، وخرج عبد الله وسعيد ، واجتمعوا في ساحة المسجد خارجا ، وتعارفوا فعرف عبد الله رجلا من غفار كان له معه صداقة فدعاه وسعيدا الى منزله ليقيما عنده فاعتذرا فألح عليهما فسارا معه لئلا يوجب ابتعادهما شبهة ، فأنزلهما في منزل له في خطة اسمها خطة خارجة بن حذافة فأمر الغفاري عبدا له بتسلم الراحلتين والسير بهما الى المرابط ، ودخل بالضيفين الى غرفة لم يريا فيها نافذة الا كوة في أعلاها فعجبا ، وهم عبد الله بالاستفهام عن ذلك وأوقفه التادب ، فلحظ الغفاري استغرابه فقال له : « لا تعجب لحال هذه الغرفة فان كذلك سائر أبنية الفسطاط »

فقال عبد الله : « اني والله يا اخا غفار لفي عجب عجاب مما أرى فما الذي دعا الى هذه الأقفال ؟ » . فقال الغفاري : « اعلما أن خارجة بن حذافة صاحب شرطة الأمير عمرو بن العاص هو أول من ابتنى غرفة في الفسطاط . فلما علم بذلك امير المؤمنين عمر بن الخطاب يومئذ كتب الى عمرو بن العاص يقول : (ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريرا واقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كواها فاهدمها) . ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فأقرها فلم يجسر أحد أن يبني غرفة بعد ذلك الا على هذا الوصف وهو أضمن للحجاب »

ثم جاءهما الغفاري بالزاد فأكلا ، وما لبثا حتى خرجا يطلبان الخلوة للنظر فيما جاءا من أجله ، ومشيا في المدينة يتظاهران بالتفرج على مشاهدها فقال سعيد : « اننا في وقت الظهر وما العمل ؟ »

فقال عبد الله : « دعني أسر وحدي الى عين شمس فانها على بضعة اميال من هنا حيث ترى الخرائب وامامها هاتان المسلتان ، وسأبحث لأهتدي الى مكان الاجتماع فاذا عثرت عليه جئتك على عجل . فأين الملتقى ؟ »

قال : « ابقى أنا في المسجد حتى تعود الى واحذر آن تطيل غيابك »

فسكت عبد الله ولبث برهة يفكر ثم قال : « اذا أبطات في الرجوع اليك فاذهب الى عين شمس وانتظرني بقرب هاتين المسلتين القائمتين فأوافيك اليهما أو أبعث من يدعوك الينا »

فافترقا وقصد عبد الله الى عين شمس وقد جعل وجهته اليها المسلتين وكانتا ظاهرتين عن بعد . وعاد سعيد الى الجامع

واقبل عبد الله على عين شمس فاذا هي مؤلفة من اطلال ليس فيها من الابنية الا الجدران والاعمدة ، فطاف بين خرائبها فلم يرأحدا ولا سمع صوتا ، وقضى في ذلك ساعتين يتردد بين تلك الجدران ثم يعود الى حيث بدأ فلم ير أثرا للآدميين ، فظن نفسه قد أخطأ المكان أو اساء فهم ما بلغه من امر ذلك الاجتماع حتى كاد يهم بالرجوع وقد خاب ما أمله وخيل اليه أن دعاة على ابدلوا بمجتمعهم هناك مكانا آخر

فأسند ظهره الى جدار ووقف يفكر فيما يفعله وقد مالت الشمس الى المغيب فرأى رجلا قادما من الفسطاط فتشاغل عبد الله بمشاهدة ما هو محفور على تلك الآثار من الرسوم الهيروغليفية كأنه يعجب لغريب صنعها . وكان الرجل يظهر تارة ويختفي تارة أخرى في مروره بين الأعمدة والخرائب وعبد الله يختلس النظر اليه . ثم نظر فاذا به قد اختفى

□

فعجب عبد الله لأمره وقال في نفسه : « لابد ان يكون الرجل من اهل ذلك الاجتماع السري وقد نزل في نفق أو نحوه » . فالتمس المكان الذي ظن انه اختفى فيه فوجد منحدرا يظهر لأول وهلة أنه مسدود فنزل فيه وهو يخطو الهوينى حتى انتهى الى ظلمة دامسة فوقف وأصاخ بسمعه فسمع لغطا فاستبشر بالوصول الى المكان المطلوب ولكنه لم يكن يعرف مدخل تلك المغارة وخاف أن يراه القوم فيقتلوه

فوقف برهة يتردد بين أن يسير متلمسا طريقه وبين ان يرجع ليأتي بسعيد . ثم بدا له أن يتحقق المجتمع أولا ثم يعود ، فخطا بضع خطوات وهو

لايرى شيئا امامه فلطم راسه السقف ، فحنى ظهره وداهمه العطاس لرطوبة الهواء فعطس عطسة دوى لها المكان وما شعر الا وقد ظهر نور ضعيف وتقدم بضعة رجال كلهم ملثمون وعليهم اردية سوداء ترتدهم رهبة فقبضوا عليه وهو لا يبدى حراكا . ونزلوا به في الممر الى قاعة تحت الارض واسعة وكل جدرانها وسقفها مغطاة بنسيج اسود مما يجعل المنظر رهيبا ، ولولا شمعات مضيئة فى بعض جوانب المكان لكانت الظلمة لا تطاق لكثافتها . ونظر عبد الله الى من حوله فرأى في وسط القاعة دكة مغطاة بملاءة سوداء لم يدر ما تحتها ولكنه لم يستطع التامل وقد احدق به بضعة عشر رجلا التحفوا العباءات تحتها السيوف وكلهم ملثمون . فخاطبه واحد منهم يسأله عما يريده

فقال : « اني جئت اشارككم فيما أنتم فيه »

قال : « وما أدراك ما نحن فيه ؟ »

قال : « علمت أنكم تدعون الناس الى نصرة الامام علي . أليس ذلك ما تدعون اليه ؟ »

قال : « وما شأنك فى هذا ؟ » .

قال : « شأنى هو شأنكم . لا تسيئوا الظن بى انى قادم من الكوفة لهذا الأمر »

فقال له رجل آخر : « كيف تكون أمويا وندعى نصرة الامام علي ؟ »

فخيل الى عبد الله انه يستمع صوت صديقه الغفارى الذى أضافه فى الصباح

فقال : « ألست أنت صديقي الغفارى . أصدقنى ولا تخف انى والله جئتكم بخبر مهم اذا أشركتمونى فى أمركم اطلعكم عليه وتحققتم صدق قولى »

فقال الغفارى : « اذا كنت صادقا فيما تقول تعال معى » . ومشى فتبعه الى الدكة فى وسط القاعة ورفع عنها الملاءة السوداء فاذا هناك مصحف فوقه سيف مسلول وقال له : « ضع يدك على هذا السيف واقسم بالله العظيم انك حليف للامام على تنصر نصيره وتحارب عدوه »

فوضع عبد الله يده على المصحف والسيف معا ، واقسم

ثم قاده الرجل الى دكة اخرى رفع غطاءها وتناول قارورة فيها مسحوق اسود كأنه الكحل فقال عبد الله : « وما هذه ؟ » قال : « هذه قارورة فيها بقية من رماد ابن أبى بكر الذى أحرقتموه ظلما ، فاذا كنت تطلب الهداية ونصرة الحق فعليك أن تكتحل بهذا الرماد وتبكى ذلك القتيل المظلوم وتعاهدنا على الاخذ بثاره . فهل تقبل وتظل على قسمك ؟ »

قال : « انى معكم فيما تريدون وقد صدقتكم القول »

فتقدم صاحبه ففتح القارورة وادخل فيها شيئا علق عليه بعض الرماد فأعطاه الى عبد الله فاكتحل به فهاجت عيناه وانسكب الدمع على الرغم منه فشاركه الرفاق فى البكاء

ثم أزاح الغفارى لثامه وقال : « نعم انى صديقك كما قلت ، ولكن اعلم انك اذا كنت على غير ما تقول فانى عدوك اهدر دمك بحد هذا السيف . قل ما بدا لك »

فلما اطمأن عبد الله تذكر سعيدا فقال : « ان لى رفيقا اريد أن أدعوه ليشهد ما نحن فيه ويشاركنا فى هذا الجهاد »

فقال له الغفارى : « انك لن تبرح هذا المكان حتى خروجنا جميعا فقل ماتريد »

فاطاع وقال : « لا تعجبوا لانى أموى . فقد أصاب صاحبى الغفارى ؛ فقد كنت من انصار معاوية وكنت مطالبا بدم عثمان ، ولكن طرأ على طارىء سأقص عليكم نبأه بعد ؛ اما الآن فأقول انى قادم من الكوفة وقدعلمت ان أمير المؤمنين عليا بن ابى طالب قدجمع رجاله هناك فاجتمع له اربعون الف مقاتل، وكلهم مستعدون للنزال وبذل النفس والمال فى هذا السبيل »

فقال الغفارى : « ان رجالنا يعدون بالآلاف وكلهم وكل ما ملكت ايديهم وقف على نصرة الامام ابن عم الرسول »

وهم عبد الله باتمام الحديث فاعترضه احدهم قائلا : « عرفناك أمويا من الد أعداء الامام ، فما الذى حملك على نصرته مجازفا بحياتك ؟ »

فاخذ يقص عليهم حديث ابى رحاب ، ولم يكد يفوه بكلمتين حتى سمعوا وقع حوافر الخيل فوق رؤوسهم وقد ارتج المكان فوقهم فانصتوا ووقع الرعب فى قلوبهم ، وخيل اليهم أنها دسيسة من عبد الله ، فهموا بقتله ولكنهم ما لبثوا أن رأوا المشاعل منبعثة من مدخل الممر وقد انهالت الشرطة عليهم فأرادوا الدفاع عنانفسهم فلم يفلحوا ، وشدالشرطة وثاقهم وساقوهم فى ظلام الليل الى الفسطاط

السجينة الامينة

مكث سعيد فى الجامع حتى دنا الغروب ولم يعد عبد الله فحار فى امره هل يذهب الى عين شمس أو ينتظر عودة عبـد الله . ثم غربت الشمس فلم ير بدا من المسير الى عين شمس كما أوعز اليه عبد الله . فخرج من الفسطاط وجعل المسلتين وجهته والظلام يكاد يحجبهما عنه فمشى وقد اوجس خيفة من ابطاء عبـد الله ولم يعد يرى المسلتين الا اذا برزتا فى الافق . ثم اختفتـا ولم يعد يراهما وخاف أن يضل الطريق . وفيما هو فى ذلك سمع دبيبـا وقرقعة كأن جندا قادما وراءه فتنحى عن الطريق فاذا بكوكبة من الفرسان مرت به مسرعة نحو عين شمس فأوجس فى نفسه خيفة . والتفت الى يمينه فراى بيتا قائما فى بستان . فبـدا له أن يتوجه اليه يستفهم عن الطريق . فلما دنا منه سـمع صوتا خارجا من بعض جوانب المر استوقف انتبـاهه فوقف واصاخ بسمعه فسمع صوتا رخيما يمازجه بكاء ولم ير هناك نورا ولا رأى أحداً فى البستان ، فقصد باب البيت فاذا هو موصد ووضح له صوت الباكى فأنصت فسـمع صـوت امرأة تبكى وتقول : « الا تخاف الله يا ظالم ؟ أما كفاك ما واطات عليه من قتل البرىء حتى رميت الوفا من الناس فى خطر القتل الفظيع ؟ هل من ينبىء هؤلاء الأبرياء بالوشاية بهم فينقذهم من الموت ؟ »

فلما سمع سعيد تلك العبارات اقشعر بدنه ولم يعد يصبر على استطلاع سبب ذلك البكاء . فقرع الباب قرعا خفيفا فانقطع الصوت بغتة ، فصبر هنيهة وكرر القرع ويده ترتعش رهبة فلم يسمع شيئا ، فازداد شوقا الى استطلاع السر ، ولكنه خاف ان يقع فى مكيدة وهو غريب هناك ، فلبث برهة والهواجس تتقاذفه وقد حدثته نفسه أن بين ما سمعه وبين ما يسعى فى البحث عنه علاقة كبرى . وكان الفرسان الذين مروا به قد بعدوا عنه ولم يعد يسمع من وقع حوافر افراسهم غير الدوى البعيد . فأيقن أنهم فى طريقهم الى عين شمس ولم يفهم سبب ذهابهم اليها فى ذلك الليل . وبعد التأمل فيما سمعه ورآه أيقن أن فى الامر سرا يهمه الاطلاع عليه

فهز الباب بيده هزا عنيفا كأنه يفتحه بالعنف فلم ينفتح ولم يعد يستطيع صبرا فقال بصوت خافت : « هل فى المنزل احد يفتح الباب . . انى غريب ضللت الطريق ! . . »

فاجابه الصوت من الداخل : « ليس فى إلبيت ســواى . . والباب مقفل لاسبيل الى فتحه »
فازداد سعيد دهشة واستغرابا وقال : « من انت أيها المتكلم ؟ انى اراك فى ضيق فهل من سبيل الى انقاذك ؟ »
فاجابه الصوت : « يا حبذا اذا استطعته انى حبيبسة . من انت ؟ »
قال : « قلت لك انى غريب ضللت الطريق ، أرينى وجهك أوارشدينى الى وسيلة أفتح بها الباب »
قالت : « عالج الأقفال بالعنف لعلك تستطيع فتحها فتنقـذنى ، وربما انقذت الوفا من الناس معى »

□

ثارت الحمية فى راسه واستل خنجره وجعل يعالج الأقفال وهى تساعده من الداخل حتى فتح الباب فبرزت منه فتاة محلولة الشعر عليها رداء أهل الفسطاط ولما رات سعيدا قالت : « من أنت أصدقنى الخبر ؟ »
قال : « أصدقينى أنت ولا تخافى ، لقد سمعتك تندبين الوفا من الناس فمن هم ؟ »
فتفرست فيه وتفرس فيها فلم يعرفها ولا عرفته
ثم قالت له : « من قال لك انى اندب الوفا ؟ »
قال : « سمعتك بأذنى . افصحى ولا تخافى »
قالت : « وما يهمك من امر هؤلاء الألوف ؟ »
قال : « اخاف أن اكون منهم »
قالت : « وما الذى جاء بك الى هنا ؟ »
قال : « كنت ذاهبا الى عين شمس فتهت وجئت لأسأل اهل هذه الدار عن الطريق فسمعت بكاءك ، فما خطبك . قولى لقد نفد صبرى »
قالت : « انى اخاف العيون ، ولا اثق بأحد بعد ان غدر بى ابى فكيف اثق بالغرباء ؟ »
قال : « رب غريب اقرب من القريب . قولى ولا تخافى »
وفيما هما فى ذلك سمعا وقع الحوافر وصوت الضوضاء من ناحية عين شمس ، فدخلت الفتاة الغرفة وجرت سعيدا بثوبه ولم تفه بكلمة ، فدخل فى اثرها وقد تولتــه الدهشة ولبث صامتــا . ولم تمض برهة حتى دنت الضوضاء منهما وسمعا من بين الأصوات قائلا يقول : « لقد وقعتم فى أيدينا يا الخائنون وعرفنا دسائسكم » . وسمعا لغطا كثيرا مختلطا فظلا صامتين

حتى مر الفرسان كلهم وهم يسوقون جماعة من المشاة موثقين

فلما تواروا عن البيت لطمت الفتاة وجهها وقالت : « لقــد نالوا بغيتهم قبحهم الله وقبضوا على الجماعة »

فقال : « وأى جماعة . هل قبضوا على جماعة عين شمس ؟ »

قالت : « نعم انهم قبضوا عليهم وا أسفاه »

فدق سعيد يداً بيد وخرج يرقب الفرسان كأنه يريد أن يتحقق طريقهم

فقالت له : « أخالك كنت سائرا اليهم »

قال : « نعم »

فقالت : « لقد نجاك الله من أيديهم وكأنما أراد الله ان تضل الطريق لنجاتك »

فاضطرب سعيد واختلج قلبه فى صدره وقال : « بالله عليك افصحى يا اخية فقد نفد صبرى ، وقد علمت غرضى فأخبرينى عن حقيقة أمرك »

قالت : « لم اعد أستطيع البقاء هنا مخافة أن يفاجئنا قادم فتكون العاقبة وخيمة علينا »

قال : « وهل تريدين أن نبعد عن هذا المكان ؟ »

قالت : « نعم هلم بنا ، فاذا خلونا تحادثنا ، وعساك أن تتلافى أمرا لا أزال خائفة من وقوعه ، وهو شر عظيم » . قالت ذلك وخرجت فمشت أمامه وهو يتبعها حتى خرجا من البستان وأوغلا فى الحقول ، وهو يسير فى أثرها الى حيث لا يدرى ، وكلاهما صامت لا يفوه بكلمة ، حتى دنوا من بناء عالى الجدران كأنه لا باب له فقالت له : « هذا دير للقبط فلندخله بحجة الزيارة فنكون فى مأمن » ومشت أمامه الى باب صغير فى أسفل الحائط مصفح بالحديد ، فقرعته فأطل عليها من نافذة فى أعلى الحائط راهب فى يده مصباح وقال : « من يقرع الباب ؟ »

ولم تمض هنيهة حتى فتح الباب فدخلا وقد احنيا رأسيهما لضيقــه فاشرفا على ممر دخلا منه والراهب يسير بالمصــباح أمامهما حتى انتهيا الى الـكنيسة ، فنظر الراهب اليهما فى نور المصباح فعرف ان الفتــاة من أهل الفسطاط بل من أشرافهم ، فسر لزيارتهما ورحب بهما وأدخلهما الى غرفة مضاءة فى الجانب الآخر من الكنيسة وسألهما : « هل تحتاجان الى شىء ؟ » . فقالا : « كلا » . فتركهما وقفل راجعا

□

تأمل سعيد الفتاة على ضوء المصباح فوجدها شابة فى مقتبل العمر جميلة الطلعة وقد احمرت عيناها وذبلت أهدابهما من البكاء ، فلم يزدها ذلك الا

حسنا ، وكانت قد ضفرت شعرها فى اثناء الطريق وغطت راسها بطرف ثوبها . فجلسا على وسادة فوق حصير وسعيد فى لهفة على حديثها وقلبه يخفق توقعا للنبأ الغريب ، فابتدرها بالسؤال عن حقيقة امرها ؟

فنظرت اليه ولم تكد تتأمله حتى قالت : « لعلك أحد الغريبين اللذين وصلا الى الفسطاط صباح هذا اليوم ؟ »

قال : « نعم ، وما ادراك بذلك ؟ »

قالت : « رأيتكما مع جارنا الغفارى ، وها أنذا أقص عليك خبرى الغريب ، وأرجو منك أن تسرع فى تلافى الخطر العظيم الذى سيدهم المسلمين قريبا »

قال بلهفة : « قولى ، انى لهذا الامر اتيت الفسطاط ، فعسى أن اكون قد وقعت على ضالتى »

قالت : « انى اطلعت على سر لا أظن احدا عرفه قبلى ، ألست على دعوة الامام على ؟ »

قال : « بلى انى على دعوته ، وقد جئت فى سبيل نجدته »

وهمت بالكلام ، ثم توقفت برهة واطرقت ، فلحظ سعيد ترددها وادرك انها أساءت الظن به فقال لها : « لا تظنى سرك مجهولا لدى واذا شئت قلته لك . وليطمئن قلبك اقول انه يتعلق بالامام على وفيه خطر على حياته »

فاطمأنت ولكنها تنهدت وقالت : « اعلم ياسيدى ان ابى يصنع السلاح ويبيعه فى الفسطاط ، وقد ربيت وأنا أسمعه يتشيع للامام على فانغرس حب هذا الامام فى قلبى ، وما أنا فى حاجة الى مدح أبى الحسن وهو ابن عم الرسول وصهره ، ولكننى ذكرت لك هذا لأطلعك على التغيير العجيب الذى طرأ علينا فقد كنا ندعو ابدا لعلى بالنصر ، حتى كانت واقعة صفين منذ بضع سنين فلحظت فتورا فى غيرة أبى ، ولكننى لم أعرف لذلك سببا . وقد كنت كثيرا ما أراه يختلى بجار لنا من بنى مراد ، كان يعلم الناس القرآن ، وكنت احسبه من أهل التقوى . ولكننى وجدته وا أسفاه من اهل العداء . وما زالا يتساران فى أمر هذا العداء ولا يجرؤان على التظاهر به لأن مصر فى حوزة الامام على وعاملها محمد بن ابى بكر . فلما جاءنا ابن العاص بخيله ورجله ، وحارب دعاة على فقتل ابن ابى بكر قتلة لم يسبق لها مثيل فى الاسلام ، استقام الامر للأمويين ، فجاهر ابى بعداء على ، وكان جارنا المرادى يزيده كرها له . فعلمت انهما تشيعا للخوارج ، فظللت مع ذلك صابرة كاظمة اذ لا سبيل لى الى شيء اعمله وانا فتاة ضعيفة كما ترى . وكان ابى يظننى على دعوته . ففى ذات يوم جاءنا ذلك المرادى يخطبنى من ابى فقبل ، اما انا فلم أجب خوفا من اكراهى على الزواج ، وصممت على الفرار اذا حملنى أبى اليه كرها ، وما زلت أماطل فى عقد القران الى الآن »

عبد الرحمن بن ملجم

كانت الفتاة فى أثناء كلامها عن الزواج مطرقة حياء فلما بلغت هذا الحد رات سعيدا مصغيا كأنه يتطلع الى اتمام الحديث فقالت : « ولا اطيل عليك قبل أن اصل الى جوهر الموضوع فاقول انى احتملت الأمر بالصبر ثم علمت أن المرادى خرج الى مكة فظننته حاجا وتمنيت الا يعود ، ولكننى ما لبثت أن رأيته قد عاد »

قالت ذلك وتنهدت وسعيد ينتظر لسماع ما تقول وقد دهش لغرابة الحديث

فقالت : « عاد المرادى بمهمة جديدة ليتنى مت قبل ان اسمع نبأها . فأذا لم اجد من يتحمل المشقة فى تلافيها تلافيتها بنفسى . . . جاء هذا المرادى ثانى يوم وصوله الى الفسطاط ، فخلا الى ابى كل الليل ، وانا لا اعلم ما دار عليه حديثهما ، ثم بلغنى انه أوصى ابى بأن يصنع له سيفا ماضيا انفق عليه الف درهم ، وقضى مائة يوم يشحذه فلم أفهم معنى هذا الاستعداد ، ولا اهتممت به ، وبعد أن شحذه كلف أبى فسقاه السم . وقد علمت انه انفق على سقايته الف درهم ايضا . فويل لجسم يجرحه هذا السيف ولو جرحا خفيفا »

فمل سعيد ولم يعد يستطيع صبرا على التصريح باسم ذلك الرجل والافصاح عن غرضه بسقاية السيف ، وخامره الشك فى انه ربما كان يعد لقتل الامام علي . وكان قد صبر نفسه حتى يسمع ذلك من فم الفتاة ولكنه مل الانتظار فسألها قائلا : « وما اسم هذا الرجل ؟ »

فقالت : « اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادى »

فلم يذكر انه يعرفه ، اما خولة فتنهدت وقالت : « فلما رأيت منه هذا الاستعداد المريب عمدت الى الحيلة ، فلما جاءنا فى صباح أمس يودع ابى وقد عزم على الكوفة ، قلت فى نفسى : سيذهب الرجل وانا جاهلة السر ، فتظاهرت باعجابى بشجاعته واقدامه ، واطريت غيرته على الاسلام ونحو ذلك ، وسألته أن يرينى السيف لاتأمل فرنده ، فجاء به وأوصانى أن اتقى حده لأن جرحه يميت ، فسللته بحذر ، فاذا هو يلمع لمعانا تقشعر منه الابدان ، فارتعد جسمى ولكننى اظهرت الجلد وقلت : أراك انفقت مالا كثيرا

على صقله ، ما الفائدة من هذا اللمعان ؟

فضحك مستخفا وقال : « اتحسبينني انفقت كل ذلك المال على صقله فحسب ؟ »

قلت . « وماذا هناك ، انى لا أرى فيه غير اللمعان »

فقال : « لقد سقيته السم »

فتظاهرت بالدهشة وقلت : « ولأى شيء هذا ؟ » . وما زلت احاوره واجادله حتى خدع فقال : « اعلمى يا خولة انى سأقتل بهذا السيف رجلا يزعمون انه اكبر رجل فى الاسلام ويقولون انه اقربهم الى الرسول » . قال ذلك والشر باد فى عينيه واصفرار اللؤم يتخلل ما كان يحاوله من الابتسام . اما انا فلما سمعته ارتعدت فرائصى واختلج قلبى واظنه قرأ ذلك على وجهى . كيف لا وقد ظهر لى انه يريد قتل الامام على . ولكننى أردت التثبت فقلت : « ومن هو ذلك الرجل ؟ » . فقال : « الا تعلمين من هو ؟ الا تعرفين سبب كل هذا الانقسام ؟ فاذا كنت لم تفهمى بعد فأقول لك انه على بن ابى طالب الذى يدعوه أشياعه امير المؤمنين » . قال ذلك واحمرت عيناه وتجلى الغدر فى وجهه وقال : « احذرى ان تبوحى بذلك لأحد ، والا اصابك جرح من هذا السيف » . قال ذلك وهو يمزج الجد بالهزل . اما انا فتحققت انه يقتلنى ولا يبالى ، فالذى يجرؤ على قتل امير المؤمنين كيف لا يقتل فتاة مثلى . فلم استطع جوابا وخفت اذا انا نطقت أن ينكشف أمرى ، فسكتت وقد عولت فى سرى على السعى لابلاغ امير المؤمنين ذلك على عجل ، لأن موعد القتل قريب واظنه فى ١٧ رمضان ، لأنى كثيرا ما كنت أسمعه يذكر هذا التاريخ ويعرض بذكر الكوفة ، ولم أكن افهم مراده وقتئذ . وأما الآن فقد تأكدت انه عازم على قتل الامام على فى ١٧ رمضان ، ونحن الآن فى أواسط شعبان وأخاف أن ينال هذا الرجل بغيته قبل أن يبلغ الخبر عليا . آه يا ليتنى طير لأحمل الخبر اليه »

نهض سعيد عندما سمع كلام خولة ، وجعل يخطر فى الغرفة ذهابا وايابا والحمية ملء راسه ، وندم على تركه الكوفة قبل أن يطلع الامام عليا ، ولكنه تذكر انه لم يكن يعرف اسم المجرم الذى يريد اغتيال حياته ، فلم تكن ثمة فائدة من اعلامه ، أما الآن فانه يذهب اليه بالخبر اليقين

وكان مع شدة اضطرابه بعد أن سمع حديث خولة لايغفل عما يتجلى فى وجهها من ملامح الجمال وما فى حديثها من صدق اللهجة ، وقد اعجبه منها بنوع خاص غيرتها على الامام على ، فشعر بميل اليها . ولكنه تذكر عهده

لقطام وما يظنه من حبها له فرأى الا يطلق لنفسه العنان فى حب سواها .
على انه ما لبث أن عاد الى التفكير فى عبد الله ومصيره وسبب وجود خولة فى ذلك البيت المنفرد . فقال لها : « لا أدرى يامولاتى ما الذى ساقنى الى منزلك حتى حظيت برؤيتك وسمعت هذا الحديث الذى جئت الفسطاط من اجله . ولا أخفى عليك انى كنت عالما بعزم بعضهم على الفتك بالامام ، ولكننى لم أكن أعلم اسم ذلك المجرم ، فجئت الفسطاط ومعى رفيق من ذوى قرابتى كان قد سبقنى فى صباح هذا اليوم الى مجتمع العلويين فى عين شمس ، على ان يعود الى بخبرهم ، فلما أبطأ سرت فى اثره وأنا لا أعرف الطريق فضللت فى الظلام حتى اهتديت اليك لحسن حظى . ولكننى فى قلق على رفيقى فانه يلوح لى ان الفرسان الذين شاهدناهم الليلة كانوا قادمين من عين شمس ، وربما قبضوا على انصار على هناك . . ألا تظنين ذلك ؟ »

فقالت خولة : « لو صبرت حتى تتمة حديثى لكفيت نفسك مؤونة الظن ، ويلوح لى انك تود الاطلاع على سبب وجودى منفردة فى ذلك البيت المغلق ، فاعلم انى لما سمعت حديث المرادى سكت وكظمت غيظى ، فخرج الرجل واظنه شخص الى الكوفة ، ولبثت انا فى حيرة لا ادرى ماذا اعمل ، فقضيت أمسى فى الهواجس والظنون ، وكلما تصورت عليا مقتولا بسيف هذا الغادر يقشعر بدنى . وكان ابى يخرج الى حانوته فى الصباح ولايعود الا فى المساء ، وعندنا فى المنزل عبد ربانى منذ حداثتى وهو يحبنى ويكرمنى ، وكنت قلما أكلمه ، فخطر لى أن انتهز فرصة غياب ابى وأكلم العبد عساه ان يطلعنى على نبأ جديد ، أو لعلى افهم شيئا آخر . لأن حديث ابن ملجم أتعبنى وأقلق راحتى ، وليس لدى من اشكو اليه أمرى ، او اكاشفه سرى . فخرجت من حجرتى لأدعو العبد فلم اجده ، فناديته باسمه فأبطأ ولم يجب ، فنظرت من الدار الى الطريق فرايته واقفا مع عبد آخر غريب وهما يتهامسان . فلما رآنى خجل وأسرع الى ، فدخلت غرفتى ودخل هو فى اثرى وعلى وجهه آثار الاضطراب كانه سمع خبرا غريبا يريد أن يقصه على . فقلت : (أين كنت وقد دعوتك فلم تجب ؟) . قال : (كنت مع عبد قادم من الكوفة فى مهمة سرية الى الامير عمرو) . فقلت : (وهل أطلعك على خبرها ؟) . فأراد أن يبرهن على ثقته بى فقال : (انه أطلعنى على سر لا أظن أحدا يعرفه فى كل الفسطاط سوى الامير وبعض شرطته) . ثم أخبرنى ان ذلك العبد الذى كان معه جاء الى الامير عمرو بأن أنصار على يجتمعون سرا فى عين شمس يوم الجمعة ، وان عمرا ارسل جندا للقبض عليهم او قتلهم فى ساعة الاجتماع) .
فلما سمعت ذلك لم اتمالك عن البكاء لشدة الغيظ ، ورأيت فرضا على أن ابلغ المجتمعين ذلك الخبر ليحذروا . ولكننى لم أكن أعرف احدا اثق به فى انفاذ هذه المهمة فعولت على الذهاب بنفسى ساعة الاجتماع . فأصبحت اليوم وأنا أنتظر خروج ابى الى حانوته ، لأتنكر وأسير الى عين شمس ، فلم يخرج

ورايته مضطربا كأن العبد اخبره بالحديث ، وبأنه أطلعنى عليه ، فخاف ابى ان ابوح به لأحد قبل القبض على المجتمعين . فلازمنى حتى الظهر ، ثم دعانى الى الخروج من الفسطاط للنزهة ، فأتينا هذا البيت وهو بيت لشريك لنا فى الفلاحة وليس فيه احد ، فلم أظهر استغرابى ولم أقل شيئا لأنى كنت عالمة بأن ابى سيكون فى جملة الذاهبين الى عين شمس فلا بد له من أن يتركنى ، فاذا تركنى خرجت وانا على مقربة من المكان . وما علمت ما أضمره لى فانه لم تكد الشمس تميل الى الغروب حتى خرج متظاهرا بأن امرا ما يدعوه الى الذهاب ، وادعى انه اقفل الباب على خوفا من الغرباء او ابناء السبيل ، وهو يعلم انى لا أستطيع النداء والاستنجاد لأنى اذا تظاهرت بنصرة الامام كنت من المغضوب عليهم ، فظللت هناك حتى جئت انت ورايتنى فى هذه الحال . فلاشك انهم قبضوا على زميلك فى جملة من قبضوا عليهم من الانصار »

قال سعيد : « هل ترين بأسا عليه ؟ »

قالت : « اظنهم يسجنونه ليستجوبوه ، ثم اذا رأوا قتله قتلوه ، وكذلك يفعلون برفاقه . ولكن لابأس عليه باذن الله وسنتدبر أمره . على انى اخاف اذا عاد ابى ولم يرنى فى البيت ان تزيد نقمته على ، فأرى أن أذهب الى منزلنا فى الفسطاط ، وأتظاهر بأنى خفت من البقاء فى البيت وحدى ففتحت الباب بأسلوب ما وأتجاهل كل ماحدث ، فماذا انت صانع ؟ »

قال : « أود أن اسرع الى الكوفة لأرى ابن ملجم فأقنعه بالعدول عن جريمته ، أو أخبر الامام عليا »

فبادرته قائلة : « وكيف تقنعه وهو لا يقنع ، بل قد يسرع فى القتل ؟ ليس افضل من ان تطلع الامام عليا على الأمر وهو يرى ما يراه »

قال : « وكيف افعل برفيقى هل اتركه فى السجن ؟ »

قالت « اخاف اذا تأخرت هنا ان تفوت الفرصة والمسافة من هنا الى الكوفة بعيدة ، وانى لأعجب منك كيف كنت عالما بخبر هذه المؤامرة ولم تخبر بها عليا وانت فى الكوفة ؟ »

فتنهد وقال : « كفى الملام فقد وقع ما وقع ، وكنت أظن الكتمان يبعد المصيبة ، وفاتنى أن أخبرك بأن المؤامرة ليست على مقتل الامام على فقط ، بل هى كذلك على مقتل عمرو ومعاوية أيضا » . وقص عليها الخبر موجزا

□

استغربت خولة الخبر وقالت : « مالنا ولهذين؟ اننا نريد الدفاع عن الامام على الآن ، ولكننى لم أفهم كيف انتقل خبر قدومكما الى هنا وانت تقول انه كان سرا مكتوما لم يطلع عليه أحد »

فكاد سعيد يسيء الظن بقطام ، ولكن الحب اعمى بصيرته فانتحل سببا آخر وقال : « لا ادرى » . وخطر له ان يقص حديثه مع قطام ثم امسك عن ذلك حفظا لعهدها ، ولا عجب فهو سليم النية لا يعرف الدهاء ، ولهذا لم يطلق لعواطفه الحرية فى حب خولة ، مع ما آنسه فيها من جمال وكمال وتفان فى نصرة الحق

على انه أدرك خطأه فى كتمان خبر المؤامرة عن على الى ذلك الحين ، ولكنه حمله على اهمال من قطام لا على سوء قصدها ، ومع ذلك فقد راى الأمر سهل التلافى ولايزال ثمة باب مفتوح لانقاذ على بابلاغه خبر المؤامرة ، وهذا يدعو الى السفر السريع ، وهو لايعلم ما آل اليه حال عبد الله فقال لها : « انى عازم على الكوفة فى أقرب وقت ، فما الذى أفعله برفيقى وأنا لا ادرى آحى هو أم ميت ؟ »

قالت : « غدا نعرف الحقيقة ، دعنى اذهب الآن الى منزلنا بالفسطاط ، وامكث أنت هنا الى الصباح »

قال : « كيف استطيع البقاء هنا وحدى ولا صبر لى على استطلاع خبر عبد الله ، فأرى أن أدخل الفسطاط واتردد الى المسجد ، اذ لا يعرفنى احد هناك ، فاما ان اسمع خبرا ممن يفد على المسجد من المصلين أو تبعثى الى بالخبر »

قالت : « لك الخيار فى ذلك » . ونهضت فنهض وخرجا فرافقها الى قرب منزلها وودعها وعاد يلتمس بيت الغفارى للمبيت وهو لا يدرى أن الرجل فى عداد المقبوض عليهم ، وقد أصبح بيته موضع شبهة ولم تكن خولة تعلم ذلك أيضا

وكان الجند بعد القبض على المجتمعين قد ساقوهم فى الأغلال الى السجن ، وكان عمرو ينتظرهم فى داره فلم يصبر الى الصباح وأمر باستقدامهم اليه واحدا واحدا ، فرأى بينهم جماعة ممن لم يكن يخطر له أنهم على غير دعوة بنى امية خصوصا الغفارى . ولما وصل الى عبد الله عرف انه من بنى أمية وعرف قرابته من أبى رحاب ، ولكنه تجاهل ذلك ، وأمر بأن يسجن كل منهم فى حجرة على حدة ، وبعث جندا يفتشون منازلهم ويقبضون على من فيها من الرجال لعلهم يطلعون على شيء جديد ، ولم تمض ساعة حتى دهم الجند منازل العلويين وأخذوا ما فيها

□

لما ذهب سعيد الى بيت الغفارى سأل عن صاحبه فقالوا له : انه خرج منذ الظهر ولم يعد . فلم يخطر له انه فى عداد المقبوض عليهم ، فدخل

الحجرة التي وضع فيها ثيابه وحاول ان ينام ، ولم يكد يلقى رأسه على سريره حتى تراكمت عليه همومه فأخذ يفكر فى عبد الله وماذا عسى أن يكون أصابه ، وخاف ان هو ابطأ فى الذهاب الى الكوفة أن ينفذ ابن ملجم جريمته فيذهب سعيهم عبثا

وفيما هو فى هذه الهواجس وقد طار نومه سمع لغطا فى الدار ، ثم علت الضوضاء وضج الناس فوقف وتسمع فاذا برجال عمرو قد دخلوا المنزل واوغلوا فى النهب وآذوا كل من تعرض لهم فأيقن انهم آتون الى حجرته ، وسيفتكون به ، فتقلد حسامه والتفت يمينا وشمالا لعله يجد مخرجا ينجو منه فسمع صوتا يناديه من وراء الحجرة فاستأنس بالصوت وعرف انه صوت خولة ، ولم يكن له سبيل الى رؤيتها غير نافذة عالية يشرف منها اذا صعد على مرقاة ، فاحتال فى الصعود اليها واطل وكان الظلام حالكا ولكنه رأى شبحا وسمع صوت خولة تقول له : « انهم سيفتكون بكل من فى المنزل ، فاليك هذا الخمار والجلباب فالبسهما وافتح الباب واخرج، وسيظنونك امرأة فلا يتعرضون لك » . فمد يده وتناول الخمار والجلباب فارتداهما وهو يرتعش مخافة أن تفاجئه الشرطة قبل خروجه

فلم يكن الا كلمح البصر حتي فتح باب الغرفة وخرج بزى امرأة فراى الضوضاء على أشدها ، ولم يتعرض له أحد فى ابان النهب ، فمشى الى الشارع وراء البيت فراى خولة واقفة فلم يتمالك عن الاعجاب بشهامتها والاقرار بفضلها برغم دهشته وبغتته . ثم رآها تمشي امامه فاقتفى خطواتها حتى وصلا الى مكان منفرد فوقفت وقالت له : « الحمد لله على سلامتك وسلامة الامام على » . فلم يفهم مرادها فابتدرته قائلة : « لا تعجب لقولى فان حياة الامام على تتوقف على حياتك اذ ليس هنا من يعلم الخطر الذى يتهدده سواك . نعم انى أنا أعرفه أيضا ولكننى لا أرانى استطيع الذهاب ولا آمن على السر احداً »

فقال : « أما انا فلا مطمع لى فى الحياة الا بانقاذ الامام من القتل وانت صاحبة الفضل ، ولكن كيف عرفت بالخطر المحدق بى حتى جئت بهذه الحيلة »

قالت : « علمت من أبى ان عمرا أمر بنهب منازل العلويين والقبض على من فيها من الرجال، واخبرنى ايضا ان الغفاري كان من المقبوض عليهم ، وقد علمت انك مقيم بمنزله فجئت اليك بهذه الحيلة . فالحمد لله على سلامتك »

فشعر سعيد بفضل خولة واحس بميل اليها ولكن حبه لقطام مازال غالبا على قلبه لايترك له سبيلا الى سواها

وبعد التأمل برهة قال : « وما العمل الآن ؟ انى عازم على الكوفة عاجلا ، ولكننى لا ادرى ما ألم بعبد الله ولا مايؤول اليه حاله . هل علمت شيئا عنه ؟ »
فتشاغلت خولة عن الجواب باصلاح ثوبها كأنها تحاول اخفاء ما تعلمه ،

فظنها لم تسمع كلامه فأعاد السؤال . فقالت : « لايعلم المستقبل الا الله ؟ »

فلم يعجبه جوابها فقال : « افصحي عما تعلمينه ياخولة »

قالت : « ان عمرا أمر بقتل العلويين فى فجر هذا الصباح ولكن من يدرى ماذا حدث ؟ »

فاختلج قلب سعيد أيما اختلاج ، وشعر كأنما صب عليه الماء الساخن ، وقال : « ماذا تقولين ؟ هل يقتلون عبد الله ؟ كيف يكون هذا ؟ »

فقالت : « دع الامر لله واعذرني . انى لا استطيع البقاء معك طويلا لئلا يفطن أبى لغيابى فلا أنجو من القتل . وأما انت فحياتك فى خطر عظيم ، فاخرج من الفسطاط حالا »

فابتدرها قائلا : « كيف أخرج وأترك عبد الله يقتل ؟ انه ابن عمي وأعز من اخي . كيف العمل ؟ »

فقالت له : « لاخيرة فى الواقع ، فان شرا واحدا أهون من شرين ، والوقت ضيق لامجال فيه للسعي أو البحث عن سبيل لانقاذ حياة عبد الله اذا قدر الله قتله ، ونحن الآن فى منتصف الليل وسينفذ القتل عند الفجر » . قالت ذلك وسكتت هنيهة

فابتدرها سعيد قائلا : « ما قولك فى أن اقابل ابن العاص ، وأنبئه بعزم بعض الناس على قتله واحذره من الوقوع فى الخطر ؟ الا تظنينه يعفو عن قتل عبد الله مكافأة على هذا الجميل ؟ »

قالت : « ربما عفا ، ولكنه لدهائه ولقسوته قد يظن فى قولك السوء فيقبض عليك ويؤجل قتل عبد الله حتى ١٧ رمضان ، فاذا لم يظهر صدقك قتلكما معا . فهل أنت واثق من مجيء المتآمر على قتل عمرو فى ميعاده ، حتى لاتكون النتيجة زجك بنفسك فى التهلكة ؟ اترك هذا الامر لى فلعلي اهتدى الى وسيلة اذهب بها الى عمرو واطلعه على هذا السر ، فاذا رأى أن يقبض على فليفعل ولله الامر . اما انت فسر الى الكوفة قبل فوات الفرصة لأن الوقت قصير ، ووقتى الآن اقصر منه . والآن دعنى اذهب الى ابى قبل أن يعلم بغيابى فيعرقل مسعاى ، واقصد انت الى الدير الذى كنا فيه فى اول هذا الليل وسآتيك بالخبر . ولاتنس ان تنزع النقاب والازار وادخل بثوب الرجال فرئيس الدير يعرفك فلا يسيء بك الظن » . وانصرفت مسرعة الى منزلها وهو يود لو أنها لاتفارقه

مشى سعيد وهو مضطرب قلق لايدرى الى أين يسير فاذا به قد خرج من الفسطاط ووصل الى حافة ترعة ظنها لأول وهلة نهر النيل . ثم رأى ضيقها

فعلم انها خليج . وكان الظلام حالكاً فوقف برهة يفكر في عبد الله ومصيره والخطر المحدق به فازداد قلقا

وظل واقفا مشرد الذهن وحانت منه التفاتة فرأى بالقرب منه نخلة فجلس على حجر تحتها واسند ظهره اليها وجعل يسبح في بحر خياله ومصائبه . فتذكر قطام ووعودها وما من له معها من الاحداث . وكان الجو هادئا لايكدره الا نقيق الضفادع على شاطىء الخليج فتشاءم وخيل اليه ان عبد الله قد مات ، فرجف وجلا وقال في نفسه : « أأبقى انا هنا وعبد الله في الخطر الشديد ؟ ماذا تكون حاله مع عمرو ؟ . أيقتله أم يستبقيه ؟ وماذا اعمل : هل ابقى في الفسطاط لأنقذه من القتل ؟ أم أسير الى الكوفة لانقاذ الامام علي ؟ ولكن ما الفائدة من بقائي هنا وابن العاص قد أمر بقتل عبد الله في صباح الغد ؟ لابد من المبادرة الى انقاذه » . قال ذلك ومشى محاذيا الخليج جنوبا وهو ينظر اليه ، فتذكر انه خليج امير المؤمنين وقد حفره عمرو بن العاص لما فتح مصر منذ عشرين عاما لارسال المؤونة فيه الى الحجاز تلافيا لما كانوا يخافونه من القحط هناك . وكان قد حفره باشارة الخليفة عمر بن الخطاب لما كانت الخلافة في المدينة ، فتذكر حال الاسلام في ذلك العهد وما كان فيه من اجتماع الكلمة وما فتحته سيوف المسلمين من البلاد الواسعة في الشام ومصر والعراق في بضع عشرة سنة . وكيف تحولت تلك السيوف بعد مقتل الخليفة عثمان الى الفتنة فانقسم المسلمون فيما بينهم ، وشغلوا عن تثبيت ملكهم بالحروب الاهلية حتى أصبحوا يقتلون خلفاءهم ويتهمونهم تهما ما أنزل الله بها من سلطان . واقبح ما آلت اليه الفتنة تآمرهم على قتل امرائهم ، ولا سيما الامام على وهو ابن عم الرسول وخيرة قواد المسلمين ، ولا ذنب له غير العمل على تأييد الكتاب . فلما تصور تلك الحال انقبضت نفسه وحزن حتى كادت تخنقه العبرات وهو لايدري أيبكي عبد الله أم يبكي الاسلام أم يبكي الامام عليا أم يبكي سوء حظه الذي قاده الى الفسطاط فوقع فيما هو فيه ؟

وكأنما اعترته هزة من الحماسة فوقف على الخليج وجعل يناجيه قائلا « أيها الخليج ، أليس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، هو الذي أشار بحفرك قل لي بمائك الذي يجري فيك هل علم ابن الخطاب لما اذن بذلك أن دولة الاسلام سيقضي عليها بالانقسام حتى يحمل عامتهم على خليفتهم ليقتلوه . ثم يختلفوا على الخلافة ليقتسموها ، ثم يختصموا على اقتسامها ؟ . هل خطر لابن العاص يوم نزل وادي النيل وحاصر هذا الحصن المنيع حصن بابل انه سيجرد سيفه على المسلمين ويقتل ابن ابي بكر حرقا بالنار ، ثم ينقم على ابن عم الرسول فيخرج الخلافة من يده بالحيلة ؟ . أين هو عمر جامع كلمة المسلمين ؟ . كانت المدينة مقر الخلافة في عهده فاصبحت منقسمة على نفسها يدعيها غير أهلها . . رباه ما هذه الحال ؟ ياليتني مت قبل هذا . هنيئا لك يا أبا رحاب ان عظامك ساكنة في التراب وروحك تنتظر لقاء ربها يوم الحساب

اما انا فانى تائه بعدك تتنازعنى عوامل لا أدرى مصدرها ولا أعلم مصيرها ، ابقى هنا لأرى مصير اخى عبد الله ؟ ام اسرع الى الكوفة لأنبىء الامام بما تآمروا به عليه ؟ . ولكن ما الفائدة من بقائى ؟ هل يعفو عمرو عن عبد الله فيبقى حيا فأراه ؟ ما اظنه يفعل ، وما اظن اننى استطيع الدفاع عنه ؟ »

ثم تذكر خولة فقال : « آه ياخولة ، يخيل الى انك ملك كريم ارسلك الله لترشدينى الى سواء السبيل . . فهل يتم السعد على يدك وتنقذين عبد الله من القتل ؟ »

وفيما هو فى ذلك يمشى الهوينى على ضفة الخليج ، سمع لغطا وحركة عن بعد ، فأجفل وتقدم نحو الصوت وهو يحدق بنظره ، فعلم انه بجانب فم الخليج عند اتصاله بالنيل ، ورأى فى النيل سفنا كبيرة وسمع دويا عميقا كأن لصوصا يهمسون فيما بينهم ويحاذرون أن يسمعهم احد . وكان ما زال بلباس النساء فخاف أن يراه أحد فينكشف امره ، فانزوى وراء جميزة كبيرة بقرب الشاطىء ، ثم تسلق أحد فروعها واختبأ بين الاغصان والاوراق مبالغة فى الحذر حتى اذا استقر على غصن غليظ جعل يتفرس فيما يراه فاذا هناك بضعة وعشرون رجلا يحيطون بآخرين فى مثل عددهم كأنهم أسرى مغلولون يساقون الى قارب كبير ، وسمع بعضهم يقول : « الى أين انتم ذاهبون بنا فى هذا البحر ؟ لعلكم تريدون اغراقنا ؟ » . فشجبه احدهم قائلا : « وما علينا اذا اغرقناكم ، وانتم عصبة شريرة تآمرتم على نصرة رجل قتل الخليفة عثمان ؟ »

فصاح آخر : « اهذه اعمال ابن العاص ، يقتل الرجال غيلة ؟ . أما كفاه انه طلب الخلافة لصاحبه بالحيلة حتى يقتل نصراء الحق غرقا ؟ . . أما تخافون الله ؟ الا تخافون يوم القيامة ؟ »

فصاح به آخر وقال : « لاتخف اننا امرنا بنقلكم الى جزيرة الروضة تبقون فيها أياما » . ثم علت الضوضاء فعلم سعيد انهم أنصار على الذين قبض عليهم تلك الليلة فى عين شمس . فظن ان ابن العاص اشار بقتلهم غرقا فى النيل ، فارتعدت فرائصه حتى كاد ان يقع ، وحدثته نفسه أن ينزل لنصرتهم ، ولكن الخوف غلب عليه فانه أعزل وهم عصبة كبيرة بالسلاح ، فلبث برهة كأنها سنة وهو يرتجف غضبا ، وتسمع لعله يسمع صوت عبد الله أو يراه فلم يسمع شيئا ولم ير شيئا ، وما هى الا دقائق معدودة حتى احتوى القارب القوم ثم أداروا الدفة وهو ينظر اليهم وقد ندم على سكوته وود لو انه اظهر نفسه لعله يستطيع نجدة اولئك المظلومين او يقتل . ثم تذكر ان فى بقائه حيا نفعا للامام على ، فمكث برهة كأنه فى حلم يتردد بين الندم والاسف حتى توارت السفينة عن بصره فأيقن ان عبد الله ملاق حتفه وسيذهب ومن معه طعاما للأسماك

واشتد اضطراب سعيد وهواجسه ، ثم بكى ونزل من الشجرة وهو يندب

عبد الله ويوبخ نفسه لضعفه وتردده قائلا : « ااري عبد الله يساق الى القتل ولا انصره ؟ يا للجبن ويا للخيانة ! . وكيف اتخلى عن رجل ذهب ضحيةحبه لى ، فانه لولاى لم يات الى هنا ولا راى ما رآه من الشقاء . . فما الفائدة من حياتي الآن اني لا استحق البقاء ولا بد من أن القى نفسي فى هذا الماء لعلى ألقى صديقي عبد الله » . قال ذلك وهم بأن يلقي نفسه فى النيل فشعر بقوة خفية اوقفته بغتة ، وفكر فى الامام على وما يحدق به من الخطر فقال : « اذا قتلت نفسي فانما اقتل عليا معى . نعم اقتله لانى اذا لم اذهب الى الكوفة وانبئه بعزم ابن ملجم ذهب قتيلا بذلك السيف المسموم . آه ياخولة أين وعدك بانقاذ عبد الله ؟ . . ولكن ماذنبك وانت لاتعلمين انهم سيسرعون فى القائه فى اليم قبل الصباح . . هذا دهاء ابن العاص ومكره . ولكنه سوف ينال جزاءه من اولئك المتآمرين . . ليتنى انبأته بالمؤامرة وجعلتها فدية لعبد الله . ولكن قضى الامر ولا خيرة فى الواقع »

ثم سكت وجعل ينظر فيما حوله وقلبه لايطاوعه على التطلع الى اتجاه القارب . فأراد أن يعود الى المكان الذى أتى منه فرأى شبحا مسرعا نحوه فخاف وتهيأ للقتال اذ رآه يقترب منه . فلما اقترب الشبح اذا هو امرأة فعجب لقدومها وحدها فى ذلك الليل ولكنه ما كاد يتفرس فى قيافتها حتى علم انها خولة ، فخفق قلبه وغلب الخجل عليه لما رآه من جرائتها واقدامها ليلا وهى فتاة لايحملها على القدوم ألا السعى فى انقاذ عبد الله . فحدثته نفسه أن يختبىء خجلا ، ولكن المفاجأة اذهلته فدنا منها وناداها . فلما عرفت صوته صاحت : « اين عبد الله ؟ »

فأراد أن يجيبها فاختنق صوته وسبقته العبرات

فدنت منه وهى تقول : « سعيد ، هل رايت أحدا جاء الىَ هنا ؟ وما الذى جاء بك انت ؟ »

قال : « رايت الشرطة يحملون الاسرى فى قارب »

قالت : « واين هم ؟ اين ذهبوا بهم ؟ . . هل رايت عبد الله معهم ؟ »

قال : « أخذوهم فى القارب ، ولا أدرى اذا كان عبد الله معهم أم لا ، لأنى لم اسمع صوته ولا رأيته »

ـ فدقت يدا بيد وقالت : « لابدمن أن يكونمعهم . آه ما الحيلة الآن؟ ماكنت أظن ابن العاص يعجل بقتلهم هكذا . . ولماذا لم تحاول الدفاع عنهم ؟ »

فقال والاعتذار والخجل يتنازعانه : « لم أكن اعلم ان عبد الله معهم ، وهبى انى علمت فكيف أستطيع انقاذه وأنا أعزل وهم جماعة مسلحون ؟ »

فصمتت خولة ثم قالت : « حسنا فعلت فابقيت على نفسك لانقاذ الامام على ، لأن حياته موكولة الى الاسراع فى رجوعك »

فقال بلهفة : « وأنت ما الذى جاء بك وكيف عرفت أمرهم ؟ »

قالت : « علمت ذلك من عبدنا ، وكنت قد أعددت حيلة أدخل بها على عمرو لأستمهله فى أمر عبد الله باطلاعه على سر المؤامرة ، فعلمت انه بعث بهم هذه الليلة لالقائهم فى النيل حذر الفتنة ان هو قتلهم جهارا ، وهو يعلم كثرة انصارهم فى الفسطاط . فأسرعت لعلى أستطيع انقاذ عبد الله ولكن لم يسعفنى القدر . . وا أسفاه عليك ياعبد الله . آه من أهل الظلم . ان ابن العاص غلب عليا بحيلته فأخرج الخلافة من يده لسذاجة أبى موسى الاشعرى ولكنه لن ينجو بنفسه من غائلة المؤامرة »

ثم دنت من سعيد وقالت : « ان فقد عبد الله مصيبة علينا لأنه شهم وسيذهب ضحية مروءته ، على اننا نرجو أن نعتاض عن فقده بانقاذ الامام على من خطر القتل ، فاركب الى الكوفة على عجل وتمم المهمة التى حثت من أجلها . فها قد عرفت اسم المتآمر ، وانه سار الى الكوفة فأسرع ما استطعت قبل فوات الفرصة »

وكان سعيد مع شدة تأثره مما رآه تلك الليلة من الاهوال لا يغفل عما أبدته خولة من الحمية والشجاعة فازداد حبا لها واعجابا بشهامتها ، وفيما هو يفكر فى ذلك ابتدرته قائلة : « اعلم يا سعيد انى خرجت الليلة من بيت أبى مجازفة بحياتى وانا احسبك فى الدير كما تواعدنا ، وكنت عازمة على الذهاب لأحثك على السفر ثم أعود الى أبى وأنتحل له سببا لخروجى . اما وقد التقينا هنا فانى أستودعك الله وأرجو منك أن تسرع فى الذهاب ، وسأرسل اليك جملا مع عبدنا ليسير فى ركابك الى الكوفة »

فأعجب سعيد بحسن تدبيرها ورباطة جاشها ، ورأى نفسه ضعيفا بين يديها ولم يستطع مخالفتها فقال : « سيتبين لنا الخيط الابيض من الخيط الأسود قريبا وها أنذا ذاهب الى جبل المقطم ، فهل يوافينى عبدك وجملك الى هناك ؟ »

قالت : « انه سيوافيك حتما . سر بحراسة الله واحذر ان تفوتك الفرصة . ان ابن ملجم قد سبقك الى هناك . . هل علمت ذلك ؟ » . ومدت يدها اليه فصافحها ويده ترتعش وقد نسى نفسه لحظة ، ثم ما هو بسبيله ، فأخذ يودعها وقلبه يضطرب حبا لها ، واعتزم . وبين نفسه اذا نجح فى مهمته أن يطلق لقلبه العنان فى التقرب من خوله قال لها : « آمل أن تذكرينى وتدعى لى بالتوفيق »

قالت : « اذهب فانى معك بقلبى وان لم ابرح الفسطاط ، وأرجو أن نلتقى يوم ينجو الامام من أيدى الظالمين وينال ما يستحقه من الاستئثار بالخلافة »

ثم ودعته والحت عليه فى الاسراع فى السفر ، وأكدت له ان عبدها سيلاقيه ومعه الجمل وراء المقطم ، ثم توجهت الى الفسطاط

فلما تركته وحده أدار وجهه الى النيل حيث كان القارب ، وتأوه وتحسر وقال : « أستودعك الله ايها الصديق الحميم ، أستودعك الله ايها الأخ الحبيب، هنيئا لك ذهابك ضحية فى سبيل نصرة أمير المؤمنين فستلقى ربك باسما مفتخرا ، فادع لى أن القاه أنا أيضا منتصرا على القوم الظالمين »

قال ذلك واتجه نحو جبل المقطم ، ولم يدركه حتى انبلج الصبح ، فلقى العبد قد سبقه الى هناك ومعه الجمل وسائر معدات السفر

فلنتركه سائقا ظعنه يطوى البيد طيا ، ولنعد الى قطام بالكوفة وما كان من دهائها ومكرها بعد سفره . وكانت قد أرسلت عبدها الى الفسطاط للوشاية بسعيد وعبد الله ثم خلت بلبابة فقالت لها : « لقد تمت لنا الحيلة فى قتل هذين المغرورين فانهما مقتولان لا محالة . وبقى علينا أن نعلم من هو المتآمر على قتل على ، فاذا عرفناه شجعناه على قتله وساعدناه »

فضحكت لبابة وقالت : « انه لأمر سهل ، فان عبدك ريحان ماهر داهية أخذ عن سيدته ، ولا نظنه الا عائدا الينا بالخبر اليقين ، وأما تحريض المتآمر على القتل فهو اسهل ، ولاسيما اذا رأى هذا الوجه الجميل فيفتتن به لا محالة ، فما عليك حينئذ الا أن تعديه بالزواج وتجعلى قتل على مهرا لك فما قولك؟»

فقالت قطام : « بورك فيك يا خالة ، اما وعده بالزواج فأمر سهل على . ولا نظننا نحتاج فى البحث عن ذلك الرجل الى مشقة فانه اذا دنا الميعاد المضروب لابد قادم الى الكوفة ، واذا جاءها فلا بد من أن يطلع أحدا من أهلى على عزمه لعلمه اننا على دعوته . فاذا عرفناه هان على كل عسير »

ولم يهل شهر رمضان حتى تحدث أهل الكوفة بتوقع حادث فظيع يخشى منه على حياة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وكان الناس يتداولون الخبر همسا ولا يعيرونه اهتماما لعدم نهوض الدليل من شاهد أو عارف بالقاتل المنتظر ، فضلا عن علم العقلاء أن أمثال تلك الاشاعات تروج فى مثل ما كان فيه الامام على يومئذ . ولم يفت الامام وحاشيته شيء من تلك الاشاعة ، ولكنهم لم يعبأوا بها وأخذها أهله وأصحابه على أنها اشاعات ينشرها ذوو الأغراض . هذا مع العلم انك قلما ترى حادثا فظيعا لم تتقدمه الاشاعات المنبئة بقرب وقوعه . ومهما يكن من الأمر فان أهل الكوفة كانوا يتحدثون ببلاء يتوقعون نزوله بأمير المؤمنين ولكن اكثرهم كانوا لا يكترثون

ومضت أيام من شهر رمضان ، فتلفتت قطام لتعرف من هو المتآمر على قتل الامام على لتنصره أو تحرضه . فلما اقترب نصف الشهر ولم يأت أحد ولا سمعت بأحد ظنت المتآمرين قد رجعوا عن عزمهم تهيبا وفرقا .

واستبطأت عودة عبدها ريحان ، وكانت فى انتظار قدومه لعلها تسمع منه شيئا عن المؤامرة ، ولكى تسأله عما آلت اليه حال سعيد وعبد الله . على أنها لم تكن تشك فى وقوعهما فى الفخ .

ولما كان الخامس عشر من رمضان وقطام فى بيتها ومعها لبابة سمعتا قرعا بالباب ، فنهضت لبابة فسمعت جمجمة جمل عرفت أنه جمل ريحان فأسرعت الى الباب ففتحته ودخل ريحان فقبل يدها وهو ما زال بلباس السفر ودخل توا الى غرفة سيدته . فلما رأته ابتسمت له ابتسامة عوضت عليه كل شقائه . فتقدم لتقبيل يدها وهو مشرق الوجه اشارة الى نجاح مسعاه . فقالت : « انى أقرأ آيات البشر على وجهك رغم سواده ، فاقصص على تفصيل ما قمت به من آيات الدهاء والمهارة »

فقال وهو ينفض الغبار عن لحيته ووجهه : « ركبت الى الفسطاط فوصلت اليها يوم الخميس قبل وصول سعيد وعبد الله بيوم ، فسرت توا الى الأمير عمرو بن العاص ، وقصصت عليه خبر القادمين وان فى الفسطاط جماعة من أنصار على يجتمعون فى عين شمس كل جمعة . فأمر رئيس شرطته أن يتأهب لمداهمتهم ، وخفت أن يهاجوا المكان قبل وصول سعيد وعبد الله ولكنهما وقعا فى الفخ ، فانهما ذهبا الى الجمعية وقبضت الشرطة عليهم جميعا ، ولكننى لم أر سعيدا فى جملة الأسرى »

فابتدرته قطام قائلة : « هل قبضوا على كثير من الأنصار ؟ »

قال : « قبضوا على نحو عشرين وعبد الله معهم »

قالت : « وسعيد ؟ »

قال : « لم أره ، واظنه تأخر عن الاجتماع فلم يشهده فنجا بنفسه »

قالت : « وماذا فعلوا بالأسرى ؟ »

قال : « ساقوهم الى النيل واماتوهم غرقا فى الليلة التى قبضوا عليهم فيها »

فاشرق وجه قطام ، ثم انقبض بغتة ولبابة تنظر اليها كأنها تلتذ بالتأمل فى ملامحها . فلما رأتها انقبضت همت بها وقالت : « ما بالك ، ما الذى كدرك ؟ »

قالت : « ان سعيدا ما زال حيا فأخاف أن يعرقل مساعينا »

قالت لبابة : « لا خوف منه لأنه كما تعلمين سلس القياد تنطلى عليه الحيلة بسهولة . واما عبد الله رفيقه فقد رايت فيه دهاء ومكرا فالحمد لله على نجاتنا منه »

قالت : « صدقت ولكن سر المؤامرة عند سعيد فاخاف ان يجىء ويطلع عليا عليها فيحتاط لنفسه فيذهب سعينا هباء منثورا »

فاطرقت لبابة برهة ثم التفتت الى ريحان وقالت : « هل عرفت الرجل المتآمر على قتل على ؟ »

قال : « علمت انه من بنى مراد واسمه عبد الرحمن بن ملجم »

فبغتت لبابة وصاحت : « ابن ملجم . . ؟ لقد هان الأمر »

قالت قطام : « وهل تعرفينه ؟ »

قالت : « أعرفه جيدا ، وهو جرىء لا يصلح لمثل هذا العمل أحد سواه، فاذا كان هو الرجل فقد نلنا المرام فانه مغرم بالحسان ويتفانى فى سبيل مرضاتهن » . ثم ادنت فمها من اذن قطام وقالت : « لا شك أنه اذا رآك وقع فى هواك» . ثم التفتت قطام الى ريحان وقالت : «هل رأيته قبل مجيئك؟ »

قال : « لا ولكننى سمعت أنه قدم الكوفة يوم وصولى الى الفسطاط . وقد كنت اظنه زاركم لأن حزبنا فى الفسطاط يعلمون كرهنا لعلى ، وسعينا فى اخراج الأمر من يده »

فقالت : « بالله سر الى عشيرتى وابحث عن الرجل وائتنى به ، وحاذر ان يدرك أنك قادم من قبلى »

وخرج ريحان فتبعته لبابة الى حديقة البيت فوقفت به فى ظل نخلة وهمست فى أذنه قائلة : « اذا لقيت الرجل فقل له ان خالتك لبابة هنا وهى تريد أن تراك لأمر ذى شأن ، واستعجله واذكرله انى مقيمة بمنزل سيدتك قطام ، واحتل فى حديثك لتفهمه ماعليه سيدتك من الحسن والجمال وانى قد امهد له للزواج بها . وانت فطن لبق تحسن تصريف الأمور » . فهرول ريحان ذاهبا

لبابة وابن ملجم

عادت لبابة الى قطام مسرورة مبتسمة تقول : « لا ريب أننا فزنا بمرامنا، وقلبي يحدثني بأن عليا سيقتل ويشفى غليلنا منه على أهون سبيل »

أما قطام فظلت صامتة مقطبة الحاجبين كأنها تفكر فى أمر ذى بال. فسألتها لبابة : « ما بالك يا قطام ما الذى حدث فأوجب هذا الاهتمام ؟ »

قالت : « انى خائفة يا خالة »

قالت : « ما الذى يخيفك ؟ »

قالت : « انى خائفة من سعيد فقد قال لنا ريحان انهم لم يقبضوا عليه فى الفسطاط ، ولا يبعد أنه عرف اسم ابن ملجم والميعاد المضروب لتنفيذ المؤامرة ، فيأتى بالخبر الى على ، وتذهب مساعينا وجهدنا عبثا »

فقالت لبابة : « وما الراى يا بنية ؟ »

فقالت : « لا بد لنا من تدبير الأمر بالحكمة وتدارك الأمر قبل وقوعه »

قالت : « فما الراى ؟ »

قالت : « أرى أن نسعى فى منعه من الذهاب الى على . فقد يتراءى له أن يسير اليه حال وصوله الى الكوفة »

قالت : « هذا سهل فاننا نبعث ريحان لينتظره فى مكان خارج الكوفة لا بد له من المرور فيه ، فاما أن يؤخره عن دخول الكوفة واما أن يدعوه الينا بحجة اشتياقك الشديد اليه ! ولا أشك انه اذا سمع بشوقك نسى كل شىء وطار اليك . ومتى جاءنا استبقيناه اما طائعا أو مكرها . ما قولك ؟ »

قالت : « أرى رأيك ، ولكننا الآن فى الخامس عشر من رمضان ولم يبق الا يوم واحد على الموعد المضروب ، فلا بد من المبادرة بارسال من يوقفه خارج الكوفة او يستقدمه الينا ، وريحان خرج فى مهمة الى أهلى وقد يبطىء »

قالت لبابة : « دعى هذا الى . ها أنذا ذاهبة فى اثر ريحان فأبعثه الى خارج الكوفة ، وأبحث عن ابن ملجم بنفسى وذلك سهل على لأنى أعرفه » . قالت ذلك وتبرقعت وتناولت عكازها وخرجت تعدو عدو الشباب

وخلت قطام الى نفسها وتأملت ما هى فيه من الصعاب وراجعت فى مخيلتها ما دبرته من الحيل فى سبيل قتل الامام على ، فرأت أنها احسنت

بارسال ريحان ، فانه اذا نجح فى تأخير سعيد ، ونجحت لبابة فى استقدام ابن ملجم ، وفازت هى باغرائه وتشجيعه ، نالت بغيتهـا وانتقمت لأبيهـا وأخيها . ولما تصورت وقوع ذلك ارتاحت نفسها ، وهون عليها حبها للانتقام وما جبلت عليه من المكر ، تأنيب الضمير على جريمتها . ثم اعملت ذهنهـا فوجدت أنه ينقصها احتياط واحد لا بد من تداركه . وذلك ان سعيدا قد لا يلتقى بريحان لاختلاف فى الطريق أو ربما التقى به ولم يصغ الى قوله وقصد فورا الى الامام على فأطلعه على سر المؤامرة . فلما تصورت ذلك خفق قلبها واضطربت ونهضت وجعلت تمشى فى غرفتها ذهابا وايابا وتخرج منها الى الغرفة الاخرى وهى تترقب عودة لبابة ليتداولا فى الأمر معا وندمت على ارسالها قبل أن تفطن لهذا الأمر

وزاد قلقها فخرجت الى حديقة النخيل وكانت الشمس قد تكبدت السماء وانحسرت الظلال واتفق وقوع شهر رمضان فى تلك السنة (٤٠ هـ) فى ابان الشتاء لأنه يبدأ فى العاشر من يناير وكان اليوم صحوا يحسن الخروج فيه الى الخلاء فى ساعة الظهر للاستدفاء بأشعة الشمس. فمشت بين النخيل مبتعدة عن السور الذى يلى الطريق الى ما يلى البحيرة وهى لا تكترث لما حولها من صرير أو تغريد أو نقيق فقد انصرفت الى ادراك غرضها

□

قضت فى الحديقة ساعة وحدها حتى ملت الشمس وحرارتها وهمت بأن تدخل المنزل ، وفيما هى عائدة سمعت اناسا يتكلمون عن بعد ، فوقفت على أرومة نخلة كانوا قد قطعوها للوقود منذ عامين والتفتت فرأت شبحين لم تلبث أن عرفت انهما لبـابة وعبد الرحمن بن ملجم . فانصرفت الى اتقـان الحيلة فدخلت البيت على عجل وكانت قد رأت لبابة تكلم عبد الرحمن وتشير اليها باصبعها . وعمدت الى النقاب فأرسلته على راسها وجلست على وسادة تعودت الجلوس عليها اذا استقبلت الزائرين من الغرباء . ولبثت صامتـة تنتظر دخول لبابة ، وما لبثت أن سمعت صوت ضحكتها قبل سماع خفق نعالها . وبعد قليل دخلت لبابة وحدها فاستقبلتها قطام استقبال المشتاق ودعتها الى الجلوس

فقالت : « لا اجلس قبل أن ادعو رفيقا لى صحبته لزيارتك »

فقالت : « أهلا بك وبرفاقك أجمعين . فليدخل »

فصاحت لبابة للحال : « أدخل يا عبد الرحمن »

وما أتمت كلامها حتى وقف فى الباب رجل طويل القامة نحيف البدن ، خفيف اللحية اشمطها ، براق العينين يكاد الشرر يتطاير منهما ، وعليـه

العباءة والقفطان والعمامة وآثار السفر لا تزال بادية على نواتيء وجهه ، وبخاصة انفه فقد كان شديد الاحمرار . فخلع عبد الرحمن نعله خارج الباب وحيى ودخل . فردت قطام التحية وهي تهم بالوقوف واشارت اليـه ان يجلس ، فجلس الأربعاء مستعرضا سيفه على فخذيه ، فبدأته قطام بالكلام قائلة : « الى من ينتسب ضيفنا ؟ »

قال : « الى بنى مراد »

قالت : « والنعم والبركة »

فقالت لبابة : « انه عبد الرحمن بن ملجم ، من القراء المشهورين ، قرا على معاذ بن جبل . ولعلك سمعت به »

قالت : « انت تعلمين حالى يا خالة ، بل انت ادرى منى بما هو شغلى الشاغل من الأحزان والمصائب ، فلم يبق لى عقل اذكر به شيئا غير مقتل اخي وابى . والسعى فى الانتقام من أهل العدوان ».. قالت ذلك واجهشت بالبكاء

وكان عبد الرحمن ينظر اليها من طرف خفى ، فافتتن بها ايما افتتان ، وكان قد سمع بجمالها فود أن يحوزها . ولما لقيته لبابة لم تذكر له شيئا مما عرفوه عن عزمه ، ولكنها قالت له : « علمت بمجيئك الكوفة ، واعلم انك تحب الحسان ، وعندي واحدة منهن ليس أجمل منها فى العراق » . فجا ولما رآها تحقق ما سمعه فشغف بها ، ومن عجيب امر هـذا الرجل انه مع عظم ما ندب نفسه له من قتل امير المؤمنين وقرب اليوم الموقوت لم يشغله ذلك عن مغازلة الحسان. فلما سمع كلام قطام ورأى بكاءها قال : « وما الذى يحزن مولاتى ؟ الا استطيع تفريج كربتها ؟ »

فقالت لبابة : « لا يخفى عليك ما اصابها على اثر وقعة النهروان ، فقد قتل فيها ابوها وأخوها رحمهما الله ، وهى لا تفتأ تذكر تلك المصيبة وذلك اليوم وتبكى ذينك الفقيدين ، ولكننى أريد أن اشغلها عن هـذه الأحزان بكفء لها »

ففهم عبد الرحمن تلميحها فقال : « انى والله اكون اسعد الناس حظا اذا اذا تم لى ذلك الذى أتمناه »

فتجاهلت قطام وقالت : « وما الذى تتمناه يا سيدى ؟ »

قال : « لقد جئتك خاطبا وانت فى أحزانك عساى ان استطيع تفريجها ، فاطلبى منى ما تشائين مما تقر به عينالئ »

فتنهدت قطام ثم قالت : « انى لأعجب من تسرعك فى الطلب ونحن لم نلتق قبل الآن »

فقطعت لبابة كلامها قائلة : « نعم انكما لم تلتقيا قبل الآن . ولكن لبابة

تعرفكما جيدا ، واذا اذنت مولاتى بكلمة فاقول انكما انما خلقتما لتعيشا معا»
فسكتت قطام فقال ابن ملجم : « ومع ذلك فاطلبى ما تشائين يكن لك »
فظلت قطام ساكنة برهة تتظاهر بالحياء والتردد اتماما للحيلة. ثم التفتت الى لبابة كأنها تقول لها : « انى أستحيى أن أقول » . فقالت لبابة : « أنا أقول . اجعل مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبدا وقينة »

ولم تتم لبابة قولها حتى صاحت قطام : « لا . لا يرضينى ذلك ولا مطمع لى فى المال كما تعلمين »

فقال عبد الرحمن : « اطلبى ما تريدين »

فتظاهرت بالتمنع وصبرت هنيهة كأنها تستخف بما اقترحه عليها من الطلب ثم قالت : « أن مهرى هو قتل على بن أبى طالب قاتل أبى وأخى »

فابتسم عبد الرحمن ، ونظر اليها ويده على قبضة سيفه وقال : « ان ذلك وما قالته هذه الخالة سيكونان لك . ثلاثة آلاف دينار وقتل ابن أبى طالب والعبد والقينة . فان مثلك لا يعز فى سبيل نيلها مهر . واعلمى أنى انما جئت الكوفة لهذه الغاية . انظرى الى هـذا السيف (وجرده فلمع نصله لمعانا شديدا) انى اشتريته بالف وسممته بالف لأقتـل عليا بن ابى طالب »

فابتسمت وقالت : « ولكننى ارجوأن يكون ذلكعاجلا لئلاتفوت الفرصة »

فقال : « ان موعدنا قريب لم يبق منه الا يوم وليلة سأقتله فى صباح يوم ١٧ من هذا الشهر أى بعد غد ، فاطمئنى »

قالت : « وكيف عينت اليوم والساعة ، الا يستحسن أن يكون ذلك غدا »

قال : « أن لذلك سببا سأذكره لك فيما بعد ، فاننى مقيـد بهذا الموعد فى انفاذ مهمتى »

فسكتت قطام وهى تتجاهل ما علمته من امر المؤامرة

وكانت لبابة عالمة بغياب ريحان ، ولا بد من زاد يتناوله الضيف ، فدعت عبدها فى أثناء قدومها فجاء وأعد لهم طعاما تناولوه

وما صدقت قطام أن خلت بلبابة لحظة حتى أشارت اليها أنها تحب الانفراد بها لأمر ذى بال ، فاحتالت هذه على عبد الرحمن حتى استأذن فى الخروج الى السوق فى حاجة له ، وخلت قطام بلبابة

▭

وكانت لبابة قد أدركت ريحان في الطريق قبل عثوره على عبـد الرحمن ، فأمرته أن يسرع ليلقى سعيدا خارج الكوفة وزودته بنصائحها لتضمن نجاح مهمته . فسار أولا الى ساحة كبيرة فى وسط الكوفة تجتمع فيها القوافل . من كل حدب وصوب . ولابد للقادم الى الكوفة من المرور بها أو النزول فيها

وسمع عن بعد هدير الجمال وصهيل الخيل فلما وصل راى الساحة غاصة بالدواب وبينها الناس فى هرج بين راكب وراجل ، وراى الاحمال ملقاة هنا وهناك ، فجعل يتفرس فى الوجوه لعله يرى سعيدا أو أحدا من خدمه ، فلم ير احدا . وذهب الى بيت سعيد يسأل عنه فقيل له انه لم يأت بعد فخرج الى الطريق خارج الكوفة وهو ينظر الى الافق لعله يري هجانا أو فارسا . فمشى ساعتين ولم يراحدا حتى وصل الى شجرة كبيرة يستظل بها المسافرون للراحة قبل دخولهم المدينة ولابد لمن كان قادما من الشام أو مصر من المرور بها . فجلس هناك وعيناه تحدقان فى الافق وذهنه يعمل لفتق حيلة تنطلى على سعيد فيستبقيه أو يسير به الى بيت قطام . فغربت الشمس ولم يأت أحد ، وكان القمر بدرا فلم تكد تغرب الشمس حتى طلع البدر وانعكست الظلال من الشرق نحو الغرب . فاتكأ على حجر وعيناه ترقبان

وقضى أوائل الليل على هذه الحال ، وكلما راى شبحا ظنه سعيدا ، فاشتد به البرد وهو يصبر ويتجلد . وحدثته نفسه أن يرجع فخاف أن يجيىء سعيد فى غيابه فيذهب سعيه هباء منثورا ، فالتف بثوبه حتى اذا انتصف الليل غلبه النعاس وهو يتجلد ولكنه لم يقو على سلطان النوم فأغمضت عيناه ، ولكنه لم ينم طويلا حتى استيقظ بغتة أسفا على رقاده خشية ان يكون سعيا قد مر ولم يره . فوقف يفكر فى الامر ، حتى دنا الصباح فلم يأت أحد فخيل اليه أن سعيدا مر فى أثناء نومه ، فعاد الى الكوفة بأسرع من لمح البصر يبحث فى ساحتها وسار الى بيت سعيد فتحقق انه لم يأت بعد فرجع الى الشجرة وقضى معظم النهار تحتها أو حولها كأنه على جمر الغضا . وهو مع ذلك صابر لايتذمر ولايتضجر حتى غابت الشمس وظلع القمر . فقال فى نفسه : « لم يبق الا هذه الليلة فاذا لم يصل الرجل لم يبق ثمة حاجة الى بقائى اذ يكون قد نفذ السهم وقتل على » . وتمنى الا يأتى سعيد فيتخلص هو من الاحتيال عليه لأخذه الى قطام ، وقد قرب أجل الموعد المضروب

ولما دنا العشاء راى جملين قادمين عن بعد وعليهما راكبان فاختلج قلبه واصطكت ركبتاه وزاده البرد ارتعاشا . فلما اقتربا وقف وتقدم نحوهما فاذا هما سعيد وبلال عبد خولة ، وكانا ملثمين فعرف سعيدا من قيافته واما بلال فلم يعرفه

وكان سعيد قد قضى مسافة الطريق فى قلق على الامام ، فما كاد يطل على الكوفة حتى قرر أن يسير توا الى منزل على . فلما وصل الى الشجرة ترجل وترجل عبده ليستريحا قليلا ثم يستأنفان المسير . فاستقبله ريحان وسلم عليه ، فلما رآه سعيد استأنس به ورد السلام وقال له : « ما الذى جاء بك يا ريحان ؟ »

قال : « ان سيدتى مضطربة البال لطول غيابك » . واشار اليه أن يدنو

منه ليبث اليه ما اؤتمن عليه من السر . فدنا منه على انفراد وشغل بلال بامر الجملين

فقال ريحان : « ان سيدتي قطام تقرئك السلام وتذكرلك انك أطلت الغيبة عليها أنت وسيدى عبد الله »

فتنهد سعيد وقال : « لاتذكر عبد الله فقد تركناه في مصر » . قال ذلك وهو لايريد ان يطارح العبد الحديث فيمثل هذه الشؤون أنفة وترفعا ، فسكت ريحان وهو يعلم ان عبد الله اغرق في جملة من اغرقهم عمرو بن العاص في النيل ، ثم قال : « وماذا اقول الآن لسيدتي اقادم أنت للمبيت عندنا الليلة ، فانها قد أعدت لك كل شيء »

فلبث سعيد برهة تتنازعه عوامل الشوق الى قطام وبواعث العجلة الى على ، فرأى أن ميعاد القتل قد دنا فاذا بات الليلة في منزل قطام فانه قد يتمتع برؤيتها ويشنف سماعه بحلو حديثها ولكنه يصبح في الغد وقد قتل على ، لأن المجرم لايتأخر عن فعلته الى ما بعد صباح السابع عشر من الشهر . ثم بدا له أن يزورها للتو زيارة قصيرة ثم ينطلق من بعدها الى على ، والتفت الى بلال فرآه مهتما باعداد العشاء فناداه باسمه فأقبل . فلما سمع ريحان اسم بلال اختلج قلبه في صدره ، وتفرس فيه فعرف انه عبد خولة ، وكان قد لقيه في الفسطاط وباح له بمهمته ولم يكن يخطر له يومئذ انه سيأتى مع سعيد . فارتبك في امره وحاول اخفاء نفسه لئلا يراه بلال فيعرفه . أما بلال فلما دعاه سعيد أسرع الى ما بين يديه فقال سعيد : « الا ترى أن نسير توا الى الكوفة ؟ » قال بلال : « الامر لمولاى ولكننى أعددت لك الطعام . الا ترى أن تتناول منه شيئا ونستريح هنيهة ثم نذهب الى حيث نشاء »

قال : « ولكن بعض أهلى بعثوا يدعوننى الى العشاء »

والتفت بلال الى ناحية وقوف ريحان فرآه قد تقهقر الى جذع الشجرة يستتر بظلها فلم يره ، وكان سعيد في أثناء الطريق قد استأنس ببلال واطلعه على خبر المؤامرة . فاغتنم بلال فرصة انفراده به وقال : « الا ترى يا مولاى ان نتم مهمتنا التى جئنا لها من الفسطاط قبل كل شيء فانى أخاف أن يكون ذهابنا الى اهلك سببا في التأخير ، وهم ربما لايعلمون الغرض الذى يدعوننا الى الاسراع ، وربما حدث لك بعد العشاء ما يعيقك . أما اذا أنفذنا مهمتنا وأطلعنا الامام على ماخباه له أهل البغى فاننا نمضى بعدئذ حيث تشاء ، هذا ما أراه والامر لك . على انى قد أعددت لك الطعام الآن فاذا شئت أكلت ثم فعلت ما يتراءى لك »

فارتاح سعيد لهذا الرأى ، ولكنه أراد ان يخبر بلالا باطلاع ريحان على سر الامر فقال له : « ولا اخفى عليك ان هذا الهمام (وأشار الى ريحان) من جملة الساعين فيما نحن فيه »

فقال بلال : « اذن فهو يعذرنا اذا رأى اننا نؤثر أن نذهب اولا الى منزل الامام . هلم الآن الى طعامك وأنا اهيىء الجملين معه ثم نذهب جميعا بعد انتهائك من الطعام »

▭

سار بلال الى حيث جلس ريحان وراء الشجرة . وكان هذا يحاول أن يختبىء ، وحدثته نفسه بأن يرجع الى الكوفة لئلا يراه بلال فينكشف امره . ولكنه ما لبث ان راى بلالا قد دنا منه وكلمه فأجابه بصوت منخفض وهو يتشاغل باصلاح نعليه وشملته لايرفع نظره اليه. فاستغرب بلال ذلك فتقدم اليه ، قال : « تعال يا اخى تقعد ريثما يتناول مولاى طعامه ثم نسير معا »

فسكت ريحان ولم يجب ، وتظاهر بأنه اضاع عصاه واخذ فى البحث عنها وبلال يتبعه ويعجب لما يبدو منه . فلما بعد ريحان عن ظل الشجرة بانت سحنته فتذكر بلال انه يعرفه ، ثم فطن الى انه هو الذى أسر اليه خبر مهمته فى الفسطاط . فأدرك ان فى الامر خديعة ، ولا سيما لما رآه يحاول اخفاء وجهه . فتقدم اليه وأمسكه بيده وقال : « تعال ياصاحبى نقعد هنا الى أن ينهض مولانا فنسير معا » . فجذب ريحان يده من يده مغضبا ، فتبعه بلال وهو يقول : « يظهر انك لم تعرفنى يا صاح الا تذكر أننا التقينا فى الفسطاط »

فصاح به ريحان : « وأى فسطاط ؟. انى لا اعرف الفسطاط ولا اعرفك؛ وليتنى لم اعرفك فقد اضعت عصاى بسببك »

فسمع سعيد صياحه وكان قد جلس الى الطعام ، فنظر اليهما من بعيد ، فرآهما يتحاوران فوقف ونادى عبد قطام قائلا: « لاتغضب يا ريحان ان بلالا على دعوتنا »

فسكت ريحان ، واضطر الى أن يجىء لئلا يثير الشبهة ، ولكنه بقى مصرا على انه لم يذهب الى مصر

فلما دنا من سعيد   له : « ما بالك تخاصم بلالا ؟ »

قال : « انى لا أخاصمه ، ولكننى اضعت عصاى ، وفيما أنا أبحث عنها جاءنى بحديث لا أعرف له أصلا »

قال سعيد : « وما ذلك يا بلال ؟ وما الذى قلته له ؟ »

قال : « لم أقل له شيئا ، ولكننى تذكرت انى رأيته فى الفسطاط منذ بضعة عشر يوما ، فأنكر وتنصل »

فقال سعيد : « يحق له أن ينكر عليك ذلك لأنه لم يبرح الكوفة منذ اشهر »

فأعاد بلال النظر الى ريحان وتفرس فى وجهه وقال : « بل أنا على يقين مما

اقول ، وقد لقيته هناك غير مرة وقد يعذر على انكاره ، لأن وجوده هناك عاد بشر العواقب على سيدى ورفيقه »

فبغت سعيد وكانت اللقمة فى فمه فلم يعد يستطيع ازدرادها ، وكاد يغص بريقه ووقف للحال وقال : « ماذا تقول يابلال ؟ اظنك تخلط فى القول . ان ريحان عبد قطام بنت شحنة ، وقد تركته هنا يوم سفرى وانا واثق بانه لم يبرح الكوفة ، فلعلك رايت فى الفسطاط عبدا آخر يشبهه »

فلما سمع ريحان اعتذار سعيد عنه اطمأن وقال بهدوء : « يلوح لى انه اخطأ ، لان البشر يتشابهون ، ولكنه سامحه الله جاءنى مغضبا وانا ابحث عن عصاى فاغاظنى فأسمعته كلاما مؤلما وها انذا الآن اطلب منه غفران ما فرط منى » . والتفت الى بلال وابتسم حتى يجيز عليه حيلته

اما بلال فكان فى اثناء ذلك يتفرس فى ريحان فلا يزداد إلا اعتقادا بانه هو الرجل الذى قابله فى الفسطاط وحدث ان نادته سيدته خولة وهو يكلمه فذهب اليها وقص عليها خبره كما مر ، فلما آنس منه ذلك اللين ظل يتفرس فيه وهو صامت . فلما اتم ريحان كلامه قال له بلال : « ربما كنت مخطئا فى ظنى ولكنى اسألك سؤالا أرجو أن تجيبنى عليه »

قال : « قل ما بدالك »

قال : « الا تذكر انك رايت وجهى ؟ »

فتفرس فيه ريحان وهو يظنه يقول ذلك بسذاجة ، ثم قال : « لا يا أخى ، لا اذكر انى رأيتك قبل الآن »

فقال : « يا للعجب ولكننى واثق بانى لقيتك وكلمتك ، فرايت هذا الوجه وسمعت هذا الصوت . فالظاهر انك زرت الفسطاط قبل اليوم »

قال : « نعم انى صرت اليها منذ بضعة أعوام »

فضحك بلال وقال : « ولكنك قلت الآن انك لاتعرفها »

فارتبك ريحان وعمد الى المغالطة فقال : « دعنا من هذه الاوهام ولاتشغلنا بما لاطائل تحته »

وكان سعيد فى أثناء ذلك يسمع كلامهما مصدقا ما يسمع

أما بلال فخاف أن يؤدى سكوته الى ذهاب سعيد مع ريحان . فقال لريحان : « اذا كان الحال كما تقول فعليك أن تساعدنا فى انفاذ المهمة التى جئنا من أجلها . دعنا نذهب الى منزل الامام الآن »

قال : « انى أشد رغبة منك فى هذا ، ولكن الليل طويل ، ويحسن أن يذهب مولاى معى الى سيدتى قطام لتراه ثم يذهب بعد ذلك حيث يشاء »

قال : « فليذهب هو معك وأذهب أنا الى منزل الامام أقوم مقامه »

فضاق ريحان به ذرعا وظهرت البغتة على وجهه فلم ير له مخرجا من المأزق

غير التظاهر بالغضب فقال : « ولماذا هذا اللف والدوران ؟ هل بلغ بك الامر الى اساءة الظن بنا ونحن أولى منك بهذا الامر ؟ »

فتحقق بلال حينئذ أن ظنه فى محله فقال : « نعم انى أسيء الظن وبسيدتك ايضا »

فخاف ريحان أن يفضى الامر الى افتضـــاح حاله فتظاهر بالغضب وقال لسعيد : « اني لأعجب من قحة هذا الاحق ومن سكوت مولاى عليه ، وها أنذا اتركهما فافعلا ما تشاءان »

قال ذلك واخذ يعدو نحو الكوفة ، وظل سعيـــد وبلال صامتين كأن على راسيهما الطير

□

مضى ريحان وهما ينظران اليه لايفوهان بكلمة . فلما توارى قال سعيد : « ما الذى اراه يا بلال ؟ انى احسب نفسي فى حلم ؟ ما الذى تقوله عن هـــذا العبد ، أواثق انت انك رأيته فى الفسطاط ؟ »

قال : « نعم يامولاى ، وقد زادنى ايمانا بذلك تناقض أقواله ، وغضبه بعد ما اقترحته عليك »

قال سعيد : « ما الذى يدعوه الى انكار ذهابه الى الفسطاط ؟ »

قال : « يدعوه الى هذا ما ارتكبه من الخيـــانة هناك . تبـــا له من نذل يا ليتنى قضيت عليه ، قبل فراره . انه وشى بكمارالى عمرو بن العاص »

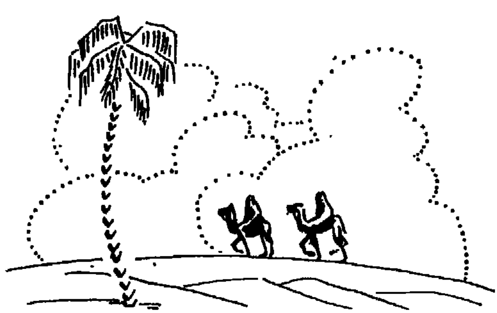
فبغت سعيد وبدأت الغشاوة تنحسر عن عينيه ، وتذكر ما قصـــته عليه خولة من حديث عبدها مع عبد آخر وشى بهما الى ابن العاص . وانه استغرب يومئذ أن يصل خبر قدومهما الى الفسطاط وهما انما قدما اليها سرا لا يعلم بهما أحد غير قطام ولبابة وهذا العبد . فوضح له ان ريحان لاياتى الفسطاط الا بايعاز من سيدته ، وتذكر ما كان يراه فى ابن عمه عبد الله من الشك فى قول قطام ، فندم على استسلامه لها وعض على سبابته ، وظل واقفا لايبدى حراكا ، وبلال واقف بين يديه صامتـــا . ثم التفت الى بلال وقال : « الا بارك الله فى خولة ، انها والله ملاك بعثه الله من السماء لكشف تلك الخديعة . ولكن وا أسفاه ، فقـــد نفذت حيلة قطـــام فى عبد الله فمات غريقـــا . على انها لن تنفـــذ فى الامام على بعد أن افتضح أمرها قبل دنو الاجل المضروب والحمد لله » . ثم صمت وتذكر حبه القديم لقطام وما أكنه لها من الاخلاص ، وما بذلته هى من الخداع ، فعظم الامر عليه وأمست عواطفه تتراوح بين ما انغرس فى قلبه من الحب وبين ما انكشف له من المكر السيء ، فلم يملك نفسه عن البكاء . وخجل أن يذرف الدمع أمام بلال ، فأومأ اليه أن يهيىء الجمـــال ، وادار وجهه الى

الخلاء ومشي واطلق لنفسه عنان البكاء . ولاسيما وقد تمثل له ما اصاب ابن عمه عبد الله من البلاء بسببه ، فجعل يندبه ويندب سوء حظه ويقول :

« تبا لك ياقطام . أصحيح انك بعثت عبدك للوشاية بنا الى ابن العاص ليقتلنا ؟ أين عهودك وأين وعودك ؟ . اين ما سمعته منك من التوبة عن قتل الامام علي ؟ . وا أسفاه عليك يا أخي عبد الله ، انك ذهبت ضحية غفلتي ودهاء هذه المرأة . آه ياقطام ! . . هل يخلق الله قلوبا تقسو الى هذا الحد ؟ (قتل الانسان ما أكفره) . اتسمحين بقتل محب تفانى فى سبيل هواك ؟ وتقتلين بريئا حملته غيرته على السعي فى انقاذ أمير المؤمنين ؟ . وتسعين بعد ذلك الى قتل امير المؤمنين وانت تنظرين .. آه لو كان أمامي متسع من الوقت لأسرعت الى الانتقام منك قبل الذهاب الى الامام »

ثم وقف فجأة وانتبه كأنه أفاق من رقاد ، ونظر الى ما حوله فاذا هو فى ليلة مقمرة صفا هواؤها ورق نسيمها ، فجعل يعيد فى ذهنه ما مر به من الاهوال ، وتذكر حبه قطام فغلب عليه طيب عنصره فقال فى نفسه : « لعل قطام بريئة ، وربما كان ريحان صادقا وبلال مخطئا » . فسرى عنه بعض الشيء ، ثم أدرك انه انما يخادع نفسه فى التماس العذر لها ، وقد تثبت عليها الجريمة . ثم التفت فرأى بلالا قد أعد الجملين وهم بالقدوم اليه فمسح دموعه وتقدم اليه وهو يقول فى نفسه : « لقد نفذت حيلتها فى أخي عبد الله ، ولكنها لن تنفذ فى الامام علي . ها أنذا ذاهب الآن الى بيته وسأستعين به على قتلها وقتل العجوز المحتالة وذلك العبد الشرير »

وركب جمله ، وركب بلال فى أثره ، وسارا يقصدان منزل الامام علي



مقتل الإمام علي واحراق قاتله

كان منزل الامام على بجانب المسجد ، وبينهما باب السدة يدخل منه الامام للصلاة . وكان للمنزل دار واسعة فيها المقاعد والمجالس لمن يفد عليه من الولاة واهل الامصار . وبجانب المنزل ساحة واسعة فيها مرابط للخيل ومواقف للجماعات لاتبرح غاصة بجماهير النـاس من دعاة الامام ، وكلهم متفانون فى نصرته معترفون بامامته لايرون أحدا اولى بها منـه . وكان اهل العراق وغيرهم قد أجمعوا تلك السنة على نصرته فبايعه منهم اربعون الفاعلى الموت . ولعله كان ينتظر اتمام صيام رمضان ليحمل على معاوية بذلك الجند العظيم ، غير آبه بمثل ما مر به من حيلة « صفين » وغيرها بعد أن رأى ماقا ادى اليه ذلك من تأييد سلطان معاوية

وكان الداخل الى مجلس الامام حينذاك يرى رؤساء القبائل يترددون علي ولا حديث لهم الا ماكان من اجتماع كلمتهم وما يتوقعونه من النصر ويرجونه من احقاق الحق وكبح جماح الطامحين الى الخلافة من غير أهل البيت

ذلك كان شأن الكوفة فى شهر الصيام المبارك . اما علي فلم يكن يشـغله عن فروض الصوم والصلاة شاغل ، فاذا دنت الساعة وأذن المؤذنون تهافت الناس فى صحن المسجد الى سماع ماعهدوا فى كلامه من البلاغة وشدة الغيرة على الاسلام والمسلمين . فاذا صعد المنبر رأيت النـاس سـكوتا كأن على رؤوسهم الطير اعجابا بما يسمعونه من درر الفاظه وبديع حكمه وبليغ آياته ، وهم يعجبون لما قام فى أنفس المعارضين ممن تخلفوا عن بيعته ، وبخاصـة الخوارج الذين اختلقوا لمعاداته اسبابا ما أنزل الله بها من سلطان

وكان اذا فرغ من صـلاة المغرب ذهب الى داره ومعه جمـاعة من الامراء يتقدمهم أولاده وسائر أهله ، فيجلسون الى الاسمطة للافطار، والقراء يتلون القرآن فى جوانب الدار ، والكل يسبحون ويهللون حتى يخيل اليك انهم فى يوم الحساب ، وما فيهم من يخاف عقـابا لما يعتقدونه من صـدق دعوتهم وقيامهم بالحق المبين

وكان الامام اذا فرغ الناس من الافطار وجلسـوا للاحاديث أقلهم كلاما . وربما مكث ساعة أو بضع ساعات لاينبس ببنت شفة كأنه يفكر فى أمر ذى بال ، وربما كان تفكيره فيما يخشاه من سـفك الدماء اذا حمل برجـاله على

الشام ، ونفوس الناس وديعة عنده يضن بها أن تذهب ضياعا ولا يضن بها أصحابها فى سبيل نصرته

كان ذلك شأنه في أواسط رمضان ، وعلى الاخص فى ليلة السابع عشرمنه ، وهى الليلة التى بات فيها ابن‌ملجم يترقب انبلاج الصبح ليقوم بفعلته للفتك بابن أبى طالب . وفى تلك الليلة أسرع سعيد وعبده الى دار الامام لينبئاه بعزم ذلك الرجل

وما ظنك بابن ملجم فى تلك الليلة . . هل تظنه بات رابط الجأش مطمئن القلب ؟ . وهل عرف الكرى جفناه ؟ . لا نخاله قضى ليلته الا قلقا مضطربا لهول ماعول عليه من الامر الجسيم . وأى شىء أفظع من ان يسفك دما بريئا ، دم رجل جمع الى كرامة الخلافة شرف النسب ، وأحرز من العلم ما لم يحرزه احد من المسلمين فى ذلك العهد ؟ . أليس هو ابن عم الرسول وخليفته وصهره ؟ . أليس هو ذلك العالم التقى العادل المخلص الغيور على الاسلام والمسلمين ؟ لا نخال ابن ملجم قضى ليلته الا على شوك القتاد لم يغمض له جفن وقد طال ليله . وربما حدثته نفسه بالرجوع عن عزمه فيغلب عليه عهده لرفقائه ووعده لخطيبته قطام بنت شحنة ، ولا سيما بعد أن أشركت معه فى الجرم ابن عم لها يقال له « وردان » حرضته على الاخذ بناصره . ولقى هو رجلا من « أشجع » يقال له « شبيب » استحثه على ركوب ذلك المركب الخشن معه . فتواعد الثلاثة على العمل معا فى فجر الغد . فهل تظنه بعد تلك العهود والمواثيق يصغى لنداء ضميره ان كان له ضمير ؟

على انك لو سبرت غور قلبه فى تلك الليلة وهو ينقلب على فراشه وسيفه المسموم الى جنبه ، لرأيته يناجى نفسه ويدفع تبكيت ضميره بحجة أنه عمد الى ذلك دفعا لفتنة كان سببها تنازع على ومعاوية وعمرو على السلطة ، والفتنة شر من القتل

وكأن نفس الامام على حدثته فى هذا الاوان بخطر يتوقعه على حياته وكان مذ أهل رمضان يتعشى ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند جعفر ، لايزيد على ثلاث لقمات ، ثم يقول : « أحب أن يأتينى أمر الله وأنا خميص » . وأما فى تلك الليلة فانهم تعشوا جميعا فى منزل الامام وهو جالس لا يأكل الا قليلا وأولاده بين يديه ينظرون اليه ويعجبون لحاله

وكان حاجبه « قنبر » رجلا كهلا من أهل الحبشة اذا نام الامام بات هو عند بابه ، وكان فى تلك الليلة أشد الجميع قلقا لم يتناول الافطار ولا هدأ له بال . أكل الناس وهو جالس القرفصاء عند الباب وعيناه شاخصتان الى

الفضاء يتوقع قدوم قادم وهو لايكلم احدا ولا انتبه احد لحاله ، ولو سأله احدهم عن علة قلقه لباح له بما اطلععليه من الاسرار التيظن انه كشفها وهم يبحثون عنها عبثا

وبعد صلاة العشاء ارفض المجلس ، فذهب كل الى منزله وناموا جميعا الا « قنبر » فانه لبث ساهرا وقد أخذ الاضطراب والقلق منه مأخذا عظيما . وما سهر للحراسة وهو يعلم ان الامام لايريد حرسا يحرسه . ولكنه جلس يفكر فى امر اذهب رقاده والقاه فى حيرة

□

أما سعيد وبلال فانهما دخلا الكوفة واسرعا الى دار الامام على وكان القمر بدرا أو حوالى البدر ، وقد تكبد السماء فأرسل أشعته على ابنية الكوفة ، وقد انقشعت الغيوم عن السماء على غير المعتاد فى ذلك الفصل . فلما دخلا الكوفة رأياها ساكنة هادئة لانقضاء ميقات السهر . وقد نام الناس وهم يتوقعون أذان السحر لينهضوا للسحور

سار سعيد وهو يستحث جمله وقلبه يرقص طربا لنجاح مهمته لاطلاعه على حيلة قطام قبل فوات الوقت . فلما دنا من المسجد ترجل وقال لبلال : « خذ الجمل وسر به الى ساحة الكوفة وامكث حتى آتيك »

فعمل بما امره به ، ومشى سعيد وركبتاه تصطكان من الاضطراب ، حتى اقبل على دار الامام فرأى السكون مخيما عليها ، فوقف يفكر كيف يدخل الدار وأهلها نيام ، فترددخشية أن يظن به السوء لقدومه فى ذلك الوقت، ولم يكن قد دخل الدار من قبل ولا لقى الامام عليا لقاء أهل الولاء . ولكنه لم ير بدا من الاقدام فمشى مترددا حتى دنا من باب الدار فرأى شبحا جالسا لم يعرفه ، ولكنه سر به لعلمه انه لايبعد ان يكونمن رجالعلى فيسهل رسالته ، على انه لم يكد يقبل عليه حتى وقف الشبح بغتة واعترضه سائلا : « من القادم ؟ »

فقال سعيد وهو يتلجلج : « انى رسول الى الامام على ، ومن أنت ؟ »

قال : « أنا قنبر حاجب الامام . ومن أنت ؟ »

قال : « انى سعيد الاموى ، أريد مقابلة الامام على »

فصاح قنبر قائلا : « أأنت سعيد ؟ تعال معى »

فسر سعيد لاجابة طلبه توا ، ومشى فى أثر قنبر حتى دخلا باب الدار وتوجها الى حجرة فيها مصباح ، فدخل قنبر أولا وايقظ رجلين نائمين هناك ، فلم يكد يدخل الحجرة حتى اطبق عليه الرجلان وقيدا يديه ورجليه

وهو واقف لايبدى حراكا من هول المفاجأة ، ولما عاد اليه وعيه قال لقنبر : « ماذا تصنعون بى ، وما هذه الوقاحة ؟ اين الامام على ؟ »

فأجابه قائلا : « لقد خاب فألك أيها الوغد اللئيم ، انك لن ترى عليا حتى ترى الموت قبله »

فكاد سعيد أن يجن ، ولم يدرك الباعث على عملهم فصاح بهم : « ما لكم تفعلون بى هكذا وقد جئتكم فى رسالة لأنقذ الامام عليا من القتل »

قال قنبر : « اخسأ ولا تكثر الكلام ، انك أموى وما أتيت الا لتغتال الامام، ولكن دون وصولك اليه خرط القتاد »

فقال : « وكيف أريد به شرا ، وقد جئت لانقاذه من القتل ؟ »

فأمسك قنبر بتلابيبه ويداه ترتعدان اضطرابا وقال له « أتظن حيلتك تنطلى علينا ؟ أما كفى بنى أمية ما فعلوه ، حتى جئتم تقتلون الامام فى عقر داره ؟ »

فبهت سعيد ، وجمد الدم فى عروقه وقال : « ما بالكم تسيئون بى الظن وأنتم لم تروا منى خيرا ولا شرا ، ألا تسمعون قولى ثم ترون رأيكم ؟ »

فقال قنبر : « وماذا تريدنا أن نسمع وأنت أموى أخذ عليك العهد لتقتلن الامام على مهرا لفتاة خطبتها »

فذهل سعيد وأراد أن يدفع عن نفسه فرأى قنبر قد أخرج من جيبه رقا دفعه اليه وجذبه بيده الى المصباح وقال له : « اقرأ أليس هذا خطك ؟ »

فلما وقع نظر سعيد على الرق رآه العهد الذى كتبه لقطام يوم خطبها ، فأيقن أن قطام هى التى أرسلت هذا الرق الى دار الامام لتوقع به . ورآها لفرط حيلتها قد محت اسمها عنه ووضعت اسم فتاة أخرى فصمت ولم يجب . فاتخذ قنبر سكوته حجة عليه فصاح : « أجب ، قل . أليس هذا خطك ؟ »

فارتبك سعيد فى أمره ولكنه ظل يؤمل أن ينجو اتكالا على النبأ الذى جاء به عن مكيدة ابن ملجم فأجاب : « هب انه خطى ولكننى جئتكم بخبر المكيدة التى كادها بعض الناس للامام . الا تمهلونى ريثما أخبركم »

فلم يصبر قنبر على سماع كلامه وصاح قائلا : « وأى مكيدة أعظم من ان تتعهد بقتل الامام . امكث هنا الليلة ، وسنرى فى أمرك غدا » . قال هذا وأوصد الباب دونه

فلما خلا سعيد الى نفسه فى تلك الحجرة ظن نفسه فى حلم ، وجعل يفكر فى أمره وفى دهاء قطام وكيف أوصلت هذه الورقة الى هذا الرجل لاتمام حيلتها : ولكنه لم يكترث لما عامله به قنبر ، وصمم على مقابلة الامام فى الصباح الباكر واطلاعه على سر الأمر

واما وصول الصك الى قنبر ، فانما سعت فيه لبابة المحتالة باشارة قطام بعد أن تداولتا فى اتمام الحيلة مخافة أن يطلع سعيد على مكيدتها قبل وصوله اليها ، أو أن يذهب الى منزل الامام قبل المرور بها . فأخرجت ذلك العهد وغيرت فيه الفاظا رفعت بها الشبهة عنها ، وكلفت لبابة فأتت منزل قنبر فى صباح ذلك اليوم بدعوى أنها دلالة تبيع الأقمشة وألقت الى قنبر حديثا لفقته بحيث تلبس الشبهة سعيدا فلا يصغى أحد الى كلامه . وكان انصار على قد سمعوا اشاعة اعتزام بعض الناس قتل الامام . فلما راى قنبر الصك وعلم أن صاحبه أموى ربى فى بيت عثمان وقام بنصرته لم يبق عنده شك فى اجرامه ، ولا سيما بعد أن رآه قادما قدوم اللص بعد منتصف الليل . فلما قبض عليه حبسه الى صباح الغد ليرى الامام رأيه فيه بعد أن يعود من صلاة السحر

اما بلال فانه مكث بالجملين فى ساحة الكوفة ينتظر قدوم سعيد . فلما ابطأ عليه قلق ، ولكنه لم يظن سوءا لما يعلمه من سلامة نية سعيد . وفيما هو جالس يفكر فى ذلك سمع أذان السحر وكان يعلم أن عليا يخرج فى تلك الساعة للصلاة فهرول الى المسجد فدخله فرأى فيه قبة مضروبة علم انها قبة بعض النساء ممن يجلسن لسماع الصلاة . فوقف يجيل نظرة لعله يرى سعيدا . فاذا برجال دخلوا وفيهم رجل ملثم وقد التف بعباءة يخفى تحتها سيفا فتفرس فيه عن بعد فرأى على جبهته أثر السجود فعلم أنه ابن ملجم ، فارتعدت فرائصه وحدثته نفسه أن يصيح به ولكنه خاف على نفسه ولم يكن يشك فى أن عليا قد اطلع على سر المؤامرة فلا يلبث أن يدخل المسجد ويأمر بالقبض عليه ، ثم رأى ابن ملجم وقد توجه ومعه رجل آخر هو شبيب نحو تلك القبة فكلما من فيها ، وكان فيها قطام بنت شحنة ، ثم مشى ابن ملجم حتى اقترب من السدة وبلال يرقبه ويتوقع سماع الأمر بالقبض عليه حالما يدخل على

وبعد هنيهة ، فتح باب السدة ، ودخل منها الامام على وهو يمشى الهوينى بعمامته على رأسه تغطى صلعته وكان ذا بطن ولحية كثيرة الشعر ضخم العضل وفى يده درة (سوط) كان يوقظ بها الناس للصلاة كل صباح ، فمشى الامام وابن النباح المؤذن بين يديه والحسن ابنه خلفه . فلما دخل انصت الناس وبلال ينظر اليه موقنا أنه سينادى من يقبض على ابن ملجم ، فاذا به قد وقف ونادى : « أيها الناس الصلاة الصلاة »

والتفت بلال الى ابن ملجم فاذا هو لا يزال واقفا لكن رفيقه (شبيب) تقدم مسرعا وسيفه بيده فضرب به الامام عليا فأصاب عضادة الباب وسقط السيف من يده فأجفل بلال وهم بأن يسرع الى على يخبره بأمر ابن ملجم

فاذا بابن ملجم قد اقبل على على باسرع من لمح البصر والسيف يبرق فى يده وضربه على جبهته وهو يقول : « الحكم لله يا على وليس لك ولأصحابك »

فصاح على : « فزت ورب الكعبة » . ثم قال : « لا يفوتنكم الرجل »

فتكاثف الناس على ابن ملجم فدفعهم بسيفه ففرجوا عنه فهجم عليه المغيرة ابن شعبة وتلقاه بقطيفة فرماها عليه واحتمله وضرب به الارض وقعد على صـدره وانتزع السيف منه . واما شبيب فأفلت فى الغلس وخرج من المسجد هاربا

وانفرط عقد الناس ونظر بلال الى القبة المضروبة فرأى امرأة خرجت من تحتها واذا هى قطام اسرعت وفرت فى غمار الناس . فذهل لما رآه ولكنه أمل الا تكون الضربة قاضية ، ثم تذكر أن سيف ابن ملجم مسموم فيئس من نجاة الامام ، وجعل يتفرس فى الناس لعله يرى سعيـدا فلم يقف له على اثر فتقدم فيمن تقدم الى السدة حيث كان على مطروحا فسمعه يقول : « احضروا الرجل » . فأحضروه اليه

فقال له على : « اى عدوّ الله . . ألم احسن اليك ؟ ! »

قال : « بلى »

فقال : « فما حملك على هذا ؟ »

قال : « شحذت سيفى هذا أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه » !

فقال على : « لا أراك الا مقتولا به ، ولا أراك الا شر خلق الله » . ثم التفت الى من حوله . وقال : « النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلنى ، وان بقيت رأيت فيه رأيى . يا بنى عبد المطلب لا ألفيتكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قد قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتل الا قاتلى . أنظر يا حسن ان انا مت من ضربنى هـذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثلن بالرجل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) . . »

قال ذلك وابن ملجم موثق ، وكانت أم كلثوم ابنة على واقفة بجانب أبيها فقالت لابن ملجم : « اى عدو الله لا بأس على أبى والله مخزيك » . فالتفت اليها ابن ملجم وقال : « على من تبكين ؟ والله ان سيفى اشتريتـه بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقى منهم احد »

ثم تقدم جندب بن عبد الله الى على وقال : « ان فقدناك ولا نفقـدك فنبايع الحسن »

قال على : « ما آمركم ولا انهاكم ، انتم ابصر »

ولما علم الناس أن سيف ابن ملجم مسموم أيقنوا دنو أجل الامام ، وخافوا الفتنة فيمن يخلفه ، ولكنهم بعد أن سأله جندب بن عبد الله ما سأله عمن يخلفه فأجابه بأنه لا يأمرهم ولا ينهاهم ، لم يسعهم الا تأجيل النظر فى الأمر ، ثم نقلوه الى داره ماشيا وهو يتوكأ على ولديه الحسن والحسين والدم يغشى جبينه وكان السم لم يفعل فعله بعد

أما ابن ملجم فكان لثامه قد وقع عن وجهه وبانت سحنته ، وكان أسمر ابلج فى جبهته أثرالسجود ، فساقوه الى السجن ولو لم يوص أمير المؤمنين بألا يقتلوه الا اذا مات هو من الضربة لقطعوه اربا اربا . ولكنهم اضطروا امتثالا لأمر الامام الى أن يسوقوه الى السجن ريثما تظهر عاقبة الجرح

أما بلال فسار فى أثر الجمع الى منزل الامام على ، وقد راعه ما رآه من هول تلك الساعة ، ومما زاد فى أسفه وضاعف حزنه ما أصابه من الفشل بحبوط مسعاه ومسعى سيدته ، لأنه انما كان يود نجاة الامام من تلك المؤامرة اكراما لمولاته خولة ، ولاسيما بعد أن صحب سعيدا وسمع منه فى اثناء الطريق ما حدثه به جده ابو رحاب عن فضائل الامام على التى يندر اجتماعها فى رجل

على انه كان مع ذلك فى شاغل عما كان فيه الناس من الاضطراب والاهتمام والانهماك بأمر الامام وجرحه بالتفكير فى سعيد وحاله ، وقد عجب لفشله فى مهمته مع علمه انه انما أسرع بعد طول مشقة السفر وسعى فى منتصف الليل لينبىء القوم بالخطر الداهم ، فمشى وهو يتفرس فى الناس واحدا واحدا لعله يرى سعيدا بينهم فلم يقف له على اثر . على أنه ما لبث أن راى الجمع دخلوا المنزل وأدخلوا الامام محمولا الى حجرته ، وتفرق الباقون فى صحن الدار جماعات ، وحديثهم يدور حول الحادث ، وما عسى أن يصيب الاسلام بعده مما لم يكن فى الحسبان ، وما فيهم الا من يقول : « ليتنى أشفى غليلى بضرب عنق ذلك الباغى »

وفيما هو ينظر فى وجوه الناس لعله يرى سعيدا ، اذا بقنبر حاجب الامام على قد خرج من الغرفة والدمع ملء عينيه وهو يقول : « اقتلونى أيها المسلمون ، اقتلونى انى جنيت على أمير المؤمنين »

فنهض الناس والتفوا عليه وهم لا يفقهون حديثه ، فاذا به قد اخترق الجمع ومشى الى الحجرة التى كان سعيد مسجونا فيها وفتحها وأخرج سعيدا منها وهو ما زال فى أغلاله

ولم يكن سعيد قد درى بما أصاب الامام عليا . فلما أخرجه قنبر على تلك الصورة ورأى الجمع متكاثفا ظنهم يريدون به سوءا . فقال : « أرونى الامام عليا فاطلعه على دسيسة دبرها له أهل البغى ولا تظنوا بى سوءا »

فعلا صوت قنبر بالبكاء وقال : « لقد نفذ السهم يا سعيد ، انهم فتكوا بأمير المؤمنين »

فصاح سعيد : « ومن فتك به ؟ »

قال : « ابن ملجم ، ضربه ضربة قاتلة قتله الله »

فصاح سعيد : « ويلاه ، واحسرتاه ، كيف يقتله وقد قطعت البرارى والقفار سعيا فى تلافى المصاب ؟. الم اقل لك ذلك يا قنبر ؟ »

قال : « انك لم تفصح المقال ، وقد نفذ السهم وجرح الامام جرحا لا أظنه ينجو منه ، ولو أصغيت اليك لنجا امير المؤمنين ، لقد وقع القضاء ولا مرد لقضاء الله »

ولم يتم قنبر كلامه حتى بكى سعيد وبكى الناس ، وعلا الصياح وهم مبهوتون ينظرون الى قنبر يتوقعون منه تفصيلا لما أجمل

اما هو فاشتغل بحل قيود سعيد وهو يقول : « قاتل الله تلك العجوز المحتالة ، انها اغرتنى بك وقد نجحت حيلتها »

فهم سعيد بأن يقص حديثه على اثر ما رأى من رغبة القوم فى ذلك فاذا ببعض الناس يقول : « ان الامام فى عافية وهو يحدث ابنيه الحسن والحسين»

فتحول الجمع الى غرفته كالسيل ، وانتهز بلال تلك الفرصة فدنا من سعيد كأنه يستفهمه سبب فشله فى مهمته . فقص عليه الخبر باختصار ، ووعده باتمام الحديث فى فرصة اخرى . وسار مع الجمع الى غرفة الامام فلم يستطع الدخول اليها لتزاحم الأقدام . فأطل من نافذة فرأى عليا متوسدا فراشه وهو معصوب الرأس بمنديل يغطى الجرح وكانوا قد غسلوا الدم عن وجهه ولكن آثاره بقيت ظاهرة على لحيته

فتذكر سعيدا جده أبا رحاب وما أوصاه به فأجهش بالبكاء ، على أنه ما لبث أن سمع عليا يتكلم فوجه اليه انتباهه فرآه يخاطب ولديه الحسن والحسين وهما جاثيان عند رأسه وقد اشتد بهما الحزن ، ولكنهما يتجلدان تجلد الرجال ، وهما ينصتان وأعينهما شاخصة فى وجه الامام الجريح ، والناس سكوت وكلهم آذان يسمعون ما يتلوه الامام من الآيات البينات وهى آخر خطبة القاها . فاذا هو يقول :

« اوصيكما بتقوى الله ، ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تبكيا على شىء زوى عنكما . وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، واعينا الضائع واصنعا للآخرى ، وكونا للظالم خصيما وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما فى كتاب الله ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم »

ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال : « هل حفظت ما أوصيت به اخويك؟»

قال : « نعم »

قال : « فانى اوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، ولاتقطع أمراً دونهما » . ثم قال لهما : « أوصيكما به فانه أخوكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما يحبه » . وقال للحسن : « أوصيك أى بنى بتقوى الله واقامة الصلاة لوقتها وايتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء فانه لا صلاة الا بطهور ، وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عن الجاهل ، والتفقه فى الدين ، والتثبت فى الامر ، والتعهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش »

□

وما أتم وصيته حتى أجهد وتعب من الكلام وما كان العهد به أن يتعب من الوعظ والخطب ساعات متوالية . ثم أمر بتلك الوصية فكتبت ودفعت الى الحسن ، ولم ينطق الامام بعد ذلك الا بقوله : « لا اله الا الله » . حتى مات(١) فعلا الضجيج وزاد العويل والبكاء . ثم غسله الحسن والحسين وعبد الله ابن جعفر وكفن بثلاثة أثواب ودفن

ولما رأى سعيد وقوع المصاب تذكر قطام وخبثها وقال فى نفسه : « والله لم يقتله الا هى ولولاها لم يقتل امير المؤمنين »

وفيما هو يفكر فى ذلك ويبكى جاء قنبر فقبض على يده وجره فسار فى أثره وهو لا يدرى ما يريده منه . وسار بلال فى أثرهما حتى دخلوا سجن ابن ملجم وكان مغلولا هناك . فلما دخلوا عليه هم سعيد بالكلام فقال قنبر : « تمهل لنرى ما يقول هذا اللعين » . فلما رآهم ابن ملجم قادمين عليه ظل جالسا ولم يعبأ بهم ، ولكنه خاطب قنبر قائلا : « أظنك جئت تدعونى الى النطع ، لأن صاحبكم مات »

قال : « الى ذلك جئت ، ولكننى أسألك عن هذا الرجل هل تعرفه ؟ » (واشار الى سعيد) فقال : « كلا »

وكان قنبر قد أراد أن يتحقق براءة سعيد ، وقد شك فى اشتراكه مع

(١) هذا ما رواه ابن الأثير من أمر مقتل الامام . وذكر صاحب تاريخ الخميس أنه توفى صبيحة يوم ١٧ رمضان مثل صبيحة بدر . وقيل ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة من سنة أربعين (عن أبى عمر وابن عبد البر) . وفى الصفوة قال العلماء بالسير : ضربه عبدالرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقين من رمضان ، وقيل ليلة احدى وعشرين منه سنة أربعين ، فبقى الجمعة والسبت ومات ليلة الأحد ، وقيل يوم الأحد . وغسله ابناه وعبد الله ابن جعفر ، وصلى عليه الحسن ، ودفن فى السحر . وقالوا غير ذلك مما ليس هنا مكان تحقيقه . وذكروا أنه دفن فى مسجد الكوفة وقيل حمل الى المدينة ودفن عند فاطمة ، وقيل غير ذلك

ابن ملجم فى المؤامرة . فقال له : « الم يكن لهذا الأموى يد معك فى القتل ؟ »

فتبسم ابن ملجم وقال : « انه اضعف من ان يقـــدم على ذلك . انى لاعرفه »

فقال بلال : « هل تعرف قطام بنت شحنة ؟ »

قال : « اعرفها وهى خطيبتى ودم ابن ابى طالب مهرها »

فصاح فيه قنبر : « اخسأ يا لئيم انك ملاق حتفك قريبا ، قم الى الموت »

اما سعيد فلما سمع قوله ان قطام خطيبته اشتد حنقه وغيظه من تلك المراة ، وقال فى نفسه : « انى والله سآخذ بالثأر منها بيدى »

وكان الحسن هو الذى أمر باحضار ابن ملجم ليقتله عملا بوصية أبيه ، فلما حضر بين يديه ، نظر الى ما حوله فراى الناس ينظرون اليه بأعين تلتهب حنقا وكل يود ان يقتله بيده ، فلم يعبأ بما رأى ، ولم يصبر حتى يكلمه احد منهم فنظر الى الحسن وقال : « هل لك فى خصلة ، والله قد أعطيت الله عهدا الا اعاهد عهدا الا وفيت به ، وانى عاهدت الله عند الحطيم ان أقتل عليا ومعاوية أو أموت دونهما ، فان شئت خليت بينى وبينه . فلك عهد الله على ان لم اقتله ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدى فى يدك »

فقال له الحسن : « لا والله حتى تعاين النار »

وكان الناس قد جاءوا بالنفط والبوارى والنار وقالوا : « نحرقه » . فقال عبد الله بن جعفر والحسين بن على ومحمـــد بن الحنفية : « دعونا نشف ما فى انفسنا منه ، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه ، فلم يجزع ولم يتكلم ثم كحل عينيه بمسمار محمى فلم يجزع ، وجعل يقول : « انك لتكحل عينى عمك بمكحول محمص » . وجعل يقرأ : « اقرأ باسم ربك الذى خلق» . حتى اتى على آخر السورة وان عينيه لتسيلان على خديه ، ثم امر به فعولج على لسانه لقطعه فجزع فقيل له : « قطعنا يديك ورجليك وسملنــا عينيك يا عدو الله فلم تجزع فلما صرنا الى لســانك جزعت » . قال : « ما ذاك من جزع الا انى اكره أن اكون فى الدنيا فواقا لا اذكر الله » . فقطعوا لسانه ثم جعلوه فى قوصرة فاحرقوه بالنار

ولما اشتم سعيد رائحة القتر المتصاعد من بقايا ابن ملجم شفى بعض غيظه ، ولـكن قوله : « ان قطام خطيبتى وان قتـل على مهر لهــا » . بقى يرن فى أذنيه ، وازداد تعجبا من دهاء تلك المراة واستغرب أن يكون فى النساء واحدة فى مثل ذلك الدهاء ، وتذكر ما حدث له معها من الوعود وما ارتكبته فى سبيل الانتقام لأبيها واخيها من الجرائم ، وكم قتل بسببها من الرجال وعبـــد الله ابن عمه فى جلتهم . فاتقد غيظا وظل برهة غارقا فى هواجسه لا ينتبه لما يدور حوله من الأحاديث ولا يفقه شيئا من انهماك الناس فى مبايعة

الحسن . ولم ينتبه حتى ناداه بلال فلباه فقال : « هلم بنا يا مولاى من هنا إن لى كلاما أقوله لك »

قال : « هيا بنا » ومشيا ولم ينتبه لهما أحد لاشتغال الناس بالمبايعة

وعادا توا الى ساحة الكوفة حيث تركا الجملين ، وسارا من هناك الى منزل سعيد ، وكانا فى اثناء الطريق يلتقيان بأهل الكوفة مسرعين زرافات ووحدانا الى منزل الامام على على أثر ما سمعوه عن بمقتله ، وهما لايكلمان احدا

ولم يكن سعيد قد دخل منزله منذ ذهابه الى الفسطاط فلم يجد فيه احدا لأن الخدم ساروا فى جملة السائرين الى منزل الامام . وكان التعب قد اخذ منه مأخذا عظيما لهول ما قاساه بعد سفره الطويل . فدخل الدار من باب خاص به وترك بلالا يهتم بالجملين . وبدل ثيابه وهو يفكر فيما رآه من الأهوال وما يتوقعه بعد موت الامام على من تغير المآل

ثم توسد وسادة يلتمس الراحة وهو يفكر فيما يتوقع سماعه من بلال ولكن التعب تغلب عليه وغلب عليه النعاس فنام . ودخل بلال عليه فرآه نائما فتوسد مقعدا فى غرفة اخرى ، واخذ يتهيأ لمكاشفة سعيد بما يجول فى خاطره من الشؤون حتى نام

ظل سعيد وبلال نائمين حتى الغروب فأفاق سعيد على صوت الخدم وهم يفتحون الباب بعد عودتهم ، وقد بغتوا لما رأوا سيدهم هناك على غير انتظار

أما هو فعذرهم لغيابهم ودعا بلالا فوقف بين يديه فدعاه للجلوس فاستأذن فى اغلاق الباب دونهما ، فأمر خادما فأضاء له مصباحا وضعه على مسرجة وخرج ، فأغلق بلال باب الغرفة وجلس الى سعيد والاهتمام باد على وجهه

فقال سعيد : « قل يا بلال ما بدا لك »

قال : « أيأذن لى سيدى فى أن أسأله ما الذى دعا الى فشل مهمته ؟ »

فتنهد سعيد وقال : « ان السبب قديم يا بلال لم أكن لأقصه عليك لو لم آنس منك ما آنسته من الغيرة والمروءة »

قال بلال : « ولم يكن من شأنى ان اسألك عنه لو لم الحظ من خلال الأحداث ما يشف عن بعض السر ، ولعلى اذا اطلعت على حقيقة الحال أن آتيك بخبر جديد »

قال لا أخفى عليك أن السبب فى فشلى امراة أظنك سمعت اسمها فى هذا الصباح من فم ابن ملجم »

قال : « اظنها قطام بنت شحنة »

قال : « نعم ، قبحها الله من داهية محتالة . فانها كانت سببا فى قتل ابن عمي وقتل الامام وابن ملجم . ولا يخفى عليك أن قتل الامام لا يقتصر شره على قتل النفس ولكننا نخاف منه الفتنة . ولا ريب فى انها أرادت أيضا أن تقتلني بوسيلة دبرتها » . وقص عليه حديثه مع قطام مختصرا من أول معرفته بها الى تلك الساعة

فلما فرغ سعيد من كلامه عض بلال على أنامله وتحرق ثم تنهد وسكت

فقال سعيد : « ما بالك يا بلال ، وما الذى يدعوك الى التنهد ؟ »

قال : « يدعوني اليه ندمي على ما فاتنى من القبض على هذه المرأة فى صباح هذا اليوم لأنى رأيتها في قبتها بالمسجد وقد مر بها ابن ملجم ورفيقه فكلماها قبل اقدامهما على تلك الفعلة الشنعاء ، ولكنني كنت أظن عليا والهفي عليه قد علم منك بما ينويه ابن ملجم فلا يترك له فرصة لارتكاب ذلك المنكر . وقد رأيت بنت شحنة خارجة من المسجد بعد أن تحققت نيل بغيتها بقتل الامام ، فياليتنى قبضت عليها . ولكن ما قدر كان . وقد قتل الامام وقتل قاتله والأمر فى ذلك لله . على أننى اذا عشت فسأنتقم لك وللاسلام من هذه الفاجرة . ومن غريب الاتفاق أن ابن ملجم هذا كان قد خطب سيدتى خولة من أبيها ولكنها لم تكن تحبه ولم ترض به »

ولم يكن بلال عارفا باطلاع سعيد على هذا الخبر من خولة فلم يشأ سعيد أن يعترف له به فظل صامتا ليسمع بقية الحديث

فقال بلال : « ولا شك أن سيدتى خولة ستفرح اذا سمعت بمقتل هذا الغادر لنجاتها من شركه »

قال سعيد : « وما الذى يحملها على قبوله اذا لم تكن ترغب فيه ؟ »

قال : « ان اباها هو الذى أطمعه بها ووعده بزفافها اليه ، أما هى فانها كانت قد عزمت على رفضه مهما تكن العاقبة »

تذكر سعيد حديث خولة ، وتمثلت له صورتها ملكا كريما وما هى عليه من الحمية والأنفة والمروءة ، وما شعر به من الميل اليها يوم لقيها فى الفسطاط أيام كان لا يزال مخدوعا بمواعيد قطام ومشغولا بأمر الامام على ، فلم يترك لقلبه يومئذ مجالا للحب ، فلما سمع ذكرها الآن تجددت ذكراها واحب أن يسمع حديثا عنها فقال : « وهل أنت واثق من أنها كانت مصممة على رفضه ولو أغضبت أباها ؟ »

قال : « نعم انى واثق بما أقول وقد لحظت شيئا آخر . . » . وسكت وهو يبتسم

قال : « وما هو ؟ » . قال : « ألم تلحظه أنت ؟ »

قال : « كلا وما هو ؟ . قل » . قال : « لحظت أنك وقعت من نفسها موقعا

عظيما ، ولحظت أيضا انك لم تجهل ذلك »

قال : « كيف عرفت انى لم أكن أجهله »

قال عرفته مما رايت من خروجها اليك غير مرة ليلا ، التماسا لنجاتك وهي تستجهلني ولا تنتبه الي . ولكنك كنت في شاغل يومئذ بلهفتك على انقاذ الامام على من كيد الحاقدين »

فعجب سعيد لما ظهر له من اطلاع بلال على سره ، وتذكر انه شعر بشيء منه يوم كان في الفسطاط وان اشتغاله بأمر الامام وخوفه عليه مع تعلقه بقطام وعهودها حال بينه وبين تمكين حبل المودة مع خولة . فلما سمع ما سمعه من بلال ساعتئذ احب أن يستطلع جلية الخبر فقال له : « افصح عما في نفسك انى لم افهم مرادك »

فقال بلال : « ان مرادى واضح مما ذكرته لك ، وها انذا أفشي لك سرا هو ان مولاتي خولة حين امرتني بأن اسير في ركابك ، اوصتني بأن انتظر حتى نكشف دسيسة ابن ملجم وننقذ الامام عليا ثم اطلعك على رغبتها في عودك الى الفسطاط لانها تكون قد نجت من خطبة ابن ملجم وتكون انت قد فرغت من مهمتك ، ولا أدرى ما تنويه هي في رجوعك ؟ »

ففهم سعيد ما وراء ذلك فقال له : « أما رجوعي الى الفسطاط فلا يخلو من مجازفة لما في ذلك من الخطر على لأنى انما جئت منها فرارا من القتل . فاذا عدت فانما اعرض نفسي لما هو شر من القتل ، وابن العاص لا يعفو عني ، ناهيك بكرهي لبلد فقدت فيه ابن عمي » . وسكت هنيهة وتنهد ثم قال : « وهل انت واثق من ميلها الي ؛ فاني والحق يقال رأيت في خولة من الحمية وعزة النفس مع التفاني في نصرة الامام ما جعل لها في نفسي مقاما رفيعا . ولا اكتمك ما خالج قلبي يومئذ من الميل اليها ولكنني كنت عالق القلب بقطام اخزاها الله فانها خدعتني »

فابتدره بلال قائلا : « لا تذكر هذه الخائنة يا مولاى ، اني والله اكره أن اسمع ذكرها ، لأني اشعر بقصوري وجهلي اللذين سببا نجاتها ، وهي والحق يقال أصل هذا الشر العظيم . . . ففي سبيل انتقامها لأبيهاوأخيها ارتكبت أعظم اثم حدث في الاسلام فقتلت ابن عم الرسول (صلعم)ولكنني سوف اذيقها حتفها واسفك دمها ولو بذلت في هذا حياتي » . قال ذلك وهو يحرق اسنانه حنقا وأسفا

فقال سعيد : « وما ظنك بها الآن . اباقية هي في الكوفة ؟ »

قال : « لا اظنها تبقي بعد ما ارتكبته فيها ، وقد افتضح امرهاوعلم الخاص والعام انها شريكة في القتل »

قال : « وأين تراها تذهب ؟ »

قال : « لا أدرى ، وسأبحث فى ذلك صباح الغد ، أما الآن فلنعد الى ما كنا فيه فانك اذا لم ترجع معى الى الفسطاط احسبنى مقصرا فيما عهد الى فيه . وخولة يامولاى يندر مثلها بين البنات جمالا وتعقلا وانفة ، ولولا ابوها وتشيعه لمعاوية لاتت بما لم يأته أعاظم الرجال . ولكنه كثير التشيع لابن أبى سفيان وكثيرا ما كانا يختلفان امامى ويختصمان على أمور أستدل منها على ذلك »

▭

واحس سعيد بعاطفته تتجدد ، وشاقه حديث خولة وتاقت نفسه اليها ، ولكنه استثقل الذهاب الى الفسطاط مخافة الوقوع فى قبضة عمرو بن العاص . ثم تذكر أن المتآمرين كانوا قد اجمعوا على قتله وقتل معاوية فى مثل ذلك اليوم ، فقال : « ألم أخبرك أن اثنين آخرين تآمرا على قتل ابن العاص ومعاوية أيضا »

قال : « بلى اخبرتنى ولكننى لا أخاف على ابن العاص الوقوع فى الشرك »

قال : « وما الذى ينجيه منه وهو لا يدرى ما يمكرون ، فاذا فتكوا به سهل على الدخول الى الفسطاط ويكون ذلك أسهل ايضا اذا قتل معاوية فى الشام »

قال بلال : « ان البحث عن ذلك يحتاج الى وقت ، ولا بد لنا من التربص حتى تأتينا الأخبار أو ان نذهب نحن للبحث عنه »

قال سعيد : « لا صبر لى على الانتظار ، ولا أظنك تصبر عليه . فأرى أن تسير أنت على عجل الى الفسطاط تستطلع جلية الخبر ، وتعود باليقين . واذا جعلت طريقك على الشام جئت بالخبرين معا »

قال : « أمرك يا سيدى . وأنت ماذا تفعل ؟ »

قال : « ابقى هنا للبحث عن تلك الخائنة قطام ، فانى أتوق للانتقام منها فاذا لم اوفق الى ذلك عشت منغص العيش طول عمرى . انها قتلت ابن عمى وأمير المؤمنين وكادت تقتلنى ! »

قال : « بالله دع امرها لى ، فانى أريد أن أشفى غليلى منها ومن عبدها الزنيم ريحان لا أراحه الله ، ولكننى أرى سفرى الى الفسطاط أدعى الى العجلة »

فأعجب سعيد بحماسة بلال ، وزاد ميلا اليه وشوقا الى خولة . واخذ يعيد الى ذهنه ما آنسه فيها من الخلال الحميدة والغيرة عليه ، وكيف كان التفاؤه بها سببا فى نجاته من القتل ليلة ذلك الاجتماع . فضلا عما رآه فيها

من الغيرة على أمير المؤمنين . ولكنه لم يكد يذكر عاقبة ذلك السعى وحبوط ما دبره حتى اشتعل غيظا ، ولكنه لم ير حيلة فيما مضى فقال : « لقد قضى الأمر يا بلال ولم تبق لنا حيلة فيما مضى ، فاذهب أنت الى الفسطاط وعرج فى طريقك على الشام ثم عد الى بالخبر اليقين عن عمرو ومعاوية . وأما أنا فانى باق هنا أبحث عن قطام وعجوزها وعبدها ، فاذا عدت فوافنى الى هذا المنزل »

قال : « وخولة ؟ ماذا أقول لها ؟ »

قال : « اذكر لهـا ان شـوقى اليهـا لا يوصف ، وان ما عنـدى أضعاف ما عندها ، ولها منى عهد الله أن لن ينالها سواى »

قال : « أما رضاها فأنا الضمين لك به » . وسكت بلال وقد ابرقت أسرته سرورا بما سمعه . ثم قطب وجهه بغتة وقال : « ولكن هب أن ابن العاص ما زال حيا وابوها كما تعلم شديد التشيع له فلا أظنه يرضى بك زوجا لها ، فما الحيلة ؟ »

قال : « هذا راجع الى اختيارها ، ومتى عدت الى بالخبر نتدبر الأمر فى حينه ، أما الآن فلا نضيع الوقت . امض الى الفسطاط على عجل وعد الى بالخبر اليقين وعلى الله الاتكال »

فأخذ بلال يستعد للرحيل ، وسعيد صامت يفكر فيما هو فيه . واصبح الحصول على خولة شغله الشاغل ، ولـكن فشله فى انقاذ الامام أثار فيه حب الانتقام من قطام . فصمم على الفتك بها أما بيده واما بمساعدة الحسن بعد تبوئه عرش الخلافة

نجاة عمرو بن العاص

فلنترك سعيدا وبلالا على حالهما ، ولنعد الى خولة فى الفسطاط . فقد تركناها عائدة فى ذلك الليـل الى منزلها على طريق عين شمس . وكان أبوها قد حبسها فيه . فلما أخرجها سعيد منه وسارا معا الى الدير ثم خرجت هى وحدها لم تر خيرا من أن تتظاهر بالبكاء والخوف فهرعت الى منزل أبيها باكية وكان هو لا يزال غائبا يتداول مع عمرو بن العاص فى شأن الذين قبض عليهم فى ذلك اليوم . فلما فرغ من أمرهم وحرض ابن العـاص على اشتراقهم سار الى محبس ابنته فرأى الباب مفتوحا وليس هناك أحد . فاستغرب الأمر وعاد توا الى منزله فرأى خولة جالسة فى غرفتها تبكى . فتجاهل سبب بكائها وقال : « ما بالك يا خولة ؟ »

قالت : « كيف تتركنى وحدى فى ذلك البيت ألم تخف على من أبنـاء السبيل ؟ »

قال : « الم ترى انى أقفلت الباب واوصدته خوفا عليك من ذلك ؟ »

قالت : « كيف تفعل بى هذا ؟ أعاصية أنا أمرك ؟ » . واستغرقت فى البكاء فتحركت فيه عاطفة الأبوة ، وظنها تقول ذلك عن سذاجة فقال لهـا : « وكيف خرجت ؟ »

قالت : « لمـا رايت نفسى حبيسة هناك خفت على حياتى فجعلت أناديك واستغيث بك ، ثم سمعت قرقعة وضجيجا ووقع حوافر كثيرة فازداد خوفى فصحت واستجرت ، فقيض الله لى رجلا فتح الباب بالعنف فخرجت وهرولت الى البيت وأنا أرتعد من شدة الاضطراب »

فطيب خاطرها ولامها على خوفها ، ولكنه سر لظنه أن حيلته قد انطلت عليها ، وما زال يهون عليها حتى تظاهرت بالرضاء فتركها وخرج وهو يظنها عازمة على الرقاد . ثم سمعت لغط الناس فى المدينة فانتبهت الى أن الجند لا يلبثون أن يفتحوا بيت الغفارى ، فاذا راوا سعيدا هناك قبضوا عليـه فخرجت لانقاذه كما تقدم . وقبل خروجها أوصت عبدها بأن يوصد الباب، واذا سأل أبوها عنها يقول له انها نامت وأقفلت الباب عليها لشدة ما اعتراها من الخوف فى ذلك المساء . فبات أبوها تلك الليلة وهو يحسبها نائمة ، أما هى . فبعد انقاذها سعيدا عادت الى غرفتها مضطربة فلم تستطع رقادا ،

وجعلت تفكر فى وسيلة تنقذ بها عبد الله ، ولم تمكث قليلا حتى سمعت لغطا فى دار ابيهـا ، وفهمت من خلال اللغط ان ابن العاص عول على اغراق أسراه فى النيل ، وسمعت أباها يضحك سرورا لهذا القرار ، فأسفت أسفا شديدا، ولبثت برهة تفكر فيما تفعل، حتى حدثتها نفسها لفرط انفعالها ، بأن تخرج فى أثر الخارجين لعلها تستطيع انقاذ عبد الله . فغافلت اباها وكان قد ذهب الى فراشه وخرجت وأوصدت الباب وراءها وبلال نائم أمام عتبته ، وسارت فى اتجاه ضفة النيل حيث ظنت انهم ساقوا الأسرى وهى عزلاء دفعتها حماستها الى الخروج هكذا . فالتقت هناك بسعيد ودار ما دار بينها وبينه ووعدته بارسال عبدها ليصحبه الى الكوفة كما تقدم . ثم عادت وحدها

فلما أشرفت على المنزل رأته هادئا وأهله نيام ، فانسلت الى الدار فرات عبدها بلالا نائما فأيقظته فهب من رقاده مذعورا وكانت تعلم شدة تعلقه بها وتفانيه فى مرضاتها ، فدعته الى غرفتها فتبعهـا فلما خلت به قالت : « أتدرى لماذا دعوتك ؟ »

قال : « كلا يا مولاتى ولكننى رهين اشارتك »

قالت : « أتطيعنى يا بلال ؟ »

قال : « كيف لا وأنا عبدك وطوع أمرك ؟ »

قالت أريد أن أعهد اليك فى أمر خطير فهل تقوم به ولو أدى الى الموت ؟ »

قال : « ان الموت هين فى سبيل مرضاتك . مرى يا سيدتى بما تشائين فاننى فى خدمتك »

قالت : « أسمعت بما حدث اليوم فى عين شمس وما فعـل ابن العـاص بالمجتمعين هناك ؟ »

قال : « نعم وقد ارتكب اميرنا فيه أمرا جسيما وقتل كثيرين »

قالت : « أما سرك ما فعله ابن العاص بأولئك العلويين ؟ »

قال : « اذا كان سرك فانه يسرنى »

قالت : « وما ظنك بى ؟ »

قال : « لا أظنك راضية عن هذا العمل ، لعلمى أنك على غير دعوة الأمويين، وان يكن سيدى أبوك متفانيا فى سبيل التشيع لهم »

قالت : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « أنت تحسبيننى ساذجا وقد قضيت فى خدمتك أعواما طوالا واطلعت على مكنونات قلبك وأنت لا تعلمين . وأما الآن فقد دفعتنى الى التصريح بأنى اعلم غرضك ولم يفتنى شىء مما تقاسينه فى سبيل الدفاع

عن الامام على ولا سيما امس ، وانت لا تعلمين شيئا الا انى احرس هـذا الباب الموصد واكتم خروجك منه عن أبيك »

فاستغربت خولة قوله ولكنها سرت به وقالت : « وما قولك فيما حدث امس ؟ »

قال : « اتحسبيننى غافلا عما قاسيته فى سبيل انقاذ ذلك الشاب الغريب الليلة ، وقد كان فى جـلة من خيف عليهم الوقوع فى شرك ابن العاص فأنقذته بهمتك ؟ »

فتحققت أنه كان يراقب حركاتها وسكناتها. فتهلل قلبها سرورا فقالت : « اما والحال على ما أرى فاخبرك أن ذلك الشاب مسافر الآن الى الكوفة ، واريد منك أن تذهب اليه بالجملين الى سفح المقطم ، فاذا التقيت به هناك فسر فى ركابه الى الكوفة واحذر ان يدرى بك احد أو ان تذكر ذلك لأحد »

ولم تتم كلامها حتىخرج مسرعا يهم باعداد الجملين ، فاسترجعته وقالت : « قف يا بلال بورك فيك واسمع كلمة أخرى اقولها لك »

فعاد وقال : « لبيك يا مولاتى قولى ما تشائين »

قالت : « انك ذاهب مع هذا الشاب الى الكوفة لانقاذ الامام على من القتل ، وستعلم تفصيل ذلك منه . وأما الآن فيكفينى أن أوصيك به خيرا ، واذا انتهيتما من تلك المهمة فارجع به الينا ، فانى أكره ابن ملجم الذى يريده ابى خطيبا لى . هل فهمت ؟ »

فضحك بلال وهز رأسه ولسان حاله يقول : « فهمت »

فقالت : « سر فى حراسة الله ، وكنت أود ان ازيدك بيانا ، ولـكن الوقت ضيق فاذهب وعد سالما باذن الله ، واحذر أن تبوح لأحد بما سمعتـه أو رأيته »

فخرج وهو يلتفت اليها كانه عاتب على ما ظهر من ضعف ثقتها بأمانتـه ، ولكنه كان فرحا بما كلفته به ، فأعد الجملين وخرج الى سفح المقطم وصحب سعيدا كما تقدم

□

ولما خرج بلال عادت خولة الى غرفتها ، وغلقت البـاب واستلقت على فراشها وقد تعبت مما قاسته فى ذلك اليوم من المشاق ، وكان قد هم بها النعاس لولا ما شغل ذهنها من عظائم الأمور ، وما تخلل ذلك من شعورها بالميل الى سعيد ، ولولا الحياء واهتمامها بانقاذ الامام لصرحت به . وذلك لما آنست فيه من الرغبة فى انقاذ الامام على ، مع ما فى قلبها من النفور الشديد

من ابن ملجم حتى كرهت أباها من اجله ومن أجل تشيعه للأمويين

قضت بقيــة ليلهــا لم يغمض لها جفن ، وهي تفكر في سعيــد ، وقلبهــا يخفق ميلاً اليه وخوفا من فشله في مهمته . فجعلت تقدر الوقت اللازم لسفره الى الكوفة فرأت انه اذا اسرع لا يفوته الوصول اليها قبــل الأجل المضروب للقتل . وكان يعترض مجرى افكارها خوفها مما قد يطرأ عليه في الطريق فيعيق وصوله فترتعد فرائصها فرقا على حياة الامام . وفي قتله ضربتان كبيرتان : الاولى موته ، والاخرى عودة ابن ملجم اليها . ولكنها كانت تتعزى بأن ابن ملجم اذا ظفر بقتل الامام لا ينجو من القتل . ثم تحول ذهنها الى ابيها وخروج عبدها بالجملين ، واعدت أعذارا تنتحلها في سبب خروجه فلم تجد خيراً من أن تدعي فراره الى حيث لا تعلم

وكان ابوها قد افاق في أثناء الليل وهي غائبة فجاء غرفتها ليراها فوجد الباب موصدا فسأل العبد عن ذلك فقال : « ان سيدتي استولى عليها الخوف على غير المعتاد فأوصدت الباب واوصتني بأن أنام خارجا »

فقال ابوها في نفسه : « مسكينة خولة ان رعبها من ذلك الحبس لا يزال مؤثرا فيها » . وعاد الى فراشه وهو مصدق ما قاله العبد

وفي الصباح جاء الغرفة فرأى الباب لا يزال موصدا ولكن بلالا ليس أمامه فقرعه فنهضت خولة وفتحته وهي تتظاهر بالذبول لطول استغراقها في النوم . فأمسكها بيده الواحدة ووضع الأخرى على كتفهــا وهو يقــول : « لعلك لا تزالين خائفة يا بنية ؟ »

قالت : « كلا يا سيدي اني تحت جناحك في أمن وطمأنينة »

فقال : « بورك فيك تعالي نتناول الطعام » . ثم نادى بلالا فلم يجبه أحد فقال : « أين بلال ؟ »

فقالت : « لا أدري لعله ذهب الى السوق »

فانتظر هنيهة فلم يجيء ، فأرسل خادما في أثره فلم يقف له على خبر ثم علم بضياع الجملين ولما انقضى معظم النهار ولم يعد بلال ولا الجملان اشكل عليه امره ، فقالت خولة : « يظهر انه اخذ الجملين وفر » . فبعث اناسا في اثره الى ضواحي المدينة فلم يأته أحد منهم بخبره ، فصدق انه فر

□

اما خولة فلما تحققت انطلاء الحيلة على ابيها عادت الى هواجسها وتذكرت المهمة التي ذهب فيها سعيد ، واخذت تفكر في أمره وهي خائفة أن يتأخر في الطريق عن الوقت المضروب لقتل الامام فيذهب سعيها هباء منثورا ، ولكنها

كانت مع ذلك فرحة لنجاتها من ابن ملجم ، لعلمها أنه أن فاز بقتل الامام على فلا ينجو من سيوف أشياعه وهم كثار فى الكوفة . ولكنها شغلت من ناحية أخرى بسعيد بعد أن انتهت من تدبير سفره ولم تكن واثقة من وقوعها من نفسه مثل وقوعه من نفسها وتمنت لو يعود عبدها بلال ليطمئن قلبها ، على انه لم يكن قد أزف زمن رجوعه بعد فصبرت على مضض تترقب أحداث القدر

وجاء أبوها ذات مساء بعد عودته من حانوته وعلى وجهه سيماء البشر وقرأت فيه خبرا جديدا ، فأحبت أن تعرف كنهه . فلما جلسا الى الطعام احتالت على استطلاع حديثه فذكرت له أمر العلويين والقبض عليهم وتفننت فى استرضائه ، فابتسم وانقاد الى الكلام مع ما هو فيه من الالتهاء بالطعام ، وكأنها أدركت ما فى ضميره فتوقفت عن طعامها تنتظر حديثه ، فالتفت اليها وقال وهو يبتسم : « لقد عودتنى يا خولة ان أحاذر فى الكلام معك فيما اخشى افشاءه »

فاستغربت وقالت : « انى لأعجب يا أبتاه من سوء ظنك بى ، فأنا فتاة متحجبة فى هذا البيت لا أعرف من أهل الدنيا أحدا سواك ، فكيف تقول انك تحاذر أن تذكر أمامى ما تخاف افشاءه . أى سر بحت به الى فأفشيته ؟ » . قالت ذلك وهمت بأن تتباكى

وعاد هو فابتسم وقال : « لم أقل انك تبوحين بالسر ولكن . . . » . وسكت

فقالت : « ولكن ماذا يا أبتاه ؟ انك تظلمنى بظنونك ، ويسوءنى الا يكون لى نصيب من الثقة حتى ولا من أبى الذى لا أعرف أحدا سواه »

قال : « لا أخفى عليك يا ابنتى اننى كنت ولا أزال أعتقد أنك ميالة الى الأعداء . . . . و . . . . »

فابتدرته وقالت : « وأى أعداء تعنى ؟ . أعوذ بالله من هذه التهم ! كيف تقول ذلك ؟ ! » . وتنحت عن المائدة وأعرضت عن الطعام

فقال : « انى ألحظ ميلك الى العلويين ، وأنت تعلمين ان عليا حاربنا وقتل جماعة منا فى النهروان وغيرها . ولا ألومك على ميلك اليه ، لأننى كنت أنا ايضا مثلك فى جملة المتشيعين له ، ولكنى أصبحت بعد وقعة صفين ناقما عليه لما ارتكبه فى مسألة الحكمين بحيث أخرج الخلافة من يده وجعل لمعاوية يدا فيها »

فأدركت انها اذا أقرت بحقيقة ميلها القت نفسها فى تهلكة ، فلم تر خيرا من الانكار فقالت : « وما أدراك أنى باقية على الراى القديم ، فانك ان كنت انت انحرفت عنه فمن أكون أنا حتى اخالفك فيه »

قال : « لو لم تكونى على هذا لما تمنعت عن زواج ابن ملجم وانت تعلمين ان هذا الرجل قد عاهد نفسه على القيام بعمل لم يقدم عليه أحد من المسلمين فى هذا العصر . فقد صمم على قتل على »

فأجفلت عند سماعها ذلك التعريض وحدثتها نفسها بان تبوح بحقيقة ميلها ولكنها خافت ضياع الفرصة وهى انما افتتحت الحديث لتستطلع ما فى نفس ابيها ، فأنكرت التهمة كل الانكار وقالت : « ان ما تنسبه الى من أمر ابن ملجم ظلم يا مولاى ، فانى لم ارفض الرجل وهو خطيبى متى عاد من رحلته هذه . وكيف تقول انى لم أقبله وانا لم افه بكلمة فى هذا الشأن ؟ »

فضحك أبوها وهو يتشاغل بتقطيع فخذ من الضان بين يديه ، وقال : « نعم انك لم تفوهى بكلمة ، ولكننى أدركت من مجمل حالك انك غير راضية به » . وكان قد أتم تقطيع اللحم فقدم لها قطعة فأبت ان تتناولها واعرضت دلالا وحنقا

فقال لها : « خذى كلى ياخولة ولا يسؤك كلامى »

قالت : « انما ساءنى لأنى ارانى مظلومة واظنك عاملتنى معاملة العدو فحبستنى فى ذلك البيت المظلم بناء على هذه الظنون »

قال : « لقد اذكرتنى حديث تلك الليلة وما كان فيها من الاهوال ، وهو الامر الذى جئت لاقص خبره عليك ، ولكننى لااقول كلمة قبل أن تصدقينى الخبر : هل انت على ولاء ابيك تاتمرين بأمره . ام ماذا ؟ »

فتغاضبت وقالت : « انى أراك تحرجنى وتلجئنى الى الانحراف عن دعوتك بما تثيره علي من الظنون وانا لا ابغى من هذه الحياة غير مرضاتك »

فمد يده وهو لايزال قابضا على قطعة اللحم وقال : « خذى اذن هذه اللقمة واصغى لما اقوله لك »

فتناولتها من يده وقالت : « قل » . ووضعت اللقمة فى فمها وهى لاتمضغها لانشغال ذهنها بما ترجو سماعه فقال : « اعلمى ياخولة ان أميرنا حفظه الله علم بقدوم رجلين اتيا من الكوفة للاجتماع ببعض كبار العلويين الذين كانوا يجتمعون سرا فى خرائب عين شمس ، فبعث جندا من شرطته فقبض عليهم فى مجتمعهم تحت الارض . ألم تسمعى بهذا ؟ »

قالت : « عرفت بعض خبره بعد حدوثه »

قال : « فاعلمى اننا وجدنا بين المقبوض عليهم فى تلك الليلة واحدا من ذينك الاثنين اسمه عبد الله . وأما الثانى فقد نجا ، ولا ندرى من هو ، ولعله لم يشهد الاجتماع . اما الاول فساقوه مع من سيق تلك الليلة الى دار الامارة وقد يكون وقع اليك ان الامير راى أن يقتل اولئك المتآمرين ، وكنت أنا ممن أشار عليه بذلك مخافة الفتنة اذا ظلوا أحياء . فامر عمرو باغراقهم فى النيل

وعبد الله معهم ، وقد عدت أنا من حضرة الامير وهم يتهيأون لارســالهم الى النيل وعلمته في اليوم التالي انهم اغرقوهم »

فلم تر خولة في حديثه شيئا لم تكن تعرفه ، ولـكنها رأت ان الحديث لم يتم فصبرت وتظاهرت بخلو الذهن من هذا الموضوع الغريب

اما هو فقال : « وقد كنت أعتقد انه أغرقهم جميعــا حتى كان اليوم وأنا في منزل الامير فرأيت في بعض جوانبه عرفة مقفلة كنت كلما جئته أراها مغلقة فلم أهتم بشأنها ، فلما كان عصر اليوم دخلت على الامير وأنا عائد من عملي ، فذكرت له أمر ابن ملجم ومهمته وطفقنا نتحدث فيما عسى أن يكون من أمره في الكوفة ، فلما وصلنا الى ذلك رأيتــه يبتسم ، وتوسمت في وجهــه خبرا فرغبت اليه أن يطلعني على ماحدث ، وأنت تعلمين ما لي من الدالة عليه . فتردد أول الامر، فألححت عليه فقال لي : « أتعلم من هو المقيم بهذه الغرفة ؟ »

قلت : « لايامولاي ، لا أعلم ، وليس من شأني السؤال عما في منزل الامير »

فضحك عمرو حتى رقصت لحيته وقال : « اني حبست فيها رجلا سينقذ حياتي من القتل »

فعجبت لقوله واستغربت ما يشير اليه ، ولبثت أنتظر الافصاح فقال لي : « اعلم ياصاحبي اني حبست في هذه الغرفة عبد الله الاموي الذي كان قدومه سببا في قتل العلويين منذ ايام »

فلما سمعت خولة ذكر عبد الله علمت انه رفيق سعيد، وخفق قلبها فرحا بنجاته ، ولـكنها استغربت سبب تلك النجاة ، على انها ظلت متجاهلة تتوقع سماع تتمة الحديث ، وأبوها يتشاغل عن اتمامه بالمضغ والبلع ، وكان أكولا

فلما خلا فمه من الطعام عاد الى الحديث فقال : « فاستغربت كلامه وسألته عما عساه أن ينجيه من الموت ؟ فذكر لي أن صاحبك ابن ملجم خطيبك هو احد المتآمرين على قتله أيضا مع علي في يوم واحد ، وانه سمع ذلك من عبد الله هذا فلم يصدق قوله لغرابته واساء به الظن لعلمه ان ابن ملجم من رجال دعوتنا ، ولكنه لم يسعه الا أن يستبقيه ويحبسه في منزله ريثما يأتي الاجل المضروب لقتل علي وقتله وهو يوم ١٧ رمضــان ، فاذا تحقق صــدق قوله أفرج عنه والا ضرب عنقه . فلما سمعت ماقاله الامير استغربته كل الاستغراب وخفت أن يكون قد أساء الظن بي ، فأقسمت له الايمان المغلظــة اني لم أكن عالما بعزم ابن ملجم ، وسألته هل عرف اسم الرجل الآخر الذي تعهد بقتله فذكر لي ان الاموي الاسير لايعرف الاسم »

قالت خولة : « وماذا تنوي أن تصنع ؟ » . قال : « الحق يا ابنتي انني لم ادر كيف أؤكد للأمير صــدقي واخلاصي بمخافة أن يبقى على ســوء ظنه بي ، فبالغت في اظهــار الغضب من ابن ملجم ، وقلت له : (اني لو عرفت خداع الرجل ما رضيت به صهرا ، وأنا منذ الآن مانعه من خولة) . ولما قلت له ذلك

التفت الي وقال : (لا يكفيني هـذا الوعد وانا اعرف خولة واعرف مقامهـا ، وطالما كنت اريدها لأحد اولادي ، واما الآن فاني أطلب اليك اذا صدق هـذا الاموي في قوله أن تكون ابنتك خولة عروسا له ، لأن الرجل اموي وكان على دعوتنا حتى أغراه بعض الناس بالتشيع لعلي) . . »

فلما وصل الى هذا الحد علمت خولة ان عبد الله لايزال حيا ، واطمأن قلبها وادركت انه لم يذكر اسم المتآمر الثالث على قتل معاوية مخافة أن يرسل عمرو بخبره الى الشام فينجو معاوية منه

ولكنها لما سمعت ذكر خطبتها له اطرقت حياء وسكتت وقلبها يختلج فرحا بنجاتها من ابن ملجم ، ثم تذكرت حبها سعيدا وما بعثت به اليه مع عبدها بلال ، فاحتارت في أمرها على انهـا لم يسعها الا كتمان كل ذلك والتظـاهر بالاستغراب فقالت وهي تهز راسـها استغرابا : « اصحيح انهم تآمروا على قتل عمرو ايضا انها لمصادفة غريبة ؟ »

قال : « حقا انها مصـادفة نادرة ، ولـكن ما قولك في اقتراح عمـرو ؟ »

فسكتت ولم تجب

فقال : « ما معنى سكوتك وانت تعلمين اننا لانستطيع رد ذلك الاقتراح ؟ »

قالت : « دع هذا الآن ، فانه ليس بالامر المهم ، وما خولة الا جارية حقيرة لاتستحق هذا الاهتمام ، ولنصبر الى الاجل المسمى لنرى مايكون »

فقال : « اننا صابرون ، وارجو ان يكون خطيبك الجديد اهلا لك وليس مثل ابن ملجم الخائن ، على اني ادركت من خلال حديث عمرو أن عبـد الله رجل كريم ، وهو اموي ربي في منزل الخليفة عثمان ، ولكنهم اغروه بالتشيع لعلي ، ثم عاد الى ما كان عليه . واذكر اني رايته ليلة قبضوا عليه فاذا هو شاب في مقتبل العمر واظنك سترتاحين اليه »

فظلت خولة ساكتة ، فحسب والدها سـكوتها قبولا فسكت ، وكانا قد فرغا من الطعـام فنهض ونهضت خولة فغسلت يديها وذهبت الى غرفتهـا وهي تفكر فيما سمعته من ابيها وتحسب نفسها في حلم

□

فلما خلت بنفسها تذكرت سعيدا وحبها له فتقاذفتها الهموم ، وهي تخاف ان يحملها عمرو على الاقتران بعبد الله قبل أن تعلم مصير سعيد ومهمته في الكوفة ، وقد أعجبت بدهاء عبد الله لانه باح بخبر المؤامرة على قتـل عمرو وكتم امر المؤامرة على معاوية ، ولكنها خافت الا تتم نبوءته فلا يأتي القاتل في الاجل المعين فيقتله عمرو . وكانت اذا تصورت صـدق نبوءته ونجاته من القتل يخفق قلبها لاضطرارها عندذلك الى قبوله زوجا لها وهي تحب سعيدا ،

فهاجت اشجانها وارتبكت في امورها ، وجعلت تبحث عن سبيل تنجو به من هذا التردد فلم تر خيرا من الصبر والنزول على حكم القدر

اما عبد الله فكان قد جنح الى هذه الحيلة خوفا على حياته ، وكان يخشى أن يتاخر المتعهد بقتل عمرو عن المجيء لسبب من الاسباب فيذهب سعيه عبثا

وظل عمرو اياما لايخرج للصلاة ، فلما كان فجر ١٧ رمضان شكا الما فى بطنه فلم يخرج ، واتفق خروج خارجة بن ابى حبيبة صاحب شرطته للصلاة وهو لايعلم بخبر المؤامرة ، ولم يامره عمرو بالخروج ولو علم بخروجه لمنعه ، على انه لم يكن يحسب أن القاتل ياتى لقتله فى الفجر وهو يصلى ، بل كان يحسب انه سيراقب خروجه فى أثناء النهار فى بعض شئونه . ولكن منية خارجة عاجلته فخرج فجر ذلك اليوم الى الجامع ليصلى بالناس ، ولم يكد يبدأ بها حتى هم به رجل من الوقوف وهو يحسبه ابن العاص فضربه بالسيف فقتله فقبضوا عليه وساقوه الى عمرو . فلما رآه عمرو بغت وصاح به : « ويلك قد قتلت صاحب شرطتى قتلت خارجة بن أبى خبيبة » . فأجابه الرجل بقلب لايهاب الموت : « والله انى كنت أحسبه أنت »

فقال له عمرو : « اردتنى واراد الله خارجة . من أنت يا غادر ؟ »

قال : « عمرو بن بكر » . قال : « وممن أنت ؟ » . قال : « من تميم »

فقال : « اقتلوه » . فقتلوه ، وقد حزنوا لمقتل خارجة ولكن ما قدر كان

اما خولة فانها باتت ليلة ١٧ رمضان على مثل الجمر وهى تتوقع أن تسمع خبرا جديدا فى اليوم التالى ولم تكن تتوقع أن يفعل الغادر فعلته فى الفجر فأصبحت وقد ضجت الفسطاط بخبر خارجة وجاءها ابوها فأخبرها به ولسان حاله يقول : « لقد صحت أقوال عبد الله فتأهبى للاقتران به »

تحققت وقوع المحظور ولم تعد تدرى ماذا تفعل وندمت لأنها لم تغادر بيت ابيها سرا قبل ذلك اليوم على انها لم تكن من الجهة الاخرى موقنة من أن سعيد يبادلها ودا بود ، فانها لما لقيته فى الفسطاط لم تتحقق ميله اليها . فوقعت فى حيرة ولكنها كانت مع هذا فى قلق على الامام على لاتدرى هل نجا كما نجا عمرو أم ذهب فريسة ابن ملجم وتمنت لو أن عبدها يعود فى ذلك اليوم بالخبر اليقين

□

تركنا سعيدا وبلالا فى الكوفة وقد اخذ الاخير يتأهب للسفر الى الفسطاط ، واخذ سعيد يفكر فيما يفعل بعده وكان هو الذى امره بالذهاب الى الفسطاط ليعود اليه بالنبأ اليقين عن عمرو . ثم رأى انه قد يطول به الانتظار ولا صبر له عليه . فقال لبلال : « كنت قد أمرتك بالذهاب الى الفسطاط ، ولكنى أرى

اجل عودتك بعيـــدا فلهذا رايت ان اذهب الى دمشق لانتظرك بها ، على أن توافيني الى مسجدها بعد عشرين يوما ، وسواء أتمكنت من الفتك بقطام أم لا ، فانني سأعرف هناك مصير معاوية »

وسافر بلال ، وصبر سعيـد الى الغد ثم خرج قاصـدا بيت قطام فرآه مقفرا من أهله ، فوقف عند باب الحديقة يتأمل نخلاتها وطرقاتها ويفكر فيما مر به هناك من الاحداث وما انطلى عليه من مكر قطـام غير مرة ، وتذكر آخر مرة زارها فى ذلك المنزل ومعه ابن عمه عبدالله فازداد ميلا الى الانتقام منها . وفكر فى المكان الذى عسـاها ان تكون قد ذهبت اليه ، فخطر له ان تكون قد سارت الى اهلها فى جوار الكوفة ، فمضى للبحث عنها هناك ، ولـكنه لم يقف لها على أثر، فمل البحث وخاف ان ينقضى الاجل الذى ضربه لبلال كيما يوآفيه هذا فى دمشق ، ولاح له ان قطام قد تكون سـافرت الى دمشق لتلتجىء الى معاوية بعد أن نجحت فى قتل الامام على منافسه ، فحزم أمره وقصـد الى دمشق على ناقة تسابق الرياح

اما قطام فكانت قد علمت من ريحان بقدومه فى الليلة التى وصل فيها الى الـكوفة ، اذ عاد اليها ريحان واخبرها بما دار بينه وبين بلال عبـد خولة ، وحكى لها ما فضحه هذا من سره وكيف كان سببا فى انكشاف امره لدى سعيد فلم يعد يصدقه ولم يرض المجيىء معه الى بيتهـا ، فحنقت على بلال وعلى سيدته خولة ، وشعرت مع كرهها لسعيد بالغيرة تأكل قلبها من اجل علاقته بخولة ، ولاسيما ان هذه كانت عونا على عرقلة مساعيها لقتـل الامام على ، فأضمرت لها السوء ولكنها شغلت عنها تلك الليلة بما كانت فيه من انتظـار الفتك بعلى . وكان ابن ملجـم بائتا عنـدها . فلمـا كان الفجر خرجت هى وعجوزها وعبدها ، وضربت قبتها فى المسجد كما تقدم . وفى ذلك من الجراة ما فيه ، ولم تكن تخشى كشف حيلتها لمـا دبرته من ارسالها لبـابة المحتالة بالصك بعد تغييره الى قنبر حاجب الامام

نجاة معاوية

قتــل الامام علي ، ورأت قطــام انه قد قبض على ابن ملجــم كما توقعت فسارعت الى الفرار بعبدها وعجوزها الى مكان خارج الـكوفة ، وقد شفت حزازة صدرها بقتل الامام . ولكنها بقيت ناقمة على سعيــد وزادت نقمتها بعدما علمته من امر خولة، فعزمت على الذهاب الى الفسطاط، لتشي بها الى عمرو ابن العاص لاعتقادها انه لا بد مقدر لها ما انبائه به عن سر اجتماع العلويين . ولم يخامرها شك فى نجاح وشـــايتها بخولة ، لانها من انصـــار على ، فيقتلها اذا كان هو قد سلم . اما اذا كان قد قتل، فانها لن تعجز عن تدبير حيلة اخرى. واستشارت لبابة فيما عن لها فاستحسنت رأيها ، وحسنت لها المسير الى الفسطاط . واستشارت ريحان فقال لها : « انى فى ركابك ، اينما توجهت» . فاثنت على غيرته ، واصبحت فى اليوم التالى قاصــدة الفسطاط على ان تمر بدمشق وتستطلع حال معاوية وما كان من امره بعد ١٧ رمضان . فاذا كان قد قتل ، فتحمل الخبر الى عمرو ، وتحرضه على طلب الخلافة لنفسه

فلما وصلت الى دمشق سمعت ان رجلا اسمه البرك بن عبد الله التميمى الصريمى ، قعد لمعاوية فى فجر ١٧ رمضان فى مسجد دمشق . فلما خرج معاوية للصلاة شد عليه بالسيف فوقع السيف فى اليته . فلمـــا اخذوه اليه قال له : « ان عندى خبرا اسرك به ، فهل ينفعنى ان انبئك به ؟ »

فقال له معاوية : « نعم »

قال : « ان اخا لى قتل عليا هذه الليلة »

فقال : « لعله لم يقدر على ذلك »

قال : « ان عليا ليس معه احد يحرسه . فلا بد أن يكون قد قتله »

فامر به معاوية فقتل ، ومضى هو يطبب جرحه

فلما علمت قطام بنجاة معاوية لم يبق لديها الا الشخوص الى الفســـطاط للايقاع بخولة

□

اما عبد الله فلبث فى ســـجنه بمصر وقلبه واجف لمـــا يخشى من حبوط

المؤامرة . وقد خطر له أن يحتاط لذلك ، فلما باح لعمرو بالسر اشترط عليه الا يطلع احدا عليه لأنه اذا شاع وبلغ خبره المتآمر فقد يعدل خطتــه ، فيقدم الميعاد أو يؤخره ، واقتنع عمرو بهذا ، فكتم امر المؤامرة عن كل الناس حتى صاحب شرطتــه . أما أبو خولة فقد كان من أكثر النــاس تقربا من عمرو ، واعظمهم غيرة عليه ، وكان عمرو يثق فيه ، على انه لولا رغبته فى معاتبته على خيانة صهره ابن ملجم لما كشف له الامر

فلما كان ليل ١٧ رمضان اخذ القلق من عبد الله مأخذا عظيما لعلمــه انه اصبح بين الحياة والموت . فلما كان الصباح وهو فى سجنه يطل من كوة ليرى أو يسمع ما يجرى وصل الى اذنيه لغط لم يفهم منه شيئا صريحا ، فانتظر حتى جاءه الحارس بالطعام على عادته ، فعلم منه ماحدث ، فاطمــأن . وبعد العشاء جاء أحد رجال عمرو الى السجن فحل قيوده ودعاه الى مجلس الامير ، فمشى فى أثره وهو يرى نفســه قد خرج بذلك من عداد الاموات . فقــاده الرجل الى قاعة جلس فيها عمرو بن العاص على وسادة ، وفى يده درة (سوط) يلاعبها بين أصابعه ، وليس فى القاعة احد سواه . فلما اشرف عبد الله على القاعة نزع حذاءه ودخل توا الى مجلس الامير وهم بتقبيل يده ، فأمسكه ابن العاص بيمينه وأجلسه الى جانبه وهو يقول بصوت منخفض : « لقد كانت نجاتنا على يدك فحق لك علينا التكريم ، ولكن وقع صاحب شرطتنا فى الشرك الذى كان منصوبا لنا ، ولوعلمنا الساعة أو المكان المعينين لتلك الفعلة الشنعاء لاستطعنا تداركها ، أو لأطلعت خارجة على سر الامر فربما كان نجا بنفسه ، ولكنى لا أظنه كان يستطيع ذلك وهو لايعلم الزمان والمكان المعينين »

فقال عبد الله : « ان حياتى كانت رهنا ببقاء الامر سرا ، ولو أنه شاع لغير الغادر خطته تأخيرا أو تقديما ، وكنت انا المقتول الآن بدلا من خارجه ، لأنك كنت تسىء الظن بى فتقتلنى »

ولم يتم كلامه حتى دخل خادم يقول : « ان أباخولة بالباب » . فقال عمرو : « أدخلوه »

فدخل أبو خولة ولم يكن من مصــاف الامراء ولا من القواد الانداد حتى تكون له تلك المنزلة عند عمرو ، ولكنه نال الحظوة عنده عندما أطلعه على عزم ابن ملجم على قتل على . وظل يتردد على دار عمرو ويبذل وسعه فى خدمته حتى عده عمرو من أصحابه

فلما دخل أبو خولة القاعة حيى ، وقبــل أن يجلس قال له عمرو : « اغلق الباب ، ومر الخدم الا يأذنوا لأحد » . ففعل ودخل . فدعاه عمرو الى جانبه وعرف اليه عبد الله ، فأعجب أبوخولة به لأنه كان شابا جميلا مع نباهة وذكاء ، وسر لما دبره عمرو من مصاهرته له . وأما عبــد الله فكان خالى الذهن من كل هذا

فلماجلس الثلاثة التفت عمرو الى عبدالله وقال له : « لقدعرفتك بصاحبنا ابى خولة ، وازيدك علما انه من اعز اصدقائى ، وقد كتمت أمر المؤامرة عن كل احد سواه ، ولكننى اشترطت عليه شرطا اظنه يعود عليك بالمنفعة ، وقد فعلته مكافأة لك على خدمتك لى »

فوقف عبد الله متأدبا وقال : « اياذن لى مولاى فى كلمة ؟ »

قال : « قل » . قال : « لاتحسب ايها الامير أن لى فضلا بما بحت لك به ، فانى والحق يقال انما فعلته استبقاء لحياتى ، فلاتظننى اخدعك أواخدع نفسى »

فاعجب عمرو بصراحة عبد الله وقال له : « لم تزدنى بما قلت الا رغبة فى مكافاتك ، ان ابن العاص لايجهل قدر الرجال وليس من السذاجة بحيث لايدرك انك لو لم تقع فى يده وتشعر بالخطر على حياتك وبألا نجاة لك بغير افشاء ذلك السر ، ما أقدمت عليه . ولكنى مع كل ذلك أقدر جميلك ، وأريد مكافاتك . وقد رايت من صدق قولك ما أكد لى انك لو كنت من أنصارنا لكان لنا بك نعم النصير ، وانت اموى على ما علمت فليس تشيعك للعلويين معقولا » . قال ذلك وفى صوته غنة استفهام كانه يستفهم عن سبب تشيعه فسكت عبد الله . فقال عمرو : « ولكنك لم تسألنى عن المكافأة التى اعددتها لك »

قال : « قلت انى لا استحق مكافأة »

قال عمرو : « امتزوج أنت ؟ »

قال : « كلا يا مولاى »

قال : « اذن فاعلم ان فى الفسطاط فتاة يتحدث بجمالها وتعقلها اهل هذه المدينة ، وهى ابنة صاحبى هذا (واشار الى ابى خولة) . ولا أخفى عليك انها كانت مخطوبة لعبد الرحمن بن ملجم ، وهو أحد المتآمرين على قتلى وقتل على بن أبى طالب ، ولا ندرى ما كان من امره اليوم فانه الموعد المضروب »

ولما قال عمرو ذلك تذكر عبد الله ما كان قادما من أجله مع سعيد وكيف فشلت مهمتهما فانقبضت نفسه ولكنه تجلد وصبر الى آخر الحديث

فاتم عمرو كلامه قائلا : « ان خولة هذه كانت مخطوبة لابن ملجم ، على ان يتزوجها بعد عودته من الكوفة ، ولا ريب ان ذلك الخائن كان عالما بتواطؤ عمرو ابن بكر على قتلى فكتم ذلك ، وسار ولم يطلعنى على شىء منه ، ولهذا عددته شريكا فى قتلى ، فحرمته من خولة ، ولى دالة على ابيها لانها بمنزلة ابنتى ، وقد خطبتها لك منه ، ومتى رايتها تحققت ان قد ازوجناك زهرة الفسطاط وخير بناتها » . ثم التفت عمرو الى أبى خولة وقال : « ولا تظننا فرطنا فى خولة ، فان هذا الشاب من سلالة الامراء ، ويكفى انه أموى وبينه وبين الخليفة معاوية نسب قريب . أما الخائن ابن ملجم فان عاد الينا فلا ابقانى الله ان ابقيته حيا . ولكننى لا أظنه الا مقتولا فى دار ابن ابى طالب فاز فى مهمته أم لم يفز » .

قال ذلك والغضب باد على وجهه ، ففرح عبد الله بما ناله من الحظوة في عيني عمرو ، وارتاح لما سمعه عن خولة ، ولكنه بقي قلقا على ابن عمه سعيد ، وما كان من امره بعد أن فارقه في مسجد الفسطاط يوم اجتماع عين شمس . وحدثته نفسه ان يسال عمرا عنه مخافة أن يكون وقع في أيدي رجاله ، ولكنه لبث ساكنا يتردد ، وقد نسي اقتراح عمرو . فظنه عمرو غير راض فقال : « ما بالك لم تجب ؟ لعلك لم ترض بخولة ، والله انى ارضاها لأعز أبنائى »

فابتدره عبد الله قائلا : « عفوك يامولانا ، كيف لا ارضى بما رضيته انت لي ؟ وما سكوتي الا لأنى حسبت اقتراح الامير أمرا نافذا لاخيرة لي فيه ، على انى ارجو أن تسألها هي رأيها في الزواج بغريب مثلي »

فقال ابو خولة : « ان خولة جارية مولانا الامير ، وما يرضاه لها لامندوحة لها عنه ، وانا وهي طوع ارادته »

واستولى السكون عليهم لحظة ، ثم التفت عمرو الى عبد الله فقال : «كنت اظنكما اثنين جئتما معا الى الفسطاط ، ولكننى لم أر سواك »

فاضطرب عبد الله ، ونظر الى عمرو وقال : « هـذا هو الامر الذى شغل بالي في أثناء حديث مولاى . ان رفيقي هو ابن عمي ، وقد جئنا معا الى هذه المدينة ولكني يممت عين شمس وحدى وتركته في المسجد على ان أستطلع المكان واعود اليه ، فقبضوا على ولم اعد اعرف شيئا عنه الى الآن . فهل عثر الشرطة به فقتلوه ؟ »

قال عمرو : « لم أسمع عنه شيئا ، ولا اخبرنى احد بخبره ، فقد يكون نجا بنفسه لما سمع بما وقع لكم في ذلك الاجتماع »

فهدأ روع عبد الله ، ولكنه ظل مشتاقا لاستطلاع حال سعيد وتمنى ان يسير توا الى الكوفة فيستطلع كل شيء ويتحقق ما وقع للامام علي ، ولكنه خجل من ابداء رأيه هذا لعمرو ، ورأى أن يتظاهر بالرغبة في السفر للبحث عن ابن عمه فقال : « لقد أوضحت لمولاى ما انا فيه من القلق على ابن عمي هذا ، فهل يأذن لي الامير بالذهاب الى الكوفة لأستطلع حاله ثم اعود ، وأكون في خدمتك الى الممات فقد أوليتنى جميلا لا أنساه ؟ »

قال عمرو : « يكون ذلك بعد عقد قرانك بخولة ، حتى اذا صرت من أصهارنا ، كان لك أن تسير الى حيث شئت »

وكان عمرو لدهائه وحسن سياسته قد ادرك ان رجلا حرا صادقا مثل عبد الله لايفرط فيه . لأنه اذا اخلص الخدمة كان نفعه عظيما . فلم ير لكي يقيده خيرا من أن يبادئه بالجميل ، وأن يزوجه ابنة صاحبه وهو يحسب خولة على دعوته فتحبب اليه الرجوع الى حزب الامويين . ولم يكن يعلم آنئذ هل نجح ابن ملجم في مهمته بالكوفة أم لا . فلما اقترح على عبد الله عقد قرانه قبل السفر ، قبل عبد الله وأطاع ، فضرب عمرو أجلا لذلك وقال :

« تقيم عندنا فى أثناء ذلك ضيفا كريما ، فاذا آن الزمن عقدنا لك على خولة ثم تنصرف للبحث عن ابن عمك »

فوقف عبد الله بين يدى عمرو يهم بتقبيل يده وقال : « لقد غمرنى فضلك ولست بمستطيع ان أفى يدك على حقها » . واستأذن فى الخروج فأذن له

وخرج ابو خولة أيضا وهو يكاد يطير فرحا لما رأى من خلق عمرو . وسره الخطيب الجديد لابنته ، فسار توا الى المنزل وكانت خولة جالسة هناك على مثل جمر الغضا تتقاذفها الهواجس بعد أن تحققت نجاة عمرو وعلمت بما فرضه من زواجها بعبد الله . بينما هى تؤثر البقاء على حب سعيد وهو أول من وقع فى نفسها مع عدم نفورها من عبد الله ، فلما كان المساء وأبطأ أبوها فى العودة الى البيت قلقت ولبثت تنتظره بفارغ الصبر لعلمها انه لابد من مروره بعمرو على أثر ماكان من نجاته فى ذلك اليوم. وحسبت لابطائه ألف حساب. واخوف ماخافته من ذلك الابطاء أن يكون سببه البحث فى أمرها وأمرعبد الله وهى لاتريد ذلك.

□

فلما انقضى العشاء ومضى بعده ساعتان سمعت قرع الباب فأسرعت دقات قلبها وعلت وجهها صفرة الوجل، وظلت مستلقية على الوسادة فى حجرتها ، وما لبث باب الدار أن فتح. فاتجه أبوها توا الى غرفتها فقرع الباب فنهضت لتفتح له وركبتاها تصطكان من الاضطراب. فدخل والمصباح فى يده فوضعه على مسرجة وجلس اليها وعلى محياه أمارات البشر والسرور ، وهو يحسب أن قد جاءها ببشرى عظيمة . فرآها مضطربة الحواس قلقة الخاطر رغم تجلدها ، فقال لها : « ما بالك يا بنية ما الذى أزعجك ؟ »

قالت : « لم يزعجنى شىء ، ولكننى قلقت لغيابك وانا وحدى فى هذا البيت لا ارى فيه أحدا غير الخدم »

قال وهو يبتسم : « لقد دنا الوقت فلن تكونى وحدك بعد الآن »

فتجاهلت مراده وقالت : « يظهر أنك علمت بما أقاسيه من الوحدة فعزمت على الا تتركنى وحدى ؟ »

فضحك لسذاجتها وقال لها : « ليس هذا قصدى ياخولة ، ولكننى اذكرك باقتراح الامير الذى اطلعتك عليه منذ بضعة أيام ، فانه قد تم اليوم بعد أن صدق قول عبد الله الاموي ، فجمعنى عمرو به الليلة فى داره ، فرأيته شابا جميلا عليه مهابة الامراء ، تتجلى الشجاعة والانفة فى وجهه . ويكفى أن الامير سحر به وبالغ فى إطرائه امامى. فهذا هو خطيبك ومتى عقد قرانكما لاتكونين وحدك »

ولم يتم كلامه حتى صبغ وجهها حمرة الخجل وظلت صامتة ، ثم أخذ العرق ينسكب عن جبينها كاللؤلؤ المنثور وهي مطرقة لاتفوه بكلمة

ولم يكن الخجل وحده سبب اضطرابها كما ظن ابوها ، ولـكنها أصبحت كريشة في مهب الريح حائرة بين ان تطيع عواطفها وبين ان تطيع اباها واميرها . ولو أنها لم تبعث الى سعيد مع بلال بخبر حبها له لكانت المعضلة أيسر ، وقد علمت أنها اذا رفضت عبد الله رفضا باتا تغضب عمرا واباها . وهي مع ذلك لاتدرى مصير سعيد ولا ما آلت اليه مهمته بعد خروجه من الفسطاط مع بلال ، ولم تر فرجا الا بالاصطبار فصبرت حتى يعيد ابوها السؤال فتستمهله

أما هو فلما آنس فيها ذلك الاضطراب حمله محمل الخجل ، وهو أمر عادى في الفتيات في مثل هذه الحال . فوضـع يده على شعرها المسدول على كتفها وقال لها : « لا تخجلي يا بنية ، ان اباك هو الذى يخاطبك ، وقد تم الامر على يد الامير وهو شرف كبير لنا لو تعلمين »

فأجابت وهي مطرقة وقالت : « وهل ضرب لذلك اجلا ؟ »

قال : « لقد ضرب أجلا لذلك أسبوعا »

قالت : « فليكن ثلاثة أسابيع »

قال : « وما الداعي الى هذا التأجيل فاني اخشى أن يغضب عمرو فأطيعيني وعلى تبعة ذلك . فان عبد الله فتى قلما يجود الزمان بمثله ، وانى بمصاهرته لفخور فلا محل للاعتراض » . قال ذلك وفي كلامه شيء من الخشونة على عادته معها إذا أصر على أمر . فخافت سـوء العقبى اذا جادلته فسكتت وأظهرت الارتياح . فلما رآها هكذا قال لها : « بورك فيك يا بنيـة ، بعد أسبوع تتم معدات الزواج »

فظلت مطرقة وقد عزلت على اتخاذ وسيلة اخرى للتأجيل

الزفاف الكاذب

اما عبد الله فأخـذ فى البحث عن بيت يقيم به ، وبينما هو فى ذلك جاءه بعض رجـال عمرو واخبروه بأن الامير قد امرهم بأن يعدوا له منزلا فى داره ضيفا عليه . فازداد عبد الله اعترافا بجميل عمرو ، وفرح لأنه غريب لايدرى أين يذهب . وتبـع الرجل الذى كلمه الى غرفة فيها فراش وغطـاء وبعض الآنية ، وسأله الرجل : « هل تحتاج الى طعام ؟ » . فاعتذر وســار توا الى فراشه

ولما خلا بنفسه جعل يفكر فى نجاته وصورة ابن عمه سعيد عالقة بذهنه لاتبرح ذهنه . على انه اطمأن على حياته ، وأحب أن يتم ما أتى الفســطاط لأجله ويعلم ماحدث للامام على

وكانت ذكرى خولة تعترض تصوراته واشــتاق رؤيتها والتحدث اليها ، وقضى ليله هكذا

ولما اصبح سار الى المسجد فصلى وهو يتوقع ان يرى ابا خولة لعله يدعوه الى منزله فيتيسر له رؤية خولة ولو خلسة . وكان أبو خولة قد مر بالجامع فى ذلك الصباح عمدا ، فلقيه فسلم عليه ودعاه الى العشاء فقال له : « انى فى ضيافة الامير ولا يليق بى قبول الدعوة الا بعد استئذانه »

فقال : « انا أستاذنه عنك »

قال : « حسنا » . وافترقا . فمشى عبد الله فى طرق الفسطاط واسواقها ، فمر ببيت خولة وهو لا يعرفه . وكانت خولة قد اصبحت فى ذلك اليوم مضطربة قلقة ، فخرجت تمشى فى الدار فوقع نظرها على عبد الله وهو مار ، ولم تكن رأته من قبل ، ولكنها استنتجت من لباسه وقيافته وشبهه سعيــدا انه هو عبد الله خطيبها ، فاختلج قلبها فى صدرها ونفرت لأول وهلة ، ولكنها ارادت ان تتبين حاله فتفرست فيه وهو ماش فراته معتــدل القوام رشيق الحركة فارتاحت لرؤيته وسرت به لمشابهته سعيدا ولكنها ما لبثت ان نفرت منه لما تذكرت انه سيحرمها من حبيبهــا وما زالت تتبعه بنظرها حتى توارى ولم ينتبه

وعادت خولة الى غرفتها منقبضة النفس، وقضت نهارها لم تذق طعاما . ولما كان الغروب آن موعد مجيىء أبيها ، وكان الخدم قد أعدوا المائدة له ولضيفه وخولة لاتدري . وما عتم أن دخل الدار ، وسعل على عادته كانه ينبه اهل المنزل الى مجيئه . فتظاهرت خولة بارتياحها الى قدومه ولكنها تمارضت ومالبثت أن رات معه شابا عرفت انه عبدالله فخفق قلبها وسادها الاضطراب، وتوارت فى حجرتها

وأما ابوها فذهب بضيفه الى قاعة الضيوف ، واجلسه هناك ، وجاء الى خولة فرآها مستلقية على الفراش، وقد امتقع لونها فنحفزت للنهوض وهى تتظاهر بالضعف . فقال : « ما بالك ياخولة ؟ »

قالت : « لا شيء ، غير انى أشعر بانحطاط فى قواى لا أدرى سببه »

فدنا منها وهمس فى أذنها قائلا : « شددى عزمك فقد جاءنا ضيف عزيز »

فأجابت متجاهلة : « مالى وللضيوف ؟ انى لا استطيع النهوض لمقابلة الضيوف »

قال : « ان الضيف أصبح من انسبائنا ولا بأس من رؤيته نزولا على امر الامير عمرو بن العاص »

فقالت : « ولكننى منحطة القوى . دعنى الآن وسأراه فى فرصة اخرى وأنا فى عافية ان شاء الله »

قال : « لقد كنت أظنك أكثر رغبة منى فى رؤيته بعد ان ابلغتك امر خطبتك له ، أيليق بنا الآن ان نظهر له الجفاء »

فتحيرت خولة ولم تدر بماذا تجيبه وهى تخشى غضبه لما تعلمه من سوء خلقه وحمقه ، فظلت صامتة

فامسك بيدها وانهضها ، فوقفت مرغمة وسارت معه مطرفة ، فلما وصلا الى باب الغرفة وقف وقال لها : « ضعى خمارك على راسك وتشجعى واستقبلى الرجل بما يليق بامثالك ، لئلا يبلغ عمرا عنا مايدل على عصيان امره فيغضب »

فرأت خولة من الحكمة أن تتجلد وتصبر اشفاقا من غضب ابيها ، فخفت الى خمارها فوضعته على راسها وأصلحت هندامها وخرجت فى أثر ابيها حتى دخلا على عبد الله

وكان عبد الله قد استبطأ مجيئها فحمله على محمل الخفر والدلال ، وازداد شوقا الى رؤيتها ولو المامة . فلما اشرفت على الغرفة وتبين جمالها واعتدال قوامها انشرح قلبه وحمد الله على توفيقه بعد نجاته من الموت . فدخلت وحيت بما يجدر بمثلها فى مثل هذا المقام ، وجلست على وسادة بجانب ابيها

وكان عبد الله يسارقها اللحظ فلا يزداد الا اعجابا بها ، ولم تمض تلك الليلة حتى علق بها ووقعت من نفسه موقعا ساميا لما آنسه من جمالها وذكائها وتعقلها في اثناء الحديث مما يندر مثله في امثالها من ربات الخدور . فخرج مأخوذا بخولة

□

قضى عبد الله بقية الاسبوع في مثل ذلك ، وهو يتردد على بيت خولة ويزداد تعلقا بها . ولما ازف يوم الزفاف دعاه عمرو اليه وقال : « اريد ان اعقد لك عليها في داري ، وتقيما عندنا حتى يتراءى لكما غير ذلك » . فعل عمرو ذلك التماسا لما عزم عليه من كسب عبد الله الى حزبه ، فشكر له عبد الله ، ولما حل الميعاد زفت خولة الى عبد الله ، وعقد قرانه بها على العادة المتبعة ، وعبد الله مفعم سرورا بهذا التصيب ، ولولا ما يجول في خاطره من القلق لغياب سعيد والخوف على الامام على لكان اسعد خلق الله لأنه رأى في خولة ما طالما تاقت اليه نفسه في النساء من التعقل والرزانة مع الجمال والذكاء

فلما انفض حفل العرس دخل العروسان الى مخدعهما

فلما خلا عبد الله بخولة تقدم لنزع الغطاء عن وجهها فأمسك النقاب ورفعه فأعادته الى ما كان عليه ، فظنها تداعبه فضحك وقال لها : « يلوح لي انك لا تحبين عبد الله ؟ »

قالت وهي مطرقة : « يعلم الله اني لا اكرهه »

فمد يده الى النقاب ثانية وحاول رفعه فمنعته . فتحير في أمره ، وامسك يدها وقال بلهجة الجد ونغمة المحب العاتب : « ما بال خولة تمنعنا مما احله الله ودعانا اليه القلب ؟ »

وكانت خولة واقفة بجانب الفراش فابتعدت عنه واسندت ظهرها الى الحائط تبالغ في غطاء النقاب مطرقة ولم تحر جوابا

فاستغرب عبد الله سكوتها وتمنعها وظن في الامر خديعة ، فاظهر الجد وهو لايزال قابضا على يدها حتى وقف بجانبها وقال لها : « ما الذي اراه ياخولة ؟ ما الذي تحدثك به نفسك ؟ ان كنت انما تفعلين ذلك خفرا فهو غلو لا محل له وقد عقد قراننا بحضور امير مصر ونخبة الاعيان والامراء . وان كنت قد اكرهت على القبول وانت تحبين غيري فقولي »

فلما قال ذلك رفعت رأسها اليه ، وجذبت يدها من يده بلطف وقالت : « نعم اني احب غيرك ، ولكنني قلت لك اني لا اكرهك بل احبك محبة الاخ لا محبة الزوج »

فبغت عبد الله وعلته الدهشة ، وكاد الغضب يغلب عليه لو لم يتجلد ليعرف جلية الامر . فنظر اليها غاضبا وقال : « لقد رأيت منك العجب ،

واعجب منه احتقارك اياى مما لم أكن أتوقعه بعد ~~عصـرك~~ هلا كشفت عن السبب ؟ »

فأمسكت النقاب وازاحته عن وجهها وقالت : « انى لا ارى الحجاب واحد بينى وبينك ، و لاأنا خائفة من اطلاعك على ما فى ضميرى . ولـكننى أسأل سؤالا اذا اجبتنى عنه بحث لك بسرى »

فقال : « اسألى فانى مجيبك »

قالت : « كيف رضيت عقد قرانك وابن عمك غائب ؟ »

فقال : « وأى ابن عم تعنين ؟ »

قالت : « أعنى ابن عمك سعيدا الذى جئت معه الى الفسطاط ، الا يهمك أن تعرف ما آلت اليه حاله ؟ »

فاستغرب ذلك منها ، ولم يكن يعلم اطلاعها على شىء من ذلك فقال : « من أين لك أن تعرفى ابن عمى وما جئت من اجله الى الفسطاط ؟ »

فتنهدت وقالت : « عرفته بقدر من الله ، وانى أعجب من نسـيانك تلك المهمة التى جئتما من أجلها . هل تظن الامام عليا نجا من القتل ؟ »

فازداد عبد الله استغرابا ، ونسى ما كان يعد به نفسه من قربها وهاجت به اشجانه ، وتذكر ابن عمه فقال : « لقد أذهلتنى ياخولة بما سمعته منك ، فافصحى عما فى ضميرك واخبرينى كيف عرفت ابن عمى وما العلاقة بينـه وبين تمنعك الليلة ؟ »

قالت : « اتعدنى بالكتمان وحفظ الذمام ؟ »

قال : « نعم أعدك وعدا صادقا ، فافصـحى فليس لى صبر على هـذه الرموز »

فتنهدت وعلت وجهها حمرة الخجل ، وهمت بالكلام فارتج عليها ، وعبد الله يتأمل ملامحها ويراقب ما يبدو منها صامتا ، فلما لم يسمع منها شيئا . قال لها : « بالله لاتطيلى السكوت فقد نفدصبرى ، قولى مابدا لك وفرجى كربتى»

قالت : « أقول ولاأخشى لوما انى احببت سعيدا قبل أن أراك ، وهوأحبنى على ما أظن ، وحبنا قائم على اشتراكنا فى الدود عن الامام على ما استطعنا . وقد ذهب سعيد ضحى الليلة التى اغرق فيها عمرو أصحاب عين شمس ، وهو يظنك فى جلة الغرقى . ولا اظنه اذا عرف بقاءك حيا الا طائرا اليك من الفرح » . وقصت عليه حديثها مع سعيد من أوله الى آخره

ولم تكد خولة تتم حديثها حتى استولت الدهشة على عبد الله ، وخيـل اليه انه فى حلم ، ولما تحقق أن خولة تحب سعيدا وثابتـة على حبه ، أحس لساعته انه لم يبق له حق فيها . وازدادت رفعة فى عينيه فقال لها : « اعلمى ياخولة انى اعدك أخا لى من هذه الساعة ، وانى سـأبذل جهـدى فى جمعك

بسعيد فانه بمنزلة اخي . وقد أوصيت بكفالته وصية مقدسة ، وقد احسنت انت بما بسطته من حقيقة حالك ، وعلى هذا سأسافر غدا الى الكوفة ، لابحث عنه واستطلع ماجرى للامام على »

فابتدرته خولة قائلة : « لا تعجل ياعبد الله فى ذهابك ، لأننا لانلبث بعد قليل ان نسمع الخبر من عبدى بلال الذى رافق سعيدا الى الكوفة ، فقد أوصيته بالعودة حالا واظنه يصل الينا بعد أيام . وأما الآن فاكتم مادار بيننا واجعل كأنك زوجى ريثما نرى مايكون »

فالتفت عبد الله اليها وقد ازداد اعجابا بحميتها وثبات جاشها ، وقال : « انى اهنىء أخى سعيدا بمثلك ، وارجوان يكون قد نجا من مكايد الغادرين » .
وقد اراد بذلك قطام ، فانه ما زال يسيء الظن بها وقد أدرك انها هى التى وشت بهما الى عمرو بن العاص

فقالت : « انى اتوقع رجوع بلال لاسمع منه ما آلت اليه حال الامام على ومعاوية ، هل نجا احدمنهما . اما عمرو فقد نجا والفضل فى ذلك راجع اليك »

فقال : « ولكننى انما بحت بذلك لعمرو فرارا من الهلاك ، ولم أذكر له المؤامرة على قتل معاوية لئلا يبعث اليه بمن يحذره فينجو »

قالت : « انى لم الك قط... فهذه مشيئة الله . فالآن لابد من الصبر فامض الى فراشك وانا أفترش هذا البساط »

قال : « لا والله انك لاتبيتين الا على الفراش وانا اولى بهذا البساط »

وباتا تلك الليلة ، وقد سرت خولة بنجاتها مما كانت تخشاه . واما عبدالله فانه بات معجبا بخولة كل الاعجاب وقد أسف لحرمانه منها بعد أن عرف فيها هذه الخصال . ولكنه فرح لأنها ستكون من نصيب سعيد

واصبحا فى اليوم التالى والناس لايعلمون الا انهما زوج وزوجة ، وظلا مقيمين فى دارالامير حتى قدرت خولة دنوالوقت الذى كانت تتوقع رجوع بلال فيه ، فاستاذنت فى المضي الى بيت أبيها مخافة أن يأتي بلال فى أثناء غيابها فيطرده ابوها او يتهدده فلا يراها هناك فيعود من حيث أتى

فوافقها عبد الله على ذلك ، واستأذنا عمرا فى الذهاب الى بيت ابيها فأذن لهما فاستقبلهما ابوها بالترحاب

□

ولم يمض يومان على مكثهما فى بيت خولة حتى قدم بلال ، وكان وصوله الى الفسطاط فى أثناء النهار ، وابو خولة فى حانوته ، وكان بلال قد دخل الفسطاط متنكرا فمر بحانوت سيده ونظر اليه خلسة فلما وجده هناك هرول الى البيت ودخل توا الى غرفة سيدته بلا استئذان ، فوجد عندها

شابا لايعرفه ، ورآهابجانبه كأنها جالسة الى شقيق أو قرين . فبغت لذلك ولكنه أخذ بما آنسه من ترحابها به فقالت له : « اغلق الباب وادخل» . ففعل ودنا منها وهو ينظر الى عبد الله شزرا . فادركت خولة ما يجول فى خاطره فقالت له : « لاتسيء الظن ، ان هذا أخى بعهد الله فاقصص عليناخبرك ، وقل لنا باديء ذى بدء كيف فارقت الامام عليا ؟ »

فسكت ولم يجب ، فألحت عليه وقد ذهلت ، فأجابها بصوت مختنق : « ان عليا ذهب ضحية الغدر »

فدقت خولة يدا بيد وصاحت : « وا لهفي عليك يا أبا الحسن » . وقال عبد الله مثل ذلك . ثم قالت : « وماذا جرى لابن ملجم ؟ » . قال : « انه قتل شر قتلة وأحرق بالنار لعنه الله »

فقال عبد الله : « وكيف فارقت سعيدا ؟ »

قال : « فارقته بخير وعافية وقد سار للبحث عن تلك الخائنة اللعينة »

قال عبد الله : « أو تعنى قطام ؟ »

قال : « نعم ، وما أدراك ، انى أعنيها ؟ وكيف عرفتها ؟ »

قالت خولة : « الم تعلم من هذا ؟ » . قال : « كلا »

قال : « ألم يذكر سعيد أمامك انه فقد ابن عمه هنا »

قال : « بلى » . قالت : « هذا هو عبد الله ابن عمه »

فبهت بلال وغلب عليه البكاء من الفرح وصاح : « انت حى يامولاى ! من لى بمن يحمل هذه البشرى لابن عمك ؟ . والله انى حاملها اليه الساعة بعد ان أسر الى سيدتى كلاما اؤتمنت عليه »

فالتفتت اليه وقالت : « قل يا بلال ، ليس على عبد الله سر ، فهو أخى كما قلت لك . قل كيف فارقت سعيدا ؟ »

قال : « فارقته يامولاتي وهومشتاق لرؤيتك ، ولم يأت معي مخافة أن يكون عمرو قد نجا من المكيدة فلا يامن على حياته . وقدعلمت وانا مار فى الفسطاط الساعة انه نجا وقتل غيره خطأ ، ولا أدرى كيف حال سيدى معك فلا آمن عليكما منه »

قالت : « اعلم يا بلال ان ابن العاص نقم على ابن ملجم ورضي عني ، وهو يحبنى حبه لأولاده . وهو لايعرف سعيدا ولا أبى رآه ، فاذا جاء لم يكن عليه بأس وشانه فى الفسطاط شأن كل غريب يدخلها . فاقصص علينا خبر ابن ملجم والامام على وكيف قتله »

ثم أمرته بالجلوس فجلس متادبا وقص عليهما الخبر . فلما بلغ الى حديث قطام وما ارادته من قتل سعيد هاجت فى نفسها الغيرة والانتقام وقالت :

« قبح الله هذه المراة ، انى اعرفها واسمع بدهائها فكيف انطلت حيلتهـا على سعيد ؟ »

فابتدرها عبد الله قائلا : « انى والله توسمت فيهـا الشر عنـدما رايتها » وقص عليها ماكان من امره معها ، فانكشفت لهما الحقيقة وشكرا الله على نجاة سعيد ، ولكنهما حزنا على مقتل الامام على ، ثم استدركت فى حديثها فقالت : « وهل سمعت شيئا عن معاوية ؟ »

قال : « لقد مررت بدمشق فى طريقى فعلمت انه نجا ايضا . وقص عليها خبره كما سمعه فعجبت لأحكام القضاء كيف تسمح بقتـل على وتبقى على معاوية وعمرو ، ثم قال عبد الله : « واين سعيد الآن ؟ »

قال : « هو فى انتظارى بدمشق ، فاذا امرت مولاتى عدت اليه حالا وجئت به على عجل ، وأرجو أن يكون قد ظفر بتلك الخائنة وانتقم منها ، واذا لم يظفر هو بها فلست انا بتاركها حتى أنتقم منها لما ارتكبته من الاجرام »

قالت خولة : « بورك فيك يابلال ، فاذهب الآن وات بسعيد على عجل »

فقال : « وهل آتى به الى بيتك هنا ؟ »

فاستصوبت خولة سؤاله ، لأن مجيئه الى بيت ابيها يعقد الامور ، فنظرت الى عبد الله كأنها تستفتيه فى الامر فأشار اليها بأنه يريد البحث معها فى ذلك سرا

فالتفتت الى بلال وقالت : « اخرج الآن قبل أن يأتى أبى وهو ناقم عليك ، لاعتقاده انك فررت بالجملين من داره ، وانتظر عبد الله فى المسجد الليلة وهو ينبئك بما تفعل »

العزم على الكوفة

خرج بلال وبقي عبد الله وخولة على انفراد فقالت خولة : « وما العمل يا عبد الله ؟ اخاف اذا جاء سعيد واردنا الطلاق أن ينفتح علينا باب للأخذ والرد ونحن نود كتمان الأمر فما الرأى ؟ »

قال : « أرى أن نلتمس من عمرو الاذن بالخروج من الفسطاط والذهاب الى الكوفة ، فقد كنت طلبت منه ذلك فأخرني الى ما بعد عقد القران . فهم لايعرفون الآن الا انك امراتي ، والرجل يذهب بامرأته حيث شاء . فلاذا سرنا الى الكوفة واوصينا بلالا بأن يوافينا بسعيد الى هناك عقدنا قرانكما هناك ، ولا رقيب علينا ولا واش . واذا طاب لنا ان نعود الى الفسطاط عدنا بعد ذلك والا فاننا نقيم بالكوفة الى ما شاء الله »

فصمتت خولة برهة تفكر فى الامر ، فرات عبد الله مصيبا فقالت : « نعم الراى رايك ، ولكننى اعتدت الحياة فى الفسطاط والفت الاقامة بواديها ولى فيه الاهل والاصدقاء ، فاذا اتيح لى البقاء فيها كان أولى وابقى »

قال : « لا انكر ذلك ، وهو ميسور لك فيما بعد ، واما الآن فلا ارى خيرا من الذهاب الى الكوفة »

قالت : « واخشى الا ياذن ابى فى ذهابنا الى الكوفة فهو يريدنى ابدا بقربه ، وليس له سواى فلا اخاله يرضى بغير اقامتنا هنا »

قال : « نحتال ونتملقه حتى يأذن لنا ولو بعد حين ، ونوصي بلالا بأن يخبر سعيدا ان يبقى بانتظارنا حتى نأتيه »

قالت : « افعل ما بدالك وعلى الله ألتوفيق »

قال : « فلنعد الآن الى دار الامير ، فان خروجنا من عنده اسهل ، لأنه هو الذى وعدنى باخلاء سبيلى للبحث عن ابن عمى سعيد ، فأذكره بوعده ولا اظنه يمنعنا من السفر »

قالت : « نبيت الليلة هنا ونصبح الى دار الامير »

قال : « حسنا » . فلما كان العصر خرج الى المسجد ، فوجد بلالا فى انتظاره فأوصاه بان يذهب بسعيد الى الكوفة ويبقى بها حتى يأتيا اليه ، فسر بلال وابتسم وقال : « هذا ماكنت ارجوه من مولاى ، لأنى اقدر على الانتقام من قطام اللعينة اذا كنت بالكوفة »

فضحك عبد الله وقال : « واوصيك اذا انت ظفرت بها بالا تعفوعنعجوزها لبابة فانها شر منها »

□

ولما راى عبد الله نفسه بباب المسجد ، والصلاة قائمة والناس يدخلون افواجا ، دخل مع الداخلين . فراى ابن العاص على المنبر يعظ النـاس وهم صامتون ، فوقف حتىانتهىعمرو منخطبته وانفضت الصلاة، فهم بالخروج. ولم يكد يبارح صحن المسجد حتى اعترضـه بعض الشرطة قائلا : « تمهل يامولاى ان الامير يستوقفك لأمر يريد أن يخاطبك فى شأنه » .

فقال : « واين الامير ؟ »

قال : « كان فى المسجد ، وقد ذهب الآن الي داره من باب فى المحراب »

قال : « وهل يريد مقابلتى الآن ؟ » . قال : « نعم »

فاضطـرب عبـد الله وخاف أن يكون قد وشى به أحـد ممن اطلعوا على مهمته فى الفسـطاط ، ومشى حتى اقبل علىمجلس عمرو ، وكان اذا وصل الى المجلس دخل بلا استئذان . فلما هم بالدخول اعترضه الحاجب قائلا : « تمهل حتى نستأذن لك » . فوقف عبد الله ودخل الحاجب ثم عادفقال : « ان الامير يريد الخلوة بك هذه الليلة ، فاذا اتيت فى المشاء تعال وحدك »

فاستغرب عبد الله ذلك الشرط ، واشكلعليه المراد منه ، فاستزاد الحاجب ايضاحا وسأله : « هل المراد أن آتى وحدى من غير خولة ؟ »

قال : « اظن هذا هو مراده ، فانه قال : (ليات وحده لكلام سـألقيه اليه على انفراد) . »

فعظم الامر على عبد الله وحسب لذلك الف حسـاب . ولم تكن الشمس قدمالت الي الغروب فعاد الى البيت والهواجس تتقاذفه وظهرت عليه علامات القلق ، فلما اقبل على خولة ورأتعلى وجهه آيات الاضطراب ابتدرته قائلة :

« ما بالك ياعبد الله ؟ ماذا أصابك ؟ انى أرى فى وجهـك قلقا ، قل رعاك الله ما اوجب ذلك ؟ »

قال : « ليس هناك ما يوجب القلق » . واعتذر وابهم

فلم تقنع ، ولكنها سكتت على أن تستطلع السر بلباقة بعد قليل . فقالت : وهل رايت بلالا ؟ »

قال : « نعم وقد أوصيته بما يقوله لسعيد » .

قالت : « وهل سافر ؟ »

قال : « اظنه يستريح الليلة خارج الفسطاط ويرحل فى الغد مبكرا »

وفيما هما يتحادثان جاء أبوها والغضب باد عليه وكانت خولة تعرف حاله لو النظر اليه . فلما رأته هكذا ازداد اضطرابها وجعلت تفكر فى غضب الاثنين . فخطر لها انهما تخاصما ولكنها لم تجد سببا لذلك . ولم تجسر على سؤال والدها ، ولم ترد أن تلح على عبد الله فتركت ذلك الى الاختلاء به

وبعد قليل حضر الطعام فجلسوا اليه وليس فيهم من يتكلم الا تفضلا

فلما انتهى عبد الله من طعامه نهض وقال لخولة ولأبيها : « انى ذاهب فى حاجة تقتضى غيابى ساعة » . وكأن قوله جاء طبق ما يرجوه أبو خولة ، فلم يسأله عن سبب ذهابه ولم يطلب منه التعجيل بالعودة

فازدادت خولة حيرة وظلت ساكتة ، ولم يخطر لها أن لذهاب عبد الله علاقة بما بدا لها فى وجهه من الانقباض . ولكنها رافقته الى باب الدار وتوسلت اليه الا يطيل الغياب . فأجابها بأنه لايدرى متى يعود ، ولم يشأ أن يبوح لها بسبب ذهابه ولا ترك لها فرصة للاستفهام ، فودعها وخرج وهو يسرع فى مشيته ، وأفكاره تائهة فيما عسى أن يكون غرض عمرو من دعوته اليه فى مثل هذا الوقت

ولما وصل الى دار عمرو خفق قلبه مخافة ان يسمع من الحاجب خبرا جديدا يزيد بلباله فلم يزد الحاجب على قوله : « ان الامير فى انتظارك فى غرفته »

فمشى عبد الله يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، حتى وصل الى الباب فاذا هو مغلق فقرعه ووقف ينتظر فتحه فسمع خطوات تسرع نحو الباب يتخللها همس لم يفهم منه شيئا . وبعد هنيهة فتح الباب فاذا بعمرو نفسه يفتحه بيده ، فبغت لما رآه أمام عينيه وعلى وجهه دلائل الغضب . فحياه عبد الله فلم يزد عمرو على قوله : « وعليكم السلام » . وسار الى صدر الغرفة فتبعه عبد الله وهو ينظر الى جوانب المكان لعله يرى أحدا . فلم يجد . فالتبس عليه الامر لما سمعه من الهمس وهو واقف خارجا . ولكنه رأى فى جدار من جدران الغرفة بابا عليه ستار والباب يستطرق الى غرفة اخرى فظن ان احدى نسائه كانت عنده فلما علم بقدومه صرفها من الباب الآخر واستقبله . وظل يفكر فى ذلك وهو ماش فى أثر عمرو . فلما جلس هذا على مقعده وقف عبد الله بين يديه ينتظر أمره بالجلوس ، فأشار اليه فجلس على وسادة بالقرب منه وهو ينتظر ما يقوله وقد نفد صبره

سكت عمرو لحظة وهو يعبث بدرة (سوط) كأنه يتشاغل بها عن قلق يخامر ذهنه ، ففتح عبد الله الحديث قائلا : « كيف حال مولاى الامير ، وما الذي يأمر به عبده فقد لبيت دعوته وأنا راج أن يكلفنى أمرا أقوم بقضائه جزاء لبعض ماله من اليد على ؟ »

فالتفت اليه عمرو وهو يمشط لحيته وقال : « انما دعوتك لأسألك سؤالا واحدا ، وارجو أن تصدقنى الجواب بما أحسبنى أجزلته لك من الجميل

وابقيت عليك بعد أن رايت الموت رأى العين »

فوقف عبد الله احتراما وقال : « يعلم الله انى لا انسى جميلا أوليتنى اياه ، باغضائك عن جريمة اقترفتها ، ثم بانعامك على بحياتى وهى خيرهبة ، فكيف لا اصدقك القول ؟ » . قال ذلك وقلبه يخفق خوفا من سماع ما قد يكون سبب نقمته عليه

فاقعده عمرو وقال : « بلغنى اليوم من مطلع على احوالك انك انما جئت الفسطاط مع رفيقك سعيد للفتك بى فهل هذا صحيح ؟ »

فنهض عبد الله ثانية وقال ولهجة الصدق بادية على وجهه : «كلا يامولاى ، ان ما بلغته كذب وافتراء »

قال : « وما الذى جاء بكما اذن ؟ »

قال : « اما وقد سألتنى ، فاسمح لى بأن أقول الحق وارجو منك ان تصدقنى »

قال : « قل الصدق ولا تبال ، فلا بأس عليك الا اذا رايت فى كلامك عوجا فلا تلم الا نفسك »

قال : « أقسم براس الأمير انى لا أقول غير الحق ، ولكن حديثى طويل فهل ابسطه كله ؟ »

قال : « اجبنى أولا عن سؤالى موجزا ، فاذا رايت مايدعو الى التفصيل طلبته . سألتك عما دعاكما الى المجيء الى الفسطاط والاجتماع بتلك الزمرة المعادية ؟ »

قال : « انما جئت للبحث عن الغادر الطامع فى قتل الامام على »

قال : « ولماذا ؟ » . قال : « لكى أبذل جهدى فى زجره وانقاذ الامام من الموت ؟ »

قال : « كيف تفعل ذلك وانت اموى على ما اعلم ؟ »

قال : « لقد الجأتنى يا مولاى الى بعض التفصيل . الم تعرف جدى ابا رحاب ؟ »

قال : « بلى أعرفه وقد سمعت بوفاته قريبا »

قال : « نعم انه مات وقد كان الى يوم مماته يكره عليا ويدعو الى قتله ، ولكنه فى يوم مماته استحلفنى واستحلف ابن عمى سعيدا الا نبغى شرا بعلى، بل اذا رأينا سبيلا الى الدفاع عنه أن نفعل ، فلما سمعنا بالمؤامرة علمنا أن المتآمر من أهل مصر ، ولكنا لم نعلم من هو فجئنا للبحث عنه وردعه بالتى هى أحسن . ولم نر سبيلا لمعرفته الا عن طريق اصحاب عين شمس لأنهم على دعوة على »

فقال : « ألم تكن عالما ايضا بتآمر رفيق ابن ملجم على قتلى ؟ »

فقال : « بلى ولولا ذلك لم أستطع اطلاعك عليه »

قال : « وكيف لم تطلعني عليه حال قدومك ؟ ألا تعلم انك تعد شريكا مع القاتل ؟ » . قال ذلك ولحيته ترقص غضبا ولسان حاله يقول : « لقد لزمتك الحجة وتبينت خيانتك »

فقال : « نعم اعلم ذلك ، ولكن حلمك قد وسعني من قبل فعفوت عما مضى وغمرتني بانعامك ، فاذا رأيت أن تعود الى مطالبتي به كان لك الامر . ولكنني لا اخال مولاى الامير اذا عفا عن مذنب يعدل عن عفوه »

فلما سمع عمرو كلامه افحم وسكت

وشعر عبد الله عند ذلك بقوة انبثت فيه ، وثارت الحمية فى راسه فهم بأن يستأنف الكلام فابتدره عمرو قائلا : « لقد علمت انك عرفت خولة قبل ان أخطبها لك ، وأنها كانت عالمة بخبر المؤامرة فكيف لما ذكرتها لك ليلة الخطبة تجاهلتها ؟ »

فارتبك عبد الله ولم يدر كيف يجيب ، ولكنه ما لبث ان استرد رباطة جاشه ، فاعتزم التزام الصدق على طول الخط فقال : « حاش يامولاى أن اخدعك ، فاني وراسك وكل غال عندى ، لم اكن اعرف هذه الفتاة قبل ان تذكرها لى »

قال : « وما تقول فى اطلاعها على خبر المؤامرة ؟ »

فتحير عبد الله فى الجواب ، ولكنه تخلص فقال : « ليس لى ان اجيب عنها ؛ فهي جاريتك ورهن اشارتك ، فادعها للمثول بين يديك واسألها ، ولا اشك فى انها تقول الصدق . ولكنني ارغب الى مولاى أن يخبرني عمن وشى بنا اليه لعلنا نكذبه بين يديك »

قال : « ساجمعكم جميعا واسمع حجتكم جهارا ، فاذا سمعت أقوالكم جازيت كلا بما يستحقه . اذهب الى فراشك عندنا ، وعد الينا غدا » . قال ذلك ونادى « ياغلام » . فدخل حاجبه فقال له : « خذ عبد الله الى غرفة يبيت فيها الليلة واتني به غدا متى دعوته » . فقال الحاجب : « سمعا وطاعة »

وخرج عبد الله والحاجب يسير امامه ، حتى دخل به غرفة فى دار الامير التمس فيها النوم ، ولكنه لم يغمض له جفن طول ذلك الليل

واصبح عبد الله حائرا ، لايدرى أيخرج الى الامير ام ينتظر حتى يدعوه اليه . ولبث جالسا حتى الضحى واذا بالحاجب قدجاء يدعوه الى مجلس خاص عقده الامير فى غير مكان مجلسه العادى ، فمشى وهو يفكر فيما عسى أن يكون امر تلك الجلسة ، ومن هو الواشى ، وهل تستطيع خولة الدفاع عن نفسها بما يضمن نجاتها

ولاحت منه التفاتة الى ساحة الدار ، فراى عبدا تذكر أنه رآه فيما مضى ،

ولم يلبث ان عرف انه ريحان عبد قطام فاختلج قلبه وقال في نفسه : « انها والله وشاية هذه الخائنة ، واظنها أرسلته الى عمرو »

وما زال ماشيا يفكر في ذلك وقد زلزل زلزالا عظيما ، حتى راى الحاجب دخل من باب ، فدخل هو في اثره ، فاذا هو في قاعة تصدرها الامير عمرو بن العاص ، كانه جالس للقضاء وعليه جبة بيضاء ، وعلى راسه عمامة كبيرة ، وقد قعد الاربعاء على وسادة من الدمقس ، وفي يده الدرة والسبحة معا . فتقدم عبد الله نحوه وحياه دون أن يلتفت الى سواه . فأمره عمرو بالجلوس ، في فتور لم يعهده فيه في مقابلاته الاولى . فجلس عبد الله في بعض جوانب الغرفة ، وارسل نظره فرأى الى جانبه اباخولة ، وعن يسار عمرو ثلاث نسوة قد ارسلن النقاب على رؤوسهن فلم يظهر منهن غير العيون من ثقوب فيه .

فعرف منهن خولة ولم يكن يجرؤ على التفرس في الأخريين حياء . فجلس وهو يسترق اللحظ ويفكر ، فخطر له ان احداهما قطام ، جاءت هذه المرة لانفاذ حيلتها بنفسها . ثم ما لبث أن عرف الاخرى فاذا هي لبابة العجوز ، فتحقق انهما وشتا به وبسعيد . وكانت قطام قد خلعت الحداد على ابيها واخيها بعد قتل الامام علي ، فارتدت كساء من الحرير الاحمر الفاقع المزركش بالقصب ، من صنع فارس ، لا يستطيع لبسه الا الاغنياء . وكان نقابها مزركش الاهداب يدل على بذخ وترف . وتصور عبد الله جمالها وفصاحتها وحيلتها فعلم انها غلبت عمرا على رايه ، فأخذ يتأهب للدفاع

ومضت برهة والكل صامتون ، وعمرو ينظر الى الارض والدرة في يده كانه ينكت البساط بها ، وبده الأخرى على لحيته يداعب شعرات منها بين انامله ، والاهتمام باد في وجهه . ثم رفع بصره ونظر الى الباب ونادى غلامه ، فدخل فقال له : « لاتأذن لأحد » . قال : « سمعا وطاعة » . وخرج

ثم التفت عمرو الى ابي خولة وقال : « أهذا جزاء احساني اليك يااباخولة ؟ »

فوقف ابو خولة وقد عرته دهشة وقال : « ماذا حدث يامولاي ؟ . اني ما زلت مخلصا لك ، خادما لمقاصدك »

قال : « ربما كنت كذلك ، ولكن خولة هذه (واشار اليها) تواطىء الناس على قتلي ، وتسعى في انقاذ ابن ابي طالب »

فلما سمع أبو خولة قوله ، مشى مسرعا حتى امسك ابنته وقال : « اني لا أعرفها الا جارية من جواري مولاي ، فاذا ارتكبت شيئا من ذلك فاني اذبحها بين يديك » . قال ذلك وجذبها كانه يريد تقديمها لعمرو

فقال له عمرو : « عد الى مكانك ، ودعها تتكلم ، فاني لا أريد أن اعاقبها الا بعد مقاضاة ، فاذا صح ما قيل عنها كان القتل أخف قصاص لها »

فلما سمع عبد الله تلك اللهجة الشديدة ، اختلج قلبه في صدره ، وخاف عاقبة تلك الجلسة ، ولكنه تجلد وصبر

دعوى قطام على خولة

ثم التفت عمرو الى خولة وقال : « ما قولك يا خولة ؟ »

فوقفت وقالت بصوت رائق وجاش ثابت : « ماذا أقول يا سيدى ؟ وأنا لا أعرف التهمة التى وشى بها اليك الواشون . فاذا تنمعتهـا ذكرت لك الحقيقة ، ولك الأمر بعد ذلك ، فاذا استوجبت القتل فما أنا خير ممن قتل من رجال الاسلام فى هذه الفتنة ! »

فعجب عمرو لتلميحها الى الأحداث التى وقعت أخيرا فقال لها : « مالك ولهذا الكلام يا خولة ؟ قولى ما جوابك عن سؤالى »

قالت : « اذا كان الأمير حرسه الله قد جعل دمى حلالا ان ثبتت التهمة على فلا أقل من أن أسمع التهمة الموجهة الى »

قال : « صدقت وسأمد لك فى حبل الدفاع حتى تبدى كل ما لديك منه ، ولا أظنك الا مقرة بجنايتك ، لأنها ثابتـة ثبوت النور فى النهار » . قال ذلك ثم أمرها بالجلوس ، فجلست

فقال عمرو وقد وجه حديثه الى قطام : « ما قولك يا قطام فى خولة ، وما تعرفينه عنها ؟ »

وكانت قطام لما ارتاح بالها من أمر على وقتله ، وعلمت مما دار بين خادمها وبين بلال خادم خولة انها تحب سعيدا وهى التى وجهت عبـدها معـه واستحثته فى الوصول الى على قبل انقضاء الأجل المضروب لقتله ، قد حملتها الغيرة ، وهاجها حب الانتقام وطاوعها خلق السوء الذى فطرت عليه ان تأتى الفسطاط لتشى بها وبسعيد ، وهى لا تشك انها تثبت الخيانة عليهما فتتقرب بذلك من عمرو فتنال حظوة فى عينيه ، فتقيم عنده مكرمة أو يتزوجها أحد أبنائه . وكان عمرو يعرفها من قبل ، فأسرعت الى الفسطاط ومعها عجوزها وعبدها ، فوصلت اليها أمس ، وأسرعت الى عمرو وبشرته بمقتل الامام على ، ووشت اليه بخولة وانها كانت متواطئة مع سعيد على انقاذ الامام على ، وانهما كانا يعلمان خبر المؤامرة على عمرو وسكتا عنهـا ، وقد كانا يستطيعان لو اخلصا له أن يطلعاه عليها . فأعارها عمرو أذنا صاغية ، وبعث الى عبد الله كما تقدم . ثم رأى من الحزم أن يجمعهم ويسمع أقوالهم قبل اصداره حكمه

فلما قالت خولة قولها ، وطلب عمرو من قطام أن تبسط التهمة ، نهضت ومشت خطوتين نحو الأمير ، وثوبها المزركش يجر وراءها تيها وبذخا . ثم وقفت وقالت بلسان مبين : « أما ما يسألنى الأمير عنه فلا أحتاج فى اثباته الى دليل. وتفصيل الأمر أن مولاى الأمير يعلم اخلاصى له ورغبتى فى خدمته، حتى اننى عندما سمعت بمجتمع العلويين فى عين شمس بعثت اليه رسولا يخبره خبره . ولو لم أجد من أبعثه فى تلك المهمة لجئت بنفسى . ولم أذكر هذا الدليل الصغير الا تدليلاً على اخلاصى . أما خولة واطلاعهــا على خبر المؤامرة فأمر لا شك فيه لانى أعلم علم اليقين أن سعيدا ورفيقه هذا (وأشارت الى عبد الله) لما قدمنا الفسطاط كانا عالمين بخبر تلك المؤامرة ، وقد سمعت ذلك منهما باذنى . وهما انما أتيا للاجتماع بالعلويين . وبعثت يومئذ عبدى بخبر ذلك الى مولاى الامير ، فلما عاد عبدى أخبرنى أن جند الأمير قبضوا على العلويين ، وأن عبد الله وسعيدا فى جملتهم . ولم يكن يعلم أن سعيدا نجا بمساعدة خولة هذه . اما أنا فانى عرفت ذلك لما عاد سعيد الى الـكوفة مسرعا ، لاطلاع على بن ابى طالب على خبر المؤامرة ، غيرة منه عليه . وقد ترك حياة الأمير عمرو بن العاص فى خطر . وكان رفيقه فى عودته بلالا خادم خولة هذه ، فانه صحبه الى الكوفة ، وهناك التقيا وعبدى ريحان ، واتضح له من خلال الحديث أن بلالا وخولة عالمين بسر الأمر . ولما لم ينجح مسعاهما فى انقــاذ على ، قنعــا بأن يكون مولاى حرســـه الله قد أصيب بما أصيب به ذاك . ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه من مخالب الموت وحرسه بعين عنايته. فترى يا مولاى مما قدمته أن خولة كانت عالمة بخبر المؤامرة ، كما كان يعرفها عبد الله وسعيد ، فلو كانت مخلصة لمولانا الأمير ما كتمتها عنه »

فقال عمرو : « وما الذى يثبت لنا أن سعيدا وعبد الله كانا عالمين بالمؤامرة على قتلى لما أتيا الفسطاط ؟ »

وكانت لبابة العجوز صامتة الى تلك الساعة ، فلما طرح عمرو هذا السؤال ابتدرته هى قائلة : « لا شك انهما كانا عالمين لأنهما أخبرانا بها ليلة سفرهما الى الفسطاط »

□

كانت قطام تتكلم وخولة مطرقة تفكر بماذا تجيب . أما عبـــد الله فانا لعن الساعة التى أتت فيها تلك الخائنة ، وخاف على خولة أن تتلعثم أو تفحم بالأدلة التى قامت على اتهامها

أما أبو خولة فلم يكد يسمع حديث قطام حتى استشاط غضبا ، وصاح فى خولة بأعلى صوته : « الله عليك يا خائنة ، لقد فهمت الآن تلاعبك ونفاقك»

ثم التفت الى قطام وقال : « متى لقى عبــدك عبــدى مع ذلك الرجل فى الكوفة ؟ »

قالت : « ليلة ١٧ رمضان »

فاطرق برهة ثم اقترب من خولة وجذبها بيدها الى وسط القاعة وقال لها : « لقد انكشف لى القناع الآن وعلمت سبب سفر بلال ، فقد ارسلته مع حبيبك ليساعده على انقاذ أبى تراب (على بن ابى طالب) . وقلت لى : (أنه فر بالجملين) . والواقع أنه أخذهما معه ليركب هو ورفيقه » . ثم التفت الى عمرو وقال : « أن أبنتى يا سيدى تستحق القتل ، فاقتلهــا أو دعنى أقتلها بين يديك »

فوقف عبد الله وقد ثارت فيه الغيرة على خولة ، وهو يظن سكوتهــا خوفا أو ارتباكا ، لأنه لم ير ملامحها من وراء النقاب ، فأمسك اباها وقال برزانة وسكينة يخاطب عمروا : « ألتمس من مولاى الأمير وقد أمر ان تكون خولة زوجة لى ، أن يوقف أباها عند حده ، فهو الآن لا يملك من أمرها شيئا . أما اذا اقترفت هى ذنبا يستوجب قصاصا فالأمر فيه لمولاى وليس لاحد سواه »

وكان عمرو قد اقتنع بثبوت الجريمة على خولة ، ولكنه احب أن يسمع دفاعها ، ورأى عبد الله يتكلم بحق وعدل ، فقال لأبى خولة : « دع خولة فانت كما قال عبد الله لا تملك من أمرها شيئا »

فتنحى أبو خولة وهو يلهث ويدمدم ، ولحيته ترتعش على صــدره . وتنحى عبد الله أيضا وخولة لا تزال واقفة . أما قطام فقد أزاحت خمارها فبان الابتهاج على وجهها لنجاح مهمتها

فقال عمرو : « ما بالك يا خولة لا تدافعين عن نفسك ؟ . أليس ما قالته قطام عنك صحيحا ؟ هل كنت عالمة بخبر المؤامرة على قتلى ؟ »

قالت : « نعم »

قال : « وهل عاونت سعيدا على انقاذ الامام على ، فأرسلت معه خادمك وجمليك ؟ »

قالت : « نعم كل ذلك صحيح »

فتعجب عمرو وسائر الحاضرين من صراحة اقرارها ، وقد كانوا يتوقعون انكارها أو تلعثمها أو سكوتها . فلما رآها تجيب بهذه الصراحة قال لها : « وكيف تظهرين الغيرة على صاحب الكوفة (على) مع علمك ان اباك لايريد ذلك ، ثم لا يخطر ببالك أن تخبرى اباك بالمؤامرة على قتلى لــكى يطلعنى عليها ؟ . الا تعلمين أن عملك هذا يعد خيانة تستوجبين عليها القتــل ؟ . وها انى لا أزال أطيل لك حبل الدفاع لأسمع كل أقوالك ، فاخبرينى كيف

تكونين على غير ما يريده أبوك وأمير البلاد ؟ وكيف تسعين فى انقاذ على بن ابى طالب ولا تسعين فى انقاذ امير مصر ؟ »

وقبل ان تهم خولة بالجواب اعترضتها قطام قائلة : « ارى مولاى الامير يتعب نفسه بما لا طائل تحته . هل بعد اقرارها الصريح شيء ؟ . وهل لهذه الخائنة من دواء الا القتل ؟ »

▭

قالت خولة وهى تنظر الى قطام شزرا : « سوف يتضح من هى الخائنة ، وقد كان يجدر بك التادب فى حضرة الأمير ، فانه أعلم منك بقواعد الحكم ».

ثم وجهت خولة خطابها الى عمرو وقالت : « أرجو من الأمير ان يطلق للساني الحرية لأقول كل ما يجول فى خاطرى »

قال : « قولى ما بدا لك »

قالت : « اما سبب مخالفتى ابى فى رايه وتحزبى للامام على ، فلأنى صادقة مخلصة فى فكرى وقولى ، وهو المنحرف المتقلب . وما كنت لأصف ابى بهذا العيب لو لم يضطرنى الى ذلك »

قال عمرو : « وما معنى هذا ؟ »

قالت « يعلم مولاى الأمير ان ابى ربى فى نعمة الامام على ، وانا فى حجره ، مع ايماننا بأنه ابن عم الرسول (صلعم) وانه على الحق فى اعماله » . فأراد ابوها ان يقطع حديثها ، فاعترضه عمرو والزمه السكوت فقالت : « فلما كانت وقعة صفين كان ابى فى جملة من خالفه من الخوارج فى أمر التحكيم . فهو الذى انحرف عنه . أما أنا فظللت على رأيى ولا أزال عليه الى اليوم »

فقال عمرو وهو معجب بشجاعتها : « ولكن عليا شارك الجهال فى قتل الخليفة عثمان ، فقتلوه ظلما ونحن انما قمنا نطالب بدمه »

قالت : « اما مقتل الخليفة عثمان فارجو من مولاى الأمير الا يلجئنى الى الخوض فى شأنه ، لأنى ربما اضطررت الى ما اتجنب ذكره »

قال : « وما الذى يخيفك بعد ما ابديته من الجرأة »

قالت : « يخيفنى غضب الأمير لأمر يعلمه »

قال : « قولى كل ما يبدو لك ولا تخافى »

قالت : « أما مقتل الخليفة عثمان فلا اظن مولاى عمرا الا من الراضين به »

فبغت عمرو وقال : « كيف تقولين ذلك يا خولة ؟ »

قالت : « ألم يكن مولاى فى جلة المحاصرين لعثمان ؟ ألم تقل له : (قد ركبت يا عثمان أمورا ركبناها معك ، تب يا عثمان وارجع الى الله) . فاسمعك

هو كلاما جارحا . ثم لما قال لك : (انى تائب) . قلت له : (رأيناك تتوب ثم تعود) . . »

قال : « وهل يؤخذ من ذلك أنى كنت اريد قتله ؟ »

قالت : « كلا ولكنه يدل على أنك كنت ناقما عليه »

قال : « انما كنت ناقما عليه ليرجع عن أعماله ويبقى على خلافته »

قالت : « لو كان هذا قصدك فقط لما فرحت بقتله »

فذهل عمرو من سعة اطلاعها على خفايا الأمور فسألها : « وما دليلك على ذلك ؟ »

قالت : « دليلى قريب اذا أمننى الأمير قلته »

قال : « قولى »

قالت : « الم تكن فى فلسطين يوم قتل عثمان ؟ فكنت اذا لقيت احدا حرضته على قتله ؟ الم تحرض عليا وطلحة والزبير عليه ؟ . ثم لما جاءك رجل اخبرك بمقتل عثمان ، ألم تقل : (أنا عبد الله اذا حككت قرحة نكأتها) . . ؟ »

فلما سمع عمرو قولها استغرب جرأتها وغضب لتصريحها بأمور كان يود كتمانها ، ولكنه كان قد أمنها . وكان داهية يحول الكلام كيف يشاء فقال لها : « لقد أعجبنى دفاعك يا خولة ولكننا لسنا فى معرض الدفاع عن على أو عن عثمان ، ولا يهمنا انحرافك أو انحراف أبيك ، وانما يهمنا أطلاعك على خبر المؤامرة على قتلى ثم سكوتك الى آخر ساعة وابوك بين يدى كل يوم فكأنك اشتركت فى المؤامرة » . قال ذلك وهو يحسب أنه سد عليها أبواب الدفاع . وكان أشد الناس خوفا عليها عبد الله وقد خيل اليه أنها لم تعد تستطيع دفاعا بعد اقرارها السابق

أما هى فهمت بالكلام فاذا بقطام تقول : « انى لأعجب من حلم الأمير ، وما يرجوه من دفاعها عن ذنب اعترفت به صريحا »

فلم تعبأ خولة بكلام قطام ولكنها أجابت عمرا قائلة : « انى لا أنكر عليك عظم هذا الذنب بالنظر الى ما كنت ترجوه من قيامى بأمر الخوارج وموافقة ابى على تأييد أمركم وتصديق دعواكم ودعوى معاوية من انكم على الحق ، وقد قدمت لمولاى أنى فعلت ذلك وانا على دعوة الامام على فذنبى من هذا القبيل لا يعد شيئا بالنظر الى ذنب هذه المراة (وأشارت الى قطام) التى انما جاءت بهذه الوشاية غيرة عليك وضنا بحياتك فاتهمتنى بالخيانة لأنى كنت عالمة بخبر المؤامرة ولم اخبرك بها . فما الذى منعها هى عن اخبارك بذلك يوم أرسلت عبدها عبد السوء للوشاية بأصحاب عين شمس . فاذا كانت هذه المراة صادقة فى دعواها ألم تكن هى أولى منى باطلاعك على ذلك الأمر ؟ اسألها وانظر فى جوابها »

فانتبه عمرو وكأنه صحا من ذهول فرأى خولة على حق فى دعواها فالتفت الى قطام لفتة استفهام فلم يسمع منها جوابا . فقال لها :

« ما تقولين يا قطام ؟ لماذا لم تخبريني بخبر تلك المؤامرة »

فارتبكت واجابت مترددة وقالت : « لانى لم أكن عالمة بخبرها يومئذ »

فظهر لعمرو التلاعب فى كلامها ، ولكنه اراد تحقق ذلك فقال لها :

« ولكنك قلت الآن انك سمعت خبر المؤامرة منهما ، فهل سمعته قبل ارسال عبدك الينا او بعده ؟ »

فانخدعت قطام بسؤاله فأجابت على الفور : « لم أسمعه الا بعد سفر عبدى وكنت عازمة على ارسال غيره فلم أتمكن لمشاغل انتابتنى »

فتقدم حينئذ عبد الله وهو يكاد يرقص فرحا بخذلان قطام وقال : « ولكن عبدك يا مليحة لم يسافر من الكوفة الا بعد سفرنا ، لانه انما قدم الفسطاط ليخبر الأمير بخروجنا من الكوفة »

فأشار عمرو اليه فسكت ، وعاد هو الى السؤال فقال : « ان هذه العجوز ذكرت انكما سمعتما الخبر منهما ليلة سفرهما . فما تقولين ؟ »

فغلب الحنق على قطام فقالت : « هذه عجوز حمقاء غلب عليها الخرف فلا يعتد بقولها »

فغضبت لبابة لعقوق قطام واهانتها اياها على هذه الصورة ، وهى تعتقد فضلها عليها فقالت لها : « أنا لم اقل ذلك الا بعد قولك ، تبا لك من خائنة . كيف تقولين ان الخرف غلب على وأنت انما غلب عليك النفاق ؟ »

فاشتد حنق قطام ولم تعد تعى ما تقول لفشلها وخجلها فقالت : «اخرسى يا مجنونة ولا تتكلمى بين يدى »

فقالت لبابة : « بل أنت المجنونة وانت الخائنة ، واذا لم تلزمى حدك اطلعت الأمير على سرائرك وفضحت أمرك »

فقالت : « وماذا عسى ان تقولى وأنت خادمة لا يعتد أحد باقوالك ؟ »

وكانت لبابة قد تحققت وقوع قطام فى شر اعمالها ، فأرادت ان تخلص نفسها وتنجو بحياتها ، فلم تر أهون عليهـا من التخلى عن قطـام بفضح اسرارها فقالت على الفور : « ان أسرارك كلهـا فى يدى ، واذا اذن مولاى الأمير كشفت له عن كل شيء »

فسرت خولة وعبد الله بذلك الخصام . اما عمرو فرأى لدهائه وتعقله ان خولة ممن يحرص على صداقتهن ، وانها اذا كانت على دعوته لا يخشى انقلابها . وأما قطام فانها اذا اخلصت له اليوم لا يأمن أن تخونه فى الغد فقال للعجوز : « قولى ياخالة ماذا تعرفينه ؟ »

فاخذت لبابة تسرد حديث قطام مفصلا من أوله الى آخره ، والكل مصغون صامتون ، ففضحت أسرارها ، وعرف عمرو أن ارسالها عبدها اليه لم يكن حبا له ولا نصرة لحزبه ، بل انتقاما من سعيد وعبد الله . وتبين لديه أن هذين انما اندفعا للدفاع عن على بوصية جدهما أبى رحاب ، واتضح له جليا أن قطام خائنة لا يوثق بقولها ولا يعتمد عليها ، وأن بقاءها على قيد الحياة شر على العالمين . ولم يكن اعتقاده فى لبابة بأحسن من ذلك لأنه رأى خيانتهما راى العين فصمم على التخلص من كلتيهما

وكانت قطام فى أثناء حديث لبابة واقفة وقوف الصنم ، وقد جمد الدم فى عروقها واصطكت ركبتاها . وكانت فى أول حديث لبابة تهم بتكذيبها وعمرو يسكتها ، ثم سكتت من تلقاء نفسها . فلما فرغت لبابة من حديثها نادى عمرو : « يا غلام » . فلما جاء حاجبه أمره ان يسوق قطام وعجوزها الى السجن

□

فلما خرجتا من المكان ساد السكوت هنيهة ، وقد غرق عمرو فى التفكير فى خولة وشهامتها وصدق مودتها فرأى أنها إذا كانت على دعوته لا يخشى ضررها بل قد تكون أكبر عون له اذ يندر مثلها بين النساء ، وغلب على اعتقاده انها بعد مقتل الامام على لم يبق لها سبيل لنصرته ، فلا مانع يمنعها من الاخلاص له هو ، ولا سيما اذا عفا عنها وعن زوجها عبد الله

وبعد السكوت هنيهة خاطبها قائلا : « والآن ما قولك ياخولة ، ما الذى نصنعه بك ؟ »

قالت : « لا ابالى يا مولاى أن تصنع بى ما تصنع بعد أن بسطت لك الحق فقد صدقتك القول ، فاذا أمرت بقتلى فانى لا أزيد عدد الموتى ولا أقلل عدد الاحياء ، ولا فائدة من بقائى ولا ضرر من مماتى ، وقد ذكرت لك فى أول حديثى انه قد قتل ودرج تحت التراب من لا أقاس بأنملة من أنامله . فهل أنا أفضل من أبى بكر وعمر وعثمان ؟ أم أنا خير من ابن عم الرسول ؟ (صلعم) . فاذا شئت فاقتلنى وأرحنى من حياة لاعدل فيها ولاحق . ولكننى أطلب اليك اذا قتلتنى الا تعفو عن تلك الخائنة الغادرة » . قالت ذلك ودمعت عيناها

فتأثر عمرو من صدق لهجتها وثبات جأشها فقال لها : « واذا عفوت عنك ؟ »

قالت : « واذا عفوت فالعفو من شيم الكرام ، وتكون حياتى هبة من عندك »

فتقدم عبد الله للحال وجثا بين يدى عمرو وقال : « أرجو من مولاى إن

يهبني حياة هـذا الملك الطاهر ، كما وهبني حيـاتي فتكون يدا تضاف الى أياديه السابقة »

وكان ابو خولة واقفا وقد سحر بما ابدته ابنته من الحمية والشهامة ، وخجل لانه لم يكن صادقا في اخلاصه لعلي مثلها . فلما رأى عبد الله يلتمس العفو لابنته تقدم هو ايضا وقبل يدي عمرو وقال : « لقدكنت ياسيدى أشد نقمة منك علي خولة ، ولـكنني اراها والله خيرا مني ، وأراني أصغر منهـا فالتمس لها العفو ايضـا » . قال ذلك ونادى خولة فدنت فقال لها : « قبلى يد الامير واستغفرى لذنبك » . ففعلت

وتصافح أبو خولة وعبد الله ، وعادا الى مقعديهما ، وقد تذكر عبد الله ابن عمه سعيداً وعلاقته بخولة ، فقال فى نفسه : « انها فرصة لاينبغى ضياعها » . ثم خاطب عمرا قائلا : « أما وقد وهبتنـا حياتنا جزاء لصـدق لهجتنا ، فلا يسعنى والحالة هذه الا أن اتم الصدق بكشف سر لايزال مكتوما »

فلما قال ذلك علمت خولة انه سيتكلم بشأن سعيد ، فخفق قلبهـا وغلب الحياء عليها ، فانزوت في بعض جوانب الغرفة

اما عمرو فقال لعبد الله : « قل ما بدالك »

قال : « انت تدعوني الآن زوج خولة ، وما انا والله الا اخوها »

فبهت عمرو وابو خولة ، وقال عمرو : « كيف ذلك وقد عقد قرانكما ؟ »

قال : « نعم انها زوجتى فى الظاهر ، ولكنها لاتزال بكرا وقد آخيتهـا فهى اختى بعهد الله والرجل لايتزوج أخته »

فازداد استغراب عمرو وقال : « وكيف ذلك ؟ أفصح يا عبد الله »

قال : « ان خولة احبت ابن عمى سعيدا قبلى ، ولابد انكم لحظتم ذلك من خلال حديث قطام ، ولكننى لم أعلم ذلك الا بعد عقد قراننا ، ونظراً الى حبى الشديد لابن عمى ، وقد كفلته لدى جدى أبى رحاب ، فقد أمسكت نفسى عن خولة وآخيتها . وأعترف لمولاى الامير ، أننا تواطأنا على الخروج بحيلة من الفسطاط الى الكوفة وسعيد ينتظرنا هناك فازف له خولة »

فلما سمع عمرو كلامه ازداد اعجابا بشهامته وصـدق مودته ، ونظر الى ابى خـولة كأنه يستطلعـه رأيه فى الامر ، فاذا هو لم يكن أقل اعجـابا بتلك الشهامة ولكنه لم يتمالك عن أن ينهض ويضم عبد الله الى صدره وقبل رأسه وقال : « بورك فيك من صديق صادق ، أما وقد صارت خولة اختا لك فاقض لها ما انت قاض »

فقال : « اذا امر مولاي بعثنا الى سعيد فى الـكوفة مع بلال العبد ، فيقدم الينا »

فقال عمرو : « على الرحب والسعة » . وأمر غلامه أن يمد عبد الله بما يريده ليتمكن من استقدام سعيد

فجهز عبد الله رسولا وكتب الى سعيد يستقدمه ويبسط له واقعة الحال، وأوصى الرسول بأن يجعل طريقه على دمشق ، فسعيد كان فيها فلعله لا يزال هناك

واستأذن أبو خولة وابنته فى الانصراف الى بيته ، فأذن لهما فخرجا وخولة تفكر فى قطام ، وكانت قبل هذه الجلسة تريد الانتقام منها ، ولكنها لما رأت ماكان من فشلها انفثأت حماة انتقامها . على أنها تذكرت أن بلالا أقسم أن يقتلها ، ناهيك بحقد سعيد عليها ، فعولت أن تستعطفه لكى يعفو عنها ويكتفى بما أصابها من الفشل والاهانة

وأما عبد الله فاستبقاه عمرو عنده بقية النهار ، وبات تلك الليلة ضيفا فى دار الامير ، وقد ارتاح باله من كل جهة . ولكنه كان يفكر فى قطام وما أصابها من البلاء وكيف سيقت الى السجن مهانة وقد انكشف أمرها وافتضح سرها ، فخفت نقمته عليها واكتفى بأن تبقى مسجونة حتى يرى مايكون من أمرها بعد قدوم سعيد

وفى الصباح التالى بعث عمرو اليه ليتناول الطعام معه فذهب ، وفى أثناء تحدثهما فى شأن قطام وعجوزها ، ذكر عبد الله ما يجول فى خاطره من الشفقة عليها فقال له عمرو : « والله انه حلم لم يسبقك اليه معن . وما ظنك بخولة هل تقول مثل قولك ؟ »

قال : « لا أظنها الا على رأيى »

الجريمة والعقاب

احب عمرو ان يعرف راى خولة فى قطام فلما جاءت سألها عن رأيها فيها، فقالت مثل قول عبد الله

فقال لهما عمرو: « انى والله لأعجب من هـذا التوارد فى خواطركما، وانه دليل صريح على طيب عنصركما، وقد كنت قاتلها لو أردتما قتلها لأنها شريرة تستحق القتل. فأرى اذن ان اسجنها فى سجن مظلم لتذوق جزاء ما جنته يداها »

ثم نادى غلامه فحضر فأمره ان ينقـل قطـام الى سـجن مظلم وان يأتى بالعجوز اليه

فذهب الغلام ثم عاد مضطربا وجلا

فقال له عمرو: « ما وراءك هل فعلت ما امرت به ؟ »

قال: « لا يامولاى ». قال: « ولماذا ؟ »

قال: « لأنى وجدت الغرفة مفتوحة، وليس فيها غير جثة المرأة العجوز»

قال عمرو: « وقطام ؟ ». قال: « لم اقف لها على أثر »

فصاح عمرو: « تبا لتلك اللعينة الخائنة، هيا بنا ننظر فى الامر بانفسنا »

ونهض لساعته، وتبعه عبد الله وخولة، حتى اتوا باب الحجرة التى كانت قطام مسجونة فيها. فاذا بالعجوز صريعة لاحراك بها. فارســل عمرو الى طبيبه ليرى رأيه فى وفاتها فجاة، ففحصها هذا وقال: « انها ماتت خنقا بعد جهاد وعراك فان فى فمها حجرا ملفوفا بمنديل سد القـاتل به فاها لئلا تستغيث فيسمعها الحراس فينكشف أمره »

فقال عمرو: « ومتى كان ذلك ؟ »

قال: « اظنه وقع فى منتصف الليل أو نحوه »

ففحص عمرو باب الحجرة وعاين خلفه، فتبين له انه خلع من الخارج لأنه راى آثار الاداة التى عولج بها ظاهرة فى ظهر البـاب فقال: « يظهر ان لقطـام

شريكا ، لأن يدا عالجت الباب وفتحته ، فمن فعل ذلك ياترى ؟ »

وكان عبد الله يشارك عمرا فى الفحص ، فلما سمعه يشير الى خلع الباب انتبه لساعته وقال : « لقد كشفت الغامض وعرفت القاتل ، انه ريحان عبد قطام ، فقد رأيته فى دار الامير امس ، ولم أسمع ان الامير أمر بالقبض عليه ، فلعله اندس وخلع الباب وساعد سيدته على قتل العجوز انتقاما لها أو خوفا من لسانها »

فقال عمرو : « لقد اصبت ، انه ذلك العبد بعينه ، ثم امر بالجثة فحملت ودفنت ، وعاد الجميع آسفين لفرار تلك الخائنة من أيديهم

وامر عمرو رجاله ان يبحثوا ويأتوه بها

اما بلال فانه لما بعثه عبد الله لينتظره مع سعيد فى الكوفة ، سار الى دمشق ولقى سعيدا فروى له ما قر القرار عليه ، واستنهضه للمسير الى الكوفة ، فاستمهله يومين ريثما يقضى بعض حوائجه . وفى أصيل اليوم الثانى حملا احمالهما وخرجا على جمليهما ، على أن يبيتا فى غوطة دمشق ويستأنفا سفرهما الى الكوفة فى الصباح

وبينما هما أمام باب المدينة المؤدى الى الغوطة اذ لقيهما رسول عبد الله القادم للذهاب بهما الى الفسطاط ، وهو يعرف بلالا فأوقفه ودفع الكتاب الى سعيد فقرأه وهو لا يكاد يصدق لعظم فرحه بالقبض على قطام وبرضاء عمرو وشوقه الى خولة

وأما بلال فاسف للقبض على قطام فى غيبته ، مخافة ان يعفى عنها أو أن يقتلها احد سواه وهو يريد أن يتولى أمرها بيده

فقال سعيد للرسول : « كنا فى طريقنا الى الغوطة لنبيت فيها ونصب وجهتنا الكوفة ، فارى بعد ان حلنا أحمالنا أن نظل فى طريقنا الى الغوطة فنبيت هناك ، ونصبح فى الغد فنلتمس الفسطاط، فساروا جميعا حتى وصلوا قبيل الغروب الى بحيرة صغيرة حولها أشجار الحور تهب عليها ريح ناعمة فيسمع لأغصانها حفيف يمتزج بتغريد الطيور مما يشرح الصدر ولا ترى مثله الا فى تلك الغوطة

وبعد المغرب حطوا احمالهم ، واشتغل بلال ورفيقه باعداد العشاء

وكان بلال يعرف صاحب البستان ، وقد نزل عليه ليلة قدومه من الفسطاط ، فترك سعيدا والرسول ومشى بين الاشجار فى الظلام يتلمس طريقه الى بيت البستانى فما لبث حتى ضل الطريق لتكاثف الاشجار، وجعل يتلمس على غير هدى ويزداد بعدا عن رفيقيه حتى أصبح بينه وبينهما ميل وبعض الميل وهو لا يدرى ، فوقف ينظر من بين الاشجار لعله يرى نورا أو

يتبين المنزل . ولبث برهة يعمل فكره ويحاول ان يعرف الجهة التى ترك فيها رفيقيه لكى يعود اليهما

وفيما هو فى ذلك اذا بصوت أجفله وهو هدير جمل ، أعقبه هدير جمل آخر ، فعلم ان القادمين ركب أمسى عليهم المساء قبل الوصول الى المدينة . فمكث ينتظر وصولهم ليستأنس بهم ويسألهم عن الطريق . فأسند ظهره الى شجرة وتطاول بعنقه ليتحقق الجهة التى منها الصوت . فسمع لغطا وكلاما فأصاخ بسمعه فاذا بقائل يقول : « دعنا ننزل هنا ياريحان ، فاذا اصبحنا دخلنا دمشق لأنى اخاف أن يشك فى امرنا اذا دخلناها فى الظلام ، الا تظننا فى أمان هنا ؟ »

وسمع الجواب : « نعم يامولاتى »

فاقشعر جسمه عند سماعه ذلك الصوت اذ عرف فيه صوت قطام تخاطب ريحان وهى خائفة ، وتأكد أنها آتية فرارا من سجن الفسطاط

□

وكانت قطام لما ارسلت الى سجنها حقدت على لبابة كما مر . ونظرا الى ما فطرت عليه من اللؤم والقسوة لم يكن أسهل عليها من قتل لبابة . وكان ريحان يومئذ واقفا فى دار الامارة ، فلما رأى سيدته ولبابة سائرتين مخفورتين علم أنهما فى ضيق ، فراقب القوم ببصره حتى عرف الحجرة التى حبسوهما فيها . واعمل ذهنه لانقاذهما ، وكانوا عند وصولهم الى الفسطاط قد نزلوا فى دار الامارة فاحتال فى اخراج الجمال والامتعة الى مكان خارج الفسطاط .

ولما توسط الليل غافل الناس وجاء الى سجن قطام واخذ يعالج الباب ، فسمع لغطا فاذا هو خصام احتدم بينها وبين خادمتها . فاستعجل فتح الباب بالعنف ودخل ، فلما رأته قطام أشارت اليه أن يساعدها فى قتل لبابة فصاحت هذه : « تبا لك ياظالمة يافاجرة ، انى أتوب الى الله عما ركبت فى سبيلك من الذنوب . واما أنت فلا نجاك الله من عواقب آثامك و » . فابتدرها ريحان فسد فاها وخنقها ، وخرج بسيدته من باب كان قد أعده باسترضاء بوابه . فلما بعدا عن الفسطاط تحول بها الى مأمن كان قد أعده عند موقف الجمال . فركبا وهى تثنى على شهامته . فخيرها فى الجهة التى تسير اليها فاختارت دمشق ، لأن فيها نفرا من أهلها كانوا قد هجروا الكوفة بعد وقعة النهروان وفشل الخوارج وأقاموا بدمشق

فسارا حتى أتيا الغوطة فى تلك الليلة بعد وصول رسول عبد الله ببضع ساعات كما مر

فلما تاكد بلال انهما قطام وريحان لم يعد يقر له قرار من فرحه . وقال فى
سه : « لقد أجاب الله سؤالى . والله انى سأذيقها الموت بيدى هذه . وجس
لقته فرأى الخنجر فيها . فلبث مستظلا بالشجرة ليرى ما يكون منهما .
فاذا هما قدسارا خطوات قليلة حتى أتيا الى قناة لانحدارمائها خرير وبجانب
ة شجرة من الصفصاف يستظل بها المارة فى أثناء النهار . فنزلا عن الجملين
بحان القبة كالعادة واوقدالنار ثم قال لمولاته : « استريحى ياسيدتى
ستانى وآتى اليك ببعض الزاد والفاكهة وأنت هنا فى مأمن
ولا تطل الغياب » . فانصرف

□

وكان بلال واقفا ينظر اليه . فلما رآه توارى نظر الى قطام على بصيص النار فاذا هى قاعدة وقد كشفت عن وجهها وعنقها وشمرت عن ساعديها ، ثم رآها نهضت وضفائرها مدلاة على كتفيها وظهرها وفى أطراف الضفائر دنانير معلقة اذا تصادمت فى أثناء المشى سمع لها رنين . ومشت الى حافة القناة ودمالجها وخلاخلها تخش خشيشا . فخاف بلال اذا أبطأ أن تفوته الفرصة ، فوثب عليها وهى تهم بالجلوس على حافة القناة وامسك بطوقها وجذبها اليه فوقعت على قفاها فجثا على صدرها . فصاحت : « ريحان » . وقبل أن تتم كلامها وضع بلال قبضته فى فمها وقال لها : « لم يبق لك فى هذه الحياة الا دقائق قليلة ، فاعلمى قبل أن تفارقيها أنى بلال خادم خولة وسعيد ، وانى منتقم للامام على » . فأشارت اليه انها تريد الكلام فاستل الخنجر وصوبه الى عنقها وقال لها : «تكلمى بهدوء ، واذا رفعت صوتك أغمدت هذا الخنجر فى عنقك »

قالت : « ارحمنى يا بلال واشفق على حياتى »

قال : « لا يرحمنى الله ان رحمتك ، فقد ضافرت ابن ملجم وحرضته على قتل شابين من خيرة الشبان . ولكن حيلتك فيهما لم تنجح . وأخيرا جئت الفسطاط لاغراء اميرها بخولة . . كيف ارحمك يا خائنة ؟ »

قالت : « ذلك قد مضى يا بلال وأنا تائبة بين يديك ، فاعف عنى ، ولك كل ما أملكه »

قال : « هل يتوب الهر ؟ ! . اما العفو عنك فوالله لو عرفت قصاصا أعظم من القتل لقاصصتك به ، لأن القتل قليل على فاجرة خائنة مثلك »

فهمت أن تجيبه فادرك أنها تماطله ريثما يعود ريحان

فقال لها : « اعلمى يافطام انى قاتلك انتقاما للامام على » . قال ذلك واغمد خنجره فى عنقها وأسرع فاحتز راسها وترك الجثة ولها شخير رن فى اذنيه الى مسافة بعيدة . وكان لما راى القناة قد تعرف الطريق المؤدى الى مقر سعد. فانسل بين الاشجار وقد امسك الرأس من جدائله وتركه يتدلى والدم يقطر منه

▭

وكان سعيد ومعه الرسول قد استبطآ بلالا ، وشغلا عليه وقع اقدامه صاح سعيد فيه قائلا : « أين الفاكهة يا بلال، لقد علينا الجوع »

فلم يجبه بلال، ولكنه ظل ماشيا حتى وقف أمامه ورمى الجمجمة بين يديه وقال : « هذه فاكهتى »

فاجفل سعيد ونظر فاذا هو راس قطام بأقراطه وضفائره، فاستغرب الامر ، وسأله عن تفصيل الخبر

فقال : « ليس هذا وقت السؤال ، هلم نخرج من هده الغوطة الآن ، فاذا امنا عيون الحكومة اخبرتكما الخبر »

فنهضوا ولم يذوقوا طعاما ، وركبوا جمالهم واستحثوها جهد طاقتهم ، وهم تارة يصعدون تلا ، أو ينزلون غورا ، وآونة يغوصون فى الماء ، وطورا يدوسون الاشواك او تتصادم رؤوسهم واكتافهم بغصون الاشجار . حتى أنتصف الليل فانتهوا الى سهل قليل الاغراس وقد بعدوا عن دمشق فواصلوا السير الى الفجر ، وتحققوا انهم امنوا العيون

جلسوا للاستراحة على مصطبة بالقرب من عين ماء جارية ، وسعيد فى شوق شديد الى سماع تفصيل مقتل تلك المراة

فقص بلال حديثه وقلبه يرقص فرحا . واتماما لأسباب سروره اخرج الجمجمة من جراب كان قد خبأها فيه ووضعها على المصطبة بين يدى سعيد وكان شعرها قد تجمد بالدم ، والعينان مطبقتان والشفتان مفتوحتان عن أسنان كاللؤلؤ ، ومسحة الجمال لاتزال تتجلى فى محيا تلك المراة مع صفاء اللون واصفراره وما تلطخ به من الدماء

▭

مد سعيد يده الى جبين جمجمة قطام ، ولمسه فاذا هو بارد كالثلج فقال : « آمنت بالله كأنه سبحانه وتعالى قد كتب لى الا المس هذا الجبين الا وهو

ميت وقدكنت اشتاق لمسه منذ أعوام » . ثم وجه خطابه الى الجمجمة وقال « انت قطام بنت شحنة ؟ وقد جاز دهاؤك ومكرك على مئات من الرجال ابهاتين العينين فتنت ابن ملجم كما فتنتنى ؟ وبهاتين الشفتين أغريته بقتل الامام كما فعلت معى . انك ستلاقينه عاجلا فى مكان لا تخفى فيه خافية . فى مكان تنال فيه كل نفس جزاء ما قدمت »

ثم التفت الى بلال وقال : « ماذا نعمل بهذه الجمجمة ؟ »

قال : «نحملها الى الفسطاط لأضعها بين قدمى خولة ذلك الملاك الطاهر»

قال : « لا اظنها تسر بهذا ولاأنا سررت به . وزد على ذلك ان هذه الجمجمة لاتصل الى الفسطاط الا بعد أن تنتن وتتصاعد منها رائحة تنفر منها النفس»

فأطرق بلال هنيهة أسفا لحرمانه حمل الرأس الى خولة ثم قال : « فاسمح لى اذن أن أحمل أثرا منها »

قال : « وما هو هذا الاثر ؟ »

قال : « اقطع الاذنين وفيهما الاقراط وأقص هذا الشعر وفيه الضفائر الذهب »

قال : « لك ذلك فافعل »

ثم قرروا أن يستريحوا هناك ويتناولوا الغداء ثم يبرحوا المكان الى الفسطاط

◻

عاد ريحان من عند البستانى وقد أعد كل ما ترتاح اليه سيدته من الفاكهة والاطعمة وأمر البستانى أن يشوى بعض اليمام . ولما دنا من الخيمة سمع شخيرا كشخير النائم وكانت قطام اذا نامت شخرت وهو يعرف فيها ذلك . فقال فى نفسه لعلها غلبها النوم على أمرها من شدة التعب . ودنا منها فاذا هى بجانب القناة والظلام حالك والنار التى أوقدها قد خمدت فلم ينتبه لحالها ، فقال فى نفسه : « لأنير الشمع وأعد الطعام ريثما تفيق » . فأنار الشمع . ولاحت منه التفاتة الى سيدته فرآها تتحرك فأقبل اليها فاذا هى تختلج اختلاج النزع وقد أصبحت جثة بلا رأس ، ورأى دمها قد عكر القناة . فبغت ولطم وجهه ووقف لحظة يفكر فيمن عسى أن يكون قد فعل ذلك ، فقال فى نفسه : « لابد أن يكون قد حدث هذا بايعاز من عمرو بن العاص ، والقاتل قد فر الآن ولا سبيل اليه . فاذا أنا صحت وجمعت الناس تقع التهمة على رأسى »

فتحير فى امره ثم تذكر ما ارتكبته قطام من الفظائع كانه يحاول ان يلتمس لنفسه عذرا اذا تخلى عنها . فرأى انها اقدمت على جرائم تستحق القتل على كل واحدة منها . وتذكر ما وراءها من المال الكثير والحلى الثمين ، وانه هو وحده يعرف مخبآتها فى الكوفة . فطمع فى الميراث وصمم على اغتنام الفرصة فهم بما عليها من الحلى فنزع الاساور والدمالج من يديها والعقود من عنقها ، وجمع ما فى جيوبها وصناديقها من غالي الثمن وخفيف الحمل . وتركها غارقة فى دمها ولسان حاله يقول : « ذلك جزاء القوم الظالمين » . ودخل الشام فى الصباح التالى فاشترى أثوابا تنكر فيها ، وقصد الكوفة فأخرج ماخبأته قطام هناك من الاموال ، وابتاع لنفسه ضيعة أقام بها

وأعد البستانى الطعام وحمله وفيه الجبن والفاكهة والخبز فى كيس من القش ، وجاء الى موضع الخيمة وهو مسرور بتلك الضيفة لأنها كانت كريمة تعطى الناس بسخاء . ولكنه ما وصل الى الخيمة حتى راى الحال كما ذكرنا ، وليس هناك الا جثة قطام وكانت قد همدت وسكن شخيرها واختلاجها . فلا تسل عن رعبه لما رآها فى تلك الحال . فقال فى نفسه : « لا شك أن جماعة أقوياء تجرأوا على هذا العمل ، وقد فعلوا ما فعلوا ونجوا بانفسهم ، واذا انا أظهرت هذه الجثة جلبت على نفسى البلاء ، فمالى الا أن احتفر لها حفرة اخفيها فيها »

فاشتغل بالحفر وهو يحاذر أن يراه احد أو يسمع فاسه . ثم دفن الجثة واخفى آثار الدماء وحمل كل ما بقى من الأمتعة الى بيته ، وساق جملا كان باقيا هناك ، وكتم خبر تلك الحادثة عن كل انسان

طلاق .. وزواج

اما وفد الفسطاط فلما اشرفوا عليها من سفح المقطم ظهر لهم جامع عمرو في وسط المدينة كالبدر بين الكواكب ، فأرسلوا الرسول الى عبد الله لينبئه برجوعهم ، وأوصوه بأن لا يذكر له خبر قطام

وكان عبد الله قد خلا له الجو ، وصفا قلب الامير له ، ولكنه بقى مبلبل الخاطر على سعيد ، وكلما تذكر فرار قطام من سجنها انقبضت نفسه ، وكلما لقى خولة تحادثا بما مر بهما وذكرا سعيدا وتمنيا سرعة وصوله ، وعبد الله يدبر أسلوبا يخبره به عن حقيقة حاله مع خولة

وفيما هو جالس ذات صباح في غرفته بدار الامير ، اذا برسوله قد أقبل فصاح به : « ما وراءك ؟ »

قال : « ورائى سيدى سعيد وبلال »

قال : « واين هما ؟ »

قال : « تركتهما في سفح المقطم قادمين ، وجئت لأبشركم »

قال : « أهلا بالقادمين » . ونهض لساعته وخرج على فرس أسرج له ، ولم يكد يخرج من الفسطاط حتى التقى بسعيد وبلال على جملين ، فترجل بلال للحال وهم بيد عبد الله فقبلها

فقال عبد الله : « بورك فيك يا أسمر وبورك بشهامتك » . وهم سعيد بأن يترجل فأشار اليه عبد الله أن يبقى على جمله لينزلا معا فى دار الامارة

فساروا وسعيد يبتسم فقال له عبد الله : « ما الذى يضحكك ؟ »

قال : « يضحكنى أننا ذاهبون الى دار عمرو بن العاص ، وقد كنا بالأمس نحاذر أن يسمع بنا أو يرانا »

قال : « لله فى خلقه شؤون » . ثم قال بصوت خافت كأنه يحاذر أن يسمعه أحد : « لو أراد الله نجاح مسعانا ونجا الامام على كرم الله وجهه لما أهمنا النزول بهذه الدار »

فقال بلال : « لا تذكرنى بذلك الحادث الفظيع فقد شهدته بنفسى ، ورأيت ابن ملجم اللعين بأم عينى يضرب الامام بذلك السيف المسموم ، وقد كان بيننا وبين انقاذه لحظة لو أراد الله لعجلها . ولكن الآجال مرهونة بأوقاتها »

قال : « ولكن الله سيجزى الظالمين ، اما نحن فقد صرنا الآن من حاشية ابن العاص ، وهو والحق يقال من دهاة العرب وكرامهم وكبار قوادهم »

□

وبقيا فى مثل هذا الحديث حتى اقتربا من الدار فقال عبد الله : « لم اسمعك تذكر خولة . هل نسيتها ؟ »

فابتسم سعيد وقال : « كيف انساها وأنا انما جئت التمسها »

قال : « وماذا تلتمس منها ؟ »

قال : « لا أدرى . . . »

قال : « اظنك تدرى ، الا فاعلم أن خولة الآن زوجتى ، وقد زوجنى بها عمرو »

فضحك سعيد وهو يظن ابن عمه يمازحه . . .

فتظاهر عبد الله بالجد وقال : « يلوح لى أنك لم تصدق قولى ، فاقسم بالله وتربة أبى رحاب أن خولة قد زفت الى ، وعقد قراننا على يد الامير . واذا كنت لا تصدقنى فاسأل كل من فى هذه الدار عن ذلك »

فغلبت الشهامة على سعيد ولم يسعه الا أن قال : « وما يمنع أن تكون زوجة لك ؟ بورك لك فيها . ألست أخى ورفيقى وابن عمى ؟ »

قال ذلك وهو لايزال يشك فيما سمعه من عبد الله

ووصلا الى الدار ، فترجلا وسارا توا الى غرفة عبد الله ، وبعثا الى عمرو ينبئانه بقدومهما ، فامر بأن يستقبل سعيد فى غرفة خاصة ، وبعث الى خولة وأبيها ، فلما جاءا أقبل عمرو الى الغرفة وقد اجتمع فيها الجميع وبلال واقف خارجا ، فلما دخل عمرو تقدم سعيد لتقبيل يده والسلام عليه ، فرحب به ودعاه للجلوس

فقال سعيد : « اذا أذن مولاى فليأمر عبده بلالا بالدخول ليحضر هذه الجلسة »

فامر بدخوله فانزوى فى بعض جوانب الغرفة متأدبا وفى يده جراب من جلد

وكان سعيد ينظر الى خولة من تحت النقاب ، ويفكر فيما سمعه من عبد الله وهو يتردد بين الشك واليقين

فلما استتب بهم الجلوس خاطب عمرو سعيدا قائلا : « أظنكم تتوقعون ان تر ا قطام سجينة ؟ »

فقال سعيد : « نعم يا مولاى »

قال : « ولكنها فرت من السجن وزادت ذنبها اجراما بقتل خادمتها . وكنا قد أردنا استبقاءها مسجونة . أما الآن فاذا ظفرنا بها فلا قصاص لها عندنا غير القتل »

□

فلم يتمالك سعيد عن الابتسام ، وقد ندم لأنه لم يصرح بالأمر بادىء بدء، وهم بالكلام فاعترضه بلال مستأذنا . فسكت فتقدم بلال الى عمرو وجثا بين يديه والجراب بيده وقال : « هل يأذن لى مولاى بكلمة أقولها ؟ » . قال : « قل »

قال : « كيف ترجون القبض على قطام وأنتم لا تعرفون مقرها ؟ »

قال : « نطمع الناس فى البحث عنها بمال كثير »

قال : « وكم تعطون من يقبض عليها ؟ »

قال : « نعطيه مائة دينار »

قال : « أتشترطون أن يؤتى بها حية ؟ »

قال : « سواء علينا . جاء بها حية أم ميتة »

قال : « واذا جاء بخبر قتلها »

قال : « نقبل منه ذلك على أن يأتينا بما يثبت موتها »

فأخذ بلال يحل الجراب وهو يقول : « فليأمر مولاى الامير باعطائى مائة دينار » . وما أتم قوله حتى أفرغ الجراب بين يدى الامير ففاحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء وبلال يبحث فيه بأصبعه حتى وجد الأذنين وفيهما الاقراط

فأجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيه عمرو : « ويلك ما هذا ؟ »

قال : « هذا هو شعر قطام ملطخا بدمها . وهـذه اذناها واقراطهـا .

واذا اخرجتمونى جئتكم براسها . فانى انما تخليت عنه اجابة لأمر مولاى سعيد » . قال ذلك ووقف وهو يشير الى سعيد

فقال سعيد : « نعم يا مولاى ، انا أشهد أن بلالا قتل قطام وحده ، واحتز راسها وجاءنى به وهو ينوى حمله اليكم ، فاشرت عليـه بأن يكتفى بهذا الاثر تخلصا من نتن الرمة »

وكان الحضور قد بهتوا وهم ينظرون الى الشعر والاذنين فأشار عمرو الى بلال ان احمل هذه الاقذار من هنا . فأعادها الى جرابه وتنحى

فقال له عمرو : « لك عندنا مائة دينار » .

فشكر واثنى وقال : « انى أشكر مولاى الامير على نعمته واعترف بين يديه بانى لم اقتل هذه الخائنة لمال ، وانما قتلتها انتقاما للعدل » . واراد أن يفصل ما اجمله فانتبه الى أنه لا يجوز ذكر الامام على فى المجلس فاكتفى بما قال

وتذكرت خولة ان اباها كان قد غضب عليها من أجل بلال ، فاغتنمت هذه الفرصة لاكتساب رضا أبيها عنه فقالت : « يابلال تقدم وقبل يدى سيدك» . واشارت الى أبيها ، فتقدم بلال وقبل يده فلمـا هم القوم بالانصراف وقف عبد الله ووجه كلامه الى عمرو وقال : « أشهد أيها الامير ان امرأتى هذه طالق منى ثلاثا » . وأشار الى خولة

فأدرك سعيد أن ما قاله له صحيح وانه كان قد عقـد قرانه عليها . ولمح الامير عمرو الاضطراب على وجهه فقال : « طب نفسا ياسعيد انماكان الزواج صوريا وقد صح الموقف الآن بالطلاق » . والتفت الى ابى خولة وقال له : « انى أخطب خولة منك لسعيد ؟ »

فقال ابو خولة : « هى جاريتك يامولاى فاصنع بها ماتشاء »

فاطرقت خولة حياء ، وعندما آن الأوان عقد قران سعيد بخولة فى مجلس عمرو فبارك لهما وهنأهما بالزواج

وبعد أيام استأذن عبـد الله ابن عمه سعيدا فى الذهاب الى مكة للاقامة بها مع ذويه ، وودع خولة والأصدقاء وسار الى مكة واقترن هناك بابنة عم له وعاش الجميع كل فى مقامه عيشة لا يشوبها كدر الا حين يذكرون مقتـل الامام على . ثم حين سمعوا بعد ذلك عن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابى سفيان . فخرجت الخلافة من أهل البيت وصارت الى بنى أمية . وانما فعل الحسن ذلك حقنا للدماء ، ولم يتول الخلافة الا ستة أشهر ، فانتقل كرسيها من الكوفة الى دمشق ، وبقى فيها الى انقضاء دولة بنى أمية